ظاهرة التطرّف الدّيني في ميزان الاعتدال

تأليف

د. فاروق عبد المجيد السامرائي

جامعة الإسراء
(ولاية منيسوتا الأمريكية)

٢٠١٦م/١٤٣٩هـ

- مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور الشيخ فاروق عبد المجيد حمود السامرائي ، من مدينة سامرّاء في العراق . ولد سنة 1957م ، وأكمل دراسته الجامعيّة في الدعوة وأصول الدين، وحصل على شهادة الماجستير في الدعوة والعقيدة الإسلامية ، ثمّ شهادة الدكتوراه في الدعوة والتربية الإسلامية بتقدير مرتبة الشرف الأولى. وكانت جميع مراحل الدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- عمل في سلك التدريس الجامعي منذ سنة 1989م وإلى الآن (2016م) في جامعات عدّة وأشرف على عدد كبير من الرسائل العلميّة (الماجستير والدكتوراه) وهو الآن على رأس عمله رئيساً لجامعة الإسراء (الجامعة الإسلاميّة سابقا) في ولاية منيسوتا الأمريكيّة ، وكذلك رئيسا وإماما في المركز الإسلامي (مسجد الإسراء) ورئيسا للمجلس الفقهي في نفس الولاية.

- له عدّة بحوث ومؤلفات في مجال الدراسات الإسلاميّة ، وله مشاركات في برامج تلفزيونيّة وفي مؤتمرات ونشاطات المراكز الإسلاميّة في أمريكا الشماليّة.

- حصل على وسام المملكة الأردنيّة الهاشميّة للعطاء المتميّز من الدرجة الأولى، وذلك في عام 1997م.

ظاهرة التطرّف الدّيني

في ميزان الاعتدال

تأليف

الدكتور فاروق عبد المجيد السامرائي

مخطط الكتاب

المقدّمة و التمهيد

الفصل الأوّل : حقيقة التطرّف الدّيني (ماهيّته - أسبابه - مظاهره)

المبحث الأوّل : ماهيّة التطرّف الديني

المبحث الثاني : نظرات في ظاهرة التطرّف الدّيني

المبحث الثالث : أسباب التطرّف الديني وسبل علاجها

المبحث الرابع : مظاهر التطرّف في الوسط الدعوي

الفصل الثاني : أمثلة عن التطرّف (أحداث ووقائع)

المبحث الأوّل : التطرّف على مستوى الأفراد

المبحث الثاني : التطرّف على مستوى الجماعات

المبحث الثالث : التطرّف على مستوى القادة والحكام

المبحث الرابع : تطرّف أتباع الأديان السابقة

المبحث الخامس : تطرّف أهل البدع والأهواء

المبحث السادس : إخبار النبي ﷺ عن تطرفٍ قادمٍ

الفصل الثالث : حفظ الله لأنبيائه من التطرّف

المبحث الأوّل : مفهوم العصمة والحفظ

المبحث الثاني : أمثلة عن حفظ الله للأنبياء

المبحث الثالث : حفظ الله لرسوله ﷺ من التطرّف

الخاتمة والفهارس

المقدّمة

إنّ الْحمد لله نحْمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شُرورِ أَنْفُسنا ومنْ سيّئات أَعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأَشهد أَن لا إِلَه إلاّ الله وحده لا شرِيكَ له ، وأَشهد أَنَّ محَمَّدا عبده ورسولُه ، أَمَّا بعد :

فإنّ ظاهرة التطرّف الديني ليست بجديدة ، فقد امتدّت عبر الزمان والمكان ، ولا تخصّ ديناً بعينه ، فجميع الأديان ابتليت بها بسبب ممارسات بعض أتباعها الخاطئة ، ولا حدود تنتهي عندها ما دام الجهل قائما في حياة النّاس . ومن المعلوم لدى الباحثين بأنّ التطرّف الديني نتج عن جُملة اعتقادات وممارسات سلبيّة ، لجأ إليها بعضُ الناس منذُ القديم نتيجةً لأمراض اجتماعية أونفسية أو سياسية أو اقتصادية ، ومع ذلك فإنّ صفةَ التطرّف التصقت في زماننا بأهل التديّن ، فأصبحت مدار اتهام المسلمين ، وعنوانًا لصيقًا بهم ، ومسلكًا لتشويه صورة الدّين الذي ينتسبون إليه . وتزايد هذا الأمر حتى بات المسلم يخشى على حياته من إسلامه ،

والمتدين يخاف على نفسه من تديّنه ، فاختلّت الموازين وغابت الحقائق وسط صراع محموم تلبّد بغيوم الرّيب والشبهات .

لقد كثر الحديث عن ظاهرة التطرّف الديني ، حتّى أصبحت دارجة على ألسنة النّاس ، وتسبّبَ الإصرارُ العالميُّ على عدم إيجاد تعريفٍ محدّد لها ، في إحداث خللٍ منهجيّ وقع في شِراكه كثير من النّاس ، ولعلّ الهدف من ذلك هو لاجل استخدامه كسلاح يُسَلَّط على رقاب الخصوم والمخالفين ، والعمل على إلصاق هذه التهمة بهم كلّما سنحت الفرصة ، أو لزمت الحاجة . لقد أراد أهلُ الكيد والمكر لهذا المصطلح أن يبقى فَضفاضًا كشبكة الصيّاد ، لا يُدرِكُ حقيقتها إلاّ من وَقَعَ فريسة في شباكها . ثمّ إنّ اتّهام المسلمين بالتطرّف دون غيرهم فيه جَوْر في الحكم ، فالحالات الفرديّة لا تمثّل المجموعة ، ولا تعكس وجهة الجماعة ، وأحيانا لها أسبابها، سواء انبعثت عن الجهل بالدين أو كردّة فعل من حدث أو موقف مستفزّ ، أو بسبب تمرّد على واقع مرير .

وفي هذا الموطن لا نريد أن نأخذ بمبدأ اتّهام غيرنا عند الدفاع عن أنفسنا ، لكنّنا حرصنا على بيان بعض الحقائق التي قد تغيب عن أذهان كثير من النّاس بسبت التعتيم المتعمّد لها ، ومن بينها :

١ - إنّ كثيراً من مظاهر التطرّف والإرهاب قد انبثقت وتمخضت كردة فعلٍ من الشعوب المظلومة التي قهرها حُكامها وغَيّبُوا حقها في العدل والعيش الكريم . ثمّ إنّ الهيمنة الغربيّة على منطقة الشرق الأوسط هي التي أوجدت جِيلا من المقاومين الرافضين والمناوئين لها بكل الوسائل الممكنة ، فالعُنفُ في نظرهم لا يُقاوم إلاّ بالعنف ، والقتل والتطرّف لا يُقابلان إلاّ بالقتل والتطرّف ، والجزاءُ من جنس العمل ، وَقِس على ذلك كُلّ الإسقاطاتِ التي لا يُمكن أن يتجاهلها عقلاء النّاس.

٢ - في ميدان الدفاع عن النّفس - وهو حقّ مشروع - لنا أن نسأل : من الذي غزا بلاد المسلمين تحت مُسَمَّى الاستعمار ؟ ومن الذي نهب ثروات بلداننا وأوقع فيها الهلاك والدّمار ؟ وبأي ذَنبٍ قَتَل الاستعمار الفرنسي مليون شهيدٍ في الجزائر؟ وبأي ذَنبٍ حصد الطليانُ المستعمرون أرواح مئات الآلاف من شعب ليبيا المسلم ؟ ثم من الذي طوّعت له نَفسُهُ استخدامَ السلاح الفتاك والمحرّم دُوليًّا في الحربين العالميتين ، الأولى والثانية ، حتّى أُزهِقَت فيهما أرواحُ ما

يقرب من ثمانين مليون شخص [1] ناهيك عن هلاك الحرث والنّسل ودمار الأمم والشعوب ؟ وهل نسي العالمُ تنكيل الصّرب بالمسلمين في البوسنة والهرسك ؟ ومن هم الذين سفكوا دماء عشرات الآلاف من المسلمين في ميانمار وسيرلانكا وأفريقيا الوسطى ومالي وغيرها ؟ والأمثلة على ذلك كثيرة ومثيرة !! وها نحن نشهد الأحداث الدمويّة الأليمة على أرض العراق والشام وفلسطين واليمن وغيرها من بلاد المسلمين ، حتّى أصبحت مسرحا للقتل والتهجير والإبادة الجماعيّة وتصفية الحسابات بين دول لا ترعى في الإنسانيّة إلاّ ولا ذمّة ، فلماذا لم تُصَنّف أغلبُ تلك المذابح الدمويّة في دائرة الإرهاب أو التطرّف ؟

٣ - بعض دول العالم كانت تتباكى على قِيَم الديمقراطية وحقوق الإنسان ، حتّى جيّشت الجيوشَ لأجل نشرها وحمايتها كما تزعم ، لكن المفارقة العجيبة في مواقفها المتناقضة !! ألم تُعْرِض عن أفعال الحكّام المستبدين الذين أهلكوا البلاد والعباد وأورثوا

---

(١) أنظر: الصفحة الإلكترونية للموسوعة الحرة (وكيبيديا) : موضوع خسائر الحرب العالمية الثانية .

شعوبهم الدّمَار والخراب ؟ أَلَم تسمع أو تُصغي لأصوات الاستغاثة التي انطلقت من حناجر المظلومين؟ ألم تكن أسباب هجرة المسلمين المتزايدة إلى بلاد الغرب هي ردّة فعلٍ للشعوب المقهورة المظلومة التي عانت من طغيان حكّامها ومن بطشهم وتنكيلهم ؟ لكن للأسف كلّ ذلك حدث تحت سمع وبصر العالم !! فأين نحن من حقوق الإنسان في العيش والكرامة التي كفلتها جميع الشرائع والقوانين ؟ إنّها مأساة قيم وأخلاق ، قبل أن تكون مأساة أُمم وشعوب . وما دام كبارُ السَّاسة في العالم يدعمون الحكّام الظلمة ولا يمنعونهم من قهر شعوبهم ، فإنّ كلّ انتهاكٍ لآدمية الإنسان سيكون وقودًا للتطرف والإرهاب، قد يطولُ ويمتدُّ إلى ما شاء الله .

٤ - لا ننسى أن نذكّر أنفسنا بما آلت إليه أحوال أمّتنا ، فقد وقعت فريسة بين مخلبين ، بين جهل المسلمين ، وكيد أعدائهم ، واستمدّ الكيد معظم قوّته من جهلنا بأمور ديننا ، ومن بُعْدنا عن أصوله وثوابته ، وآثر أعداء الدّين إخفاء بُغضهم للإسلام وراء اتّهام أتباعه بالتطرّف ، حتى لا يُوصفوا بالعنصرية والعداء للدّين بشكل واضح وصريح ؛ ليبقى الظاهرُ من أفعالهم مقبولاً في نظر عموم المسلمين .

٥ - وأخيرا توحّدت جهود الساسة في الشرق والغرب لمواجهة ظاهرة التطرّف الديني ، وساعدت وسائل الإعلام العالمية في تشويه صورة الإسلام وتقديمه للنّاس على أنّه العشّ الأوّلُ الذي احتضن هذه الظاهرة وغَذّاهَا بتوجيهاته وأفكاره ، بغية تصعيد موجة الكراهية والعداء تُجاه الإسلام والمسلمين . ولم يسلم القرآن الكريم ولا السنّةُ النبويّةُ المطهرةُ من سهام هذا الاتهام باعتبارهما المنهل الأكبر للمتطرفين الإسلاميين - كما يزعم أصحاب هذه الحملة المسعورة - وحتّى علماء الأمّة الأوائل وسلفها الصالح الذين أفضوا إلى لقاء ربّهم بقرون طويلة ، لم يسلموا أيضا من هذه الافتراءات والاتّهامات .

ومن هنا جاءت رغبتي في وضع هذا الكتاب لأتحدّث فيه عن ظاهرة التطرّف الديني من جوانب عدّة ، تضمنها مخطط هذا الكتاب ، مع محاولتي إصابة العدل في الحكم ، والاعتدال في النظرة ، بمنهجيّة تصل المستقرّات بمنطلقاتها ، والنتائج بأسبابها .

أسأل الله تعالى التوفيق والسداء في مهمّتي هذه ، فهو حسبي ونعم الوكيل ، وصلّى الله وسلّم على سيّنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

لقد أصبح من الضروري أن يكون لنا موقعٌ بارزٌ في جبهة الدفاع عن قضايا الإسلام ونُصرة الحق حيثما كان ، خصوصًا وأنّ أعداء هذا الدين يتربصون بنا الدوائر ، ويعُدّون علينا السقطات ، ويُحمّلُوننا وزر الأحداث وإن كُنّا أبرياء منها براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام ، لأنّ غايتهم إلصاق التّهم وليس إبراء الذمم . وأيًّا كانت الحقيقة ، فعلينا أن لا نُساق إلى حرب داخلية أرادها لنا الأعداء ؛ ليحققوا من ورائها أهدافهم في تمزيق جسد الأمّة الإسلامية وإضعاف شأنها بين الأمم ، ثمّ لا نريد لأبناء الأمّة أن يعيشوا حالة من اللاوعي ، فتطول غفلتهم ، ثمّ في نهاية المطاف يجدوا أنفسهم سلاحا بيد أعدائهم .

نحن أُمّةٌ لها خصوصيّتها ومميّزاتها ، وأقدر من غيرنا على إيجاد العلاج الشافي للأمراض التي تطفو على جسدنا ، فقد زوّدنا الحقُّ سبحانه وتعالى بكلّ الأحكام والتشريعات الكفيلة بتصحيح الخطأ ، وعند وقوع التنازع لا يسعنا تحكيم غيرنا فعندنا كتاب الله عز وجل وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال الحقّ سبحانه وتعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة ٥٠) وقال سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا

أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللهِ وَالرّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا ﴾ (النساء ٥٩) فجعل ردّ الأمر إلى أصله الدّيني شرط في صحّة الإيمان ، بل في موطن آخر نفى الإيمان عمّن لا يُحكّم شرع الله ، قال الحقّ ﷻ : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النّساء ٦٥) . وليس من الحكمة أن ننجر وراء كل ناعق ومُضلل، أو خلف كلّ من يريد أن يُفسد علينا ديننا وآخرتنا ، فسعادة الآخرة غاية مُرادنا ، ولا نُريد أن نعيش سعادة دُنيانا بشقاء آخرتنا ، بل نعيش حياتنا ، وإن قست ظروفها ، بعزّة وكرامة من أجل صلاح آخرتنا ، والذي يُفسد علينا آخرتنا فهو يسلب منّا حياتنا وإن منحنا ظاهر نعيمها ، فنحن ودنيانا قربة لله تبارك وتعالى ومطيّة لطاعته . لقد حاول أهل الكيد والمكر ، أن يُدخلوا الوهم في عقول المسلمين ، لإقناعهم بعدوّ قادم من رَحِمِ الأمّة ، لا يُدركون غورَه ، ولا يضبطون أصلَه ولا منشأَه ، حتّى أصبح كثير منهم يتساءلون وهم في حيرة من أمرهم : هل التطرّف

مشكلة إسلامية أصيلة ، أم هي دسيسة حاكها أعداء الإسلام لتشويه صورته وصدّ النّاس عنه ؟

إنّ الإسلام بريءٌ من التطرّف والغُلو ؛ لأنّه دينُ وسطية واعتدال ، لكن التطرّف كغيره من الآفات السلبية ، فقد يظهر في ممارسات بعض المسلمين بسبب خروجهم عن استقامة الطريق ، ومجافاتهم لسمات وخصائص الشريعة الإسلامية السمحة . ولا يسعُنا في مواجهتنا لهذه الظاهرة أن ننجر إلى ميادين الصراعات الفكرية والسياسية ، أو أن نجعل من قضايا أُمَّتنا المصيريّة سلعةً رخيصةً تُباع في سوق النخّاسين .

نحن لا نشكّ في أنّ الإسلام في أصله ومنهجه وغاياته ، هو دين رحمة ووسطيّة وتيسير ، وهذه السمات والخصائص هي من أهمّ ما دعا إليها ورسختها بعثةُ النبي محمّد ﷺ . فالرحمة في الإسلام لم تكن آثارها قاصرةً على المسلمين فحسب ، بل هي لكلّ العالمين ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين﴾ (الأنبياء ١٠٧). ولترسيخ هذه السمة الجليلة في القلوب والأذهان ، فقد افتُتحت كلّ سور القرآن الكريم - ما عدا سورة التوبة - بالبسملة ﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم﴾ التي تجمع بين اسمين عظيمين من أسماء

الله الحسنى، وكلاهما مشتقٌّ من كلمة الرّحمة ، وفي ذلك دلالةٌ بالغةٌ على أهميّة هذه السمة العظيمة ، وعلى مركزيتها في الإسلام . وكما هو معلومٌ ، فإن الرّحمة صفةٌ كتبها الله ﷻ على نفسه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام ٥٤) وهي خُلُقٌ رفيعٌ يتفاضل به النّاس في درجاتهم، بل إنّ أجرها عظيم في ميزان الله ﷻ . يقول النبي ﷺ: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاء " (١)

أمّا الوسطية فهي من سمات ديننا الحنيف ، وقد خصّ الله بها الأمّة الإسلاميّة ، وبسببها جعلها شاهدةً على غيرها من الأمم ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة ١٤٣) . وشريعة الإسلام هي منهجٌ وسط في التصور والاعتقاد ، وفي الأخلاق والسلوك ، وفي العبادة والنُّسُك ، وفي هذه الوسطيّة تحقيقٌ لمبدأ التوازن الذي قامت عليه سُنة الله ﷻ في خلقه ، وجُبلت عليه الفطرةُ السليمةُ التي فطر الله النّاس عليها ، وهي أيضًا تُنافي كلّ مفاهيم الشطط والغلو والتفريط ، وفيها دعوةً أصيلةً إلى عمارة الأرض وفقًا لمراد الله ﷻ

---

(١) رواه الترمذي في السنن ج٤/ص٣٢٣ ، وقال عنه : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وتبعًا لمرضاته . فنحن مستخلفون في الأرض ، ولا يسعنا إلاّ أن نمضي وفق منهج من استخلفنا ، بتوسّط واعتدال ، ومن غير إنحراف أو تطرّف ، لأنّ منهج الله وُضع لخير العباد ، يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - : "إنّ العبادات وضعت لمصالح العباد في الدنيا أو في الآخرة على الجملة وإن لم يعلم ذلك على التفصيل" (١)

وكذلك جاء الإسلام بمنهج التيسير ورفع الحرج ، وقد خصّ الله شريعته بذلك فقال ﷻ : ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥) وكان رَفْعُ الحرج عن النّاس مقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشريعة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج ٧٨) أمّا التطرّف فلا يختلف عاقلان على أنّه يجلب المشقّة والحرج .

---

(١) الموافقات ج ١ / ص ٢٠١ .

** ونودّ التنبيه هنا إلى أنّ بعض النّاس يذهب إلى تغليب العقل على النّقل في اعتبار المصالح ، وأنّ ما يراه العقل مقدّم على الأحكام ، لذا يلزمنا التوكيد على أنّ أحكام الدين مفادها مصالح العباد ، فلا يجوز ترك حكم شرعي فيه نصّ صريح بحجّة المحافظة على المقاصد ، بل إنّ المقاصد المعتبرة في نظر الشارع لا تتعارض مع الأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنّة ، فالله خبير بعباده ، ويعلم ما تنصلح به أحوالهم . وعلى أساس علمه بمطلق أحوال العباد شرع لهم العبادات والأحكام ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك ١٤)

وفيما يتعلّق بأهل العلم ، وأخصّ الدعاة منهم ، فلأجل صيانتهم من التطرّف في ميدان الحقّ ، سواء في الفكر أو في السلوك ، أحببت في هذا الموطن ، وبما له علاقة بموضوع هذا الكتاب ، أن أنقل إليهم وصيّة الإمام الجليل أبي حنيفة - رحمه الله - التي أوصاها لأحد تلاميذه (يوسف بن خالد السمتي) بعد أكمل دراسته على يد شيخه أبي حنيفة في بغداد ، ثمّ أراد العودة إلى بلدته (البصرة) ، زوّده بوصيّة ؛ لأجل أن يكون أداة تغيير لا تنفير ، وسبيل ترغيب لا ترهيب ، وسبب إقبال النّاس على الحقّ ، لا إعراضهم عنه .

لقد صرّح الإمام أبو حنيفة عن الغاية من وصيّته لتلميذه السمتي بقوله : "حتى أزوّدك بوصيةٍ تضم ما تحتاج إليه في معاشرة الناس ، ومعرفة مراتب أهل العلم وتفقد أمر العامة ، حتى إذا خرجت بعلمك إلى الناس كانت معك آلةٌ تصلح له ، وتُزَيِّنُهُ و لا تُشِينُهُ".

وجاء في الوصية : " اعلم أنّك متى أسأت عشرة النّاس صاروا لك أعداءً ، ولو كانوا لك أمّهاتٍ وآباءً ، ومتى أحسنت عشرة قوم ليسوا لك بأقرباء صاروا لك أمهاتٍ وآباءً ... كأنّي بك و

قد دخلت البصرة وأقبلت على المخالفة فيها ورفعت نفسك وتطاولت بعلمك عليهم وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم ، وهجرتهم وهجروك وشتمتهم وشتموك وضللتهم وضللوك وبدّعوك ، واتصل ذلك الشّين بنا وبك واحتجت إلى الهرب والانتقال عنهم ، وليس هذا برأي ، إنّه ليس بعاقل من لم يُدَارِ من ليس من مدارته بُدٌّ حتّى يجعل الله له مخرجًا . إذا دخلت البصرة استقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقّك ، فأنزل كل رجلٍ منزلته ، وأكرم أهل الشرف ، وعظّم أهل العلم ، ووقّر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرَّب من العامة ، ودار الفجار ، واصْحب الأخيار ، ولا تتهاون بالسلطان ، ولا تحقرن أحدًا ، ولا تألفن ما يُنكر عليك في مُروءتك ، ولا تُخرجن سرّك إلى أحد ، ولا تألفنّ ما يُنكر عليك في ظاهره ، وإياك والانبساط إلى السفهاء ، وعليك بالمداراة والصبر والاحتمال وحسن الخلق وسعة الصدر ، واستجد ثياب كسوتك ، واستفره دابتك ، وأكثر استعمال الطيب ، وابذل طعامك فإنّه ما ساد بخيلٌ قط ، ولتكن لك بطانةٌ تعرّفك أخيار الناس ، فمتى عرفت بفساد بادرت إلى صلاحه ، ومتى عرفت بصلاح ازددت فيه رغبةً وعنايةً . واعمل في زيارة من يزورك ومن لا يزورك ، والإحسان إلى من

يُحسن إليك ومن يُسيء ، وخُذ العفو وأمر بالمعروف ، وتغافل عمّا لا يعنيك ، واترك كل ما يؤذيك ، وبادر في إقامة الحقوق ، ومن مرض من إخوانك فعُدهُ بنفسك وتعاهده برسلك ، ومن غاب منهم فافتقد أحواله ، وأظهر تودداً للناس ما استطعت ، وأفش السلام و لو على قومٍ لِئامٍ . ومتى جَمَعَ بينك وبين غيرك مجلسٌ أو ضَمَّكَ وإياهم مسجدٌ ، وجَرَت المسائلُ وخاضوا فيها بخلاف ما عندك فلا تُبدِ لهم خِلافًا ، وإن سُئلتَ عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قولٌ آخرٌ وهو كذا و كذا والحجة له كذا ، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فإن قالوا : هذا قول من ؟ فقل : بعض الفقهاء ، فإن استقروا على ذلك وألفوه وعرفوا مقدارك وعظموا محلّك ، فأعط كلّ من يختلف إليك نوعًا من العلم ينظرون فيه ، وآنسهم ومازحهم أحيانًا ، وحادثهم فإن المودة تستديم مُواظبة العلم ، وأطعمهم أحيانًا ، واقض حوائجهم ، واعرف مقدارهم ، وتغافل عن زلاتهم ، وارفق بهم وسامحهم ، ولا تُبد لأحد منهم ضيق صدرٍ أو ضجرًا ، وكن كواحدٍ منهم . واستعن على نفسك بالصيانة لها والمراقبة لأحوالها ، ولا تُكلّف النّاس بما لا يطيقونه ، وارض لهم بما رضوا لأنفسهم ، وقدّم إليهم حُسن النية ، واستعمل الصدق

واطرح الكبر جانبًا ، وإياك والغدر وإن غدروا بك . وأَدّ الأمانة وإن خانوك ، وتمسك بالوفاء ، واعتصم بالتقوى ، وعاشر أهل الأديان وأحسن معاشرتهم . . ." [1] .

والمتمعنُ في هذه الوصية يُدرِكُ أنّها حَوَت جوانب عدّة في صيانة شخصية طالب العلم ، وتوجيهه نحو ميادين الحياة واجتماعيات الناس ، كي تحول دون التطرّف والغلوّ وجلب العداوة. فحقًا إنّها آلةٌ تُزينُ ولا تُشينُ ، وعدةٌ للعلماء العاملين وللدعاة الصادقين . فيها منهج معاملة العامة والخاصّة ، وحفظٌ لمكانة العلم والعلماء ، وفيها تستقيم وتتزن شخصية العالم وطالب العلم وتسمو مكانَتُهما ، فيقتربان من القلوب من غير نفرة ، ويؤنسان من غير ضجر ، وتتقبلهما النفوس من غير ملل .

---

(١) الوصية مطبوعةٌ بكاملها في كتيب صغير وقد راجعها إبراهيم مختار الجبري ، مطبعة الحلبي (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) وكذلك طبعت هذه الوصية بذيل كتاب : "تعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجي ، تحقيق الشيخ عبد الجليل العطا ، دار النعمان ـ دمشق، ط١/١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م . وقال الزرنوجي عنها : "وينبغي لطالب العلم أن يُحصِّل الوصيَّة التي كتبها أبو حنيفة رحمه الله ليوسف بن خالد السمتي" (تعليم المتعلم طريق التعلّم ص٦٤) وقيل أنّ الوصيّة بكاملها مدوّنة في مخطوط محفوظ بجامعة استانبول . ونسخة منها في مكتبة الشيخ زهير الشاويش برقم ٣٨٥.

لقد زُويت في هذه الوصية أبعادٌ كثيرةٌ من مكارم الأخلاق ، وذوقيات العلماء ، وتجارب الخبراء ، وخبرات المجربين . لذلك ينبغي على كلّ عاملٍ في الدعوة إلى الله أنْ يتأمّل الأبعاد التربوية في هذه الوصية ، ويستفيد منها في تعامله مع النّاس ، خصوصا ونحن نعيش في زمن افتقرنا فيه إلى مِثْل تلك القيم التي زخرت بها وصيّة الإمام الجليل - رحمه الله - ، بل نحن في أمسّ الحاجة إلى الأخذ بدلالاتها لأنّنا نعيش في زمن تزاحمت فيه الآراء وكثرت فيه الطروحات وتنوعت الاتجاهات ، وزاد إعجاب كل ذي رأيٍ برأيه ، وقد تعصّب كثيرٌ من الناس لما عندهم دون الاكتراث بما عند غيرهم .

الفصل الأوّل

حقيقة التطرّف الدّيني

(ماهيّته وأسبابه ومظاهره)

المبحث الأوّل : ماهيّة التطرّف الديني

المبحث الثاني : نظرات في ظاهرة التطرّف الدّيني

المبحث الثالث : أسباب التطرّف الديني وسبل علاجها

المبحث الرابع : مظاهر التطرّف في الوسط الدعوي

تقديم

هناك تباين كبير بيننا وبين غيرنا في تحديد مفهوم التطرّف ، وذلك لاختلاف المشارب والعقائد والأديان ، خصوصا وأنّ الأمّة الإسلاميّة لها مرجعيّة ثابتة يحكمها الوحي والتنزيل ، ولا نستطيع أن نُلزم أتباع الديانات الأخرى بها .

ومع وجود هذا التباين ، فإنّ ذلك لا يمنع من إيجاد صيغة عادلة ، تكون قاسما مشتركا بين النّاس، لتحول دون تعويم الظاهرة، لأنّ أمر التطرّف قد تعاظم ، وتتعددت مدارسه ، فاستغلّ بعض مرضى النّفوس تعويم هذه الظاهرة ، فجعلوها تصبّ في مصالحهم وأهدافهم ، حتّى عظم شأنهم ، فأصبح من آثار ذلك ما يسمّى بلغة اليوم (الارهاب) الذي أوجد إجماعا دوليّا على حربه ، مع اختلاف وتنازع دول العالم في قضايا أخرى كثيرة .

لقد أصبح من غير الممكن أو المقبول تجاهل ظاهرة التطرّف أو الاستخفاف بتوابعها ، لا سيما وأنّ النّقاش حولها يشتدّ ويتجدّد مع كل حادث يتمُّ تَصنيفُهُ في دائرة الإرهاب أو التطرّف .

وفي هذا الفصل أحببت أن ألقي الضوء على جوانب عدّة لأجل بيان حقيقة هذه الظاهرة ، مع كشف بعض الأسباب الحقيقيّة التي أدّت إلى وجودها وانتشارها ، خصوصا وأنّ العوامل المغذية لها باتت أشدّ خطرا من آثارها .

المبحث الأوّل

ماهيّة التطرّف الديني

إنّ كلمة (التطرّف) لم تُذكر في كتاب الله ﷻ ولا في سُنَّة النبي ﷺ ، وقد شاع استخدامها في وقتنا الحاضر . ولعلّ اللفظ الديني الذي يقابلها هو (الغلوّ) الذي ذُكِر في مقام الذمّ ، قال الحقّ ﷻ : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ولا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاّ الْحَقَّ﴾ (النساء ١٧١) وبمناسبة هذه الآية بوّب الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه : "بَاب ما يُكْرَهُ من التَّعَمُّقِ وَالتَّنَازُعِ في الْعِلْمِ وَالْغُلُوّ في الدِّينِ وَالْبِدَعِ" [١] . وورد لفظ الغلو في قول النبيّ ﷺ : "إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ في الدِّين فإنّه أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُم"[٢] لأجل ذلك يلزمنا وضع تعريف مُنضبط لمعنى التطرّف ؛ لأجل أن نُفَرِّق بين التطرّف الحقيقي الذي يجب علينا أن نُقاومه ونعالج آثاره ، وبين الأكاذيب المصطنعة التي تُنسب إلى المسلمين ظلماً وعدوانا .

---

(١) أنظر : صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٦١

(٢) المستدرك للحاكم ج١/ص٦٣٧ ، وصححه ؛ وسنن ابن ماجة ج٢ / ص ١٠٠٨ .

التطرّف في معناه اللغوي :

يُقصدُ به تجاوز حدود الاعتدال وتركُ الوسط ، والميل نحو الأطراف ، قال الشاعر :

لا تغلُ في شيءٍ من الأمر واقتصد

كِلا طرفي قصد الأمور ذميمُ [١]

وطرف الشيء إما أن يكون ابتداءه ونهايته وآخره ويبعد أن يكون ما قرب من الوسط طرفا. [٢] والمتطرف غالبًا ما يكون أقرب الناس إلى المهالك والمخاطر وأبعدهم عن الحماية والأمان ، والعكس صحيحٌ ، فالمتوسطُ في الأمور يكون أقلَّ عُرضةً للمخاطر من غيره ، فالأطراف سِياجٌ للوسط ، وهي في العادة مبذولةٌ للعوارض دونه ، يقول الشاعر :

كانت هي الوسطَ المحميّ فاكتنفت

بها الحوادثُ حتى أصبحت طرفًا [٣]

---

(١) السنن الأبين ج١/ص٦٥

(٢) أحكام القرآن للجصاص ج٣/ص٢٥٠

(٣) أنظر : إغاثة اللهفان ج١/ص١٨٢

والتطرّف مذموم عند أهل الذوق السليم ، وهو على خلاف التوسط المؤدّي دائمًا إلى العدل في الحكم . قال الشاعر:

هم وسطٌ يرضى الأنام بحكمهم

إذا نزلت إحدى الليالي بمعظمِ [1]

التطرّف في معناه الاصطلاحي :

يراد به : التعصب المذموم لعقيدةٍ مُعينة أو فكر أو مذهب ، ومنه الميل إلى أخذ الأمور على محمل الشدّة ، ثمّ الإقبال عليها بما يجاوز اليُسر واللين والسماحة وقبول الآخرين . ويَنجَرُّ هذا المفهوم بشكلٍ أكبر على المسلك التعبدي ، وقد تصل آثارُهُ إلى التهوّر والتنطـّع ، بل وحتى العنف أحيانًا ، لأنّ الميل عن الاعتدال ، سواءٌ إلى إفراط أو تفريط، غالبا ما يجعل من الإجماع شُذوذا ، ومن الخير شرّا ، ومن المعروف منكرا ، ولهذا فإنّ التطرّف هو نقيض الاعتدال ، وبأضدادها تُعرف الأشياء .

ولكي نستكمل بيان مفهوم التطرّف في الاصطلاح ، يلزمنا توضيح أقسامه ، حيث ينقسم إلى :

---

(١) أنظر : تفسير البحر المحيط ج١/ص٥٩١

١- التطرّف الفكري أو العقدي :

وهو كل ما يتصل بالفكر غير السوي ، والتصورات غير المتوازنة ، والأفكار الشاذة التي لا يألفها الذوقُ السليمُ ، ولا يقبلها العقلاءُ من الناس، وتنعكس نتيجةُ هذا النوع من التطرّف على صاحبه ، فلا يرى الحق إلاّ في نفسه ، فيغلق عليها أَبوابَ النُّصح والحوار .

٢- التطرّف السلوكي أو العملي :

ويتجسّد في المغالاة في السلوك والأداء ، فيخرجُ صاحبه عن المقبول والمألوف . وقد لا يتوقف عند حدود ذاته ، بل يتعداها إلى الآخرين ، محاولا إرغامهم على التقيُّد بما يفعله قهرًا وقسرًا ، وربما يلجأ إلى التهديد والعُدوان لجبرهم على تنفيذ ما يُريد .

وفي حديثنا عن ماهيّة التطرّف الديني يلزمنا التنبيه إلى عدّة قضايا، من أهمّها :

أ- هناك تباين كبير بيننا وبين غيرنا في تحديد مفهوم التطرّف وذلك لاختلاف المشارب والعقائد والأديان ، خصوصا وأنّ الأمّة الإسلاميّة لها مرجعيّة ثابتة يحكمها الوحي والتنزيل ، ولا نستطيع أن نُلزم أتباع الديانات الأخرى بها . ومع وجود هذا التباين ، فإنّ

ذلك لا يمنع من إيجاد صيغة عادلة، تكون قاسما مشتركا بين النّاس، لتحول دون تعويم الظاهرة، لأنّ أمر التطرّف قد تعاظم ، وتتعددت مدارسه ، فاستغلّ بعض مرضى النّفوس تعويم هذه الظاهرة ، فجعلوها تصبّ في مصالحهم وأهدافهم ، حتّى عظم شأنهم ، فأصبح من آثار ذلك ما يسمّى بلغة اليوم (الارهاب) الذي أوجد إجماعا دوليّا على حربه ، مع اختلاف وتنازع دول العالم في قضايا أخرى كثيرة . لقد أصبح من غير الممكن أو المقبول تجاهل ظاهرة التطرّف أو الاستخفاف بتوابعها ، لا سيما وأنّ النّقاش حولها يشتدّ ويتجدّد مع كل حادث يتمُّ تَصنيفُهُ في دائرة الإرهاب أو التطرّف .

ب - إنّ مصطلح التطرّف الديني يُعدّ من القضايا النسبيّة التي يصعب تصنيفها أو تحديدها ، وبالتالي يصعب الحكم عليها ؛ لتباين المعايير في تعريف التطرّف أو الوقوف على حقيقته ، فالنظرة إليه تختلف من مجتمع وزمن لآخر ، ومن أمّة وملّة لأخرى . فما يراه جيلٌ من الأجيال تطرفًا قد يراه جيلٌ آخر اعتدالاً ، وما تراه مدرسةٌ فكريةٌ مُعينةٌ تطرفًا قد تراه أخرى اعتدالاً ، وفي ضوء ذلك تُبنى الاتجاهاتُ والمواقفُ . فلكلّ عقيدته وتصوراته ، ووفقا لذلك يختلف الحكم .

ج - لمفهوم التطرّف علاقةٌ وثيقةٌ بمدى تديّن الفرد ، وطبيعة الوسط الذي يُحيط به ، فلو نَشَأَ المرءُ في وسطٍ إجتماعي شديد الالتزام بالدين وأحكامه فلا يمكن أن يكون حكمُ الناس على ممارساته التعبدية مُطابقًا لحكمهم عليها فيما لو نشأ في وسطٍ مُتَسَيِّبٍ ضعيف الالتزام ، فالمجتمعات التي يضعفُ فيها الالتزام بأحكام الدين ، غالبًا ما ترى في كثير من الممارسات التعبدية العامّة مظهرًا متطرفًا وإن كانت ضمن حدود التكاليف الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة ، فما بالنا بالمجتمعات التي لا تمُتّ للدّين بصلة ، ولا يعرف الناس فيها حقًّا لله ورسوله ﷺ ، فصاحب الّلحية مثلا مُتطرفٌ ومُتزمتٌ في نظر هؤلاء ، وكذلك المرأة التي تلبس الحجاب، ناهيك عن المرأة التي ترتدي النقاب ، وهكذا تتفاوت النظرةُ إلى مُستوى الأداء التعبدي من مجتمع لآخر ، ومن زمن لآخر . قال أَنَسٌ بن مالك رضي الله عنه لبعض التابعين الذين لم يعيشوا في زمن النّبي ﷺ : "إنّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ في أَعْيُنِكُمْ من الشَّعرِ إنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا على عَهْدِ النبي ﷺ من الْمُوبِقَاتِ" (١)

---

(١) صحيح البخاري ج٥/ص٢٣٨١

وكانت عائشة - رضي الله عنها - تُنشد بيتًا للبيد بن ربيعة [1] يقول فيه :

ذَهَبَ الذينَ يُعَاشُ في أَكنافِهِمْ * وبَقِيتُ في خَلَفٍ كَجلْدِ الأَجْرَبِ

ثمّ تقول : رحمَ الله لَبيدًا ، كيف لو عاش إلى زماننا هذا ؟

وكان ابن أختها عُروةُ بن الزبير - الذي عاش بعدها زمنا طويلا- يُنشدُ بيت لبيد ويقول : رحم الله لبيدًا وأمّي عائشة ، كيف لو عاشا إلى زماننا هذا ؟ [2]

د - قد يعتبر بعضُ الناس - ممن ضعُف تدينُهم وقلّ علمهم - أَنَّ التَّمسكَ ببعض جوانب الدّين ضربٌ من التشدد والغلو ، حتّى ولو كان في أدنى حدّ لإقامة الواجبات ، فما بالُك بأعداء الدين الذين يعتبرون الالتزام بأحكام الدين رجعيةً وتخلفًا ؛ لذلك فإنّ من دواعي العدل أن يتصدّر الحكم على مظاهر التطرّف الديني ، أناس يفقهون الأحكام والأحوال وبالأخص العلماء منهم ، ولا يُترك هذا الأمر

---

(١) هو لَبِيد بن رَبِيعَة بنِ عَامِر بن مَالك ، كان من عظماء الشعراء ، وفد على رسول الله ﷺ فأَسلم وحَسُنَ إِسلامُه . (أنظر : أسد الغابة ج٤/ص٥٣٨)

(٢) كنز العمال ج١٤/ص٢٤٥ ؛ وتهذيب الآثار ج١/ص١٢٤.

للذين يعيشون بين ظهرانينا ممن يحملون أسماءً إسلاميةً وعُقولاً أجنبيةً ، ولا يملكون الولاء الصادق لدين الله ، بل يبغضون كل مظهرٍ من مظاهر التديّن ، ولَئِن اتّبعت الأمّة آراء وأهواء مثل هؤلاء لتفرقت بها السُّبُلُ ولضلّت كما ضلّوا ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون ٧١) وقال ﷻ: ﴿وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ (الشعراء ١٥١، ١٥٢)

لذلك فمن الخطأ في موضوع التطرّف أن يقتصر مفهومه في صور الأعمال الإرهابية وقتل الأبرياء وإتلاف أموال النّاس بالباطل - مع إنكارنا الشديد لهذه الأفعال المشينة - من غير النظر في الجوانب الأخرى التي قد تكون هي الأشدّ خطرا ، والتي أغفلتها وسائل الاعلام ، وكثير من المثقفين في أوساط الأمّة ، عمداً أو جهلاً أو كيداً ، وهي المخالفات السافرة لأحكام الدين ، وتعطيل كثير من قوانينه في أنظمة الدول الإسلاميّة ، وفي واقع الحكم ، مع تغييرٍ في معالم العقيدة الإسلاميّة ، بل ومحاربة بعض أهل التديّن بحجّة القضاء على مظاهر التطرّف ، وهي ذريعة لجأ إليها

الماكرون بالاسلام وأهله ، لتغطية أحقادهم على الاسلام والمسلمين، في الوقت الذي غرق في مستنقع هذه الحملة المسعورة بعض المسلمين لجهلهم وغفلتهم ، حتّى أصبحوا طرفا فاعلا في هذه الحملة ، دون الشعور بالخطر الذي داهم حياتهم .

المبحث الثاني

نظرات في ظاهرة التطرّف الدّيني

في هذا المبحث أحببت أن ألقي الضوء على جوانب من هذه الظاهرة وفق نظرة موضوعيّة عادلة ، أحاول من خلالها تلمّس أوجه الخلل سواء فينا أو في غيرنا ، وذلك من منطلق العدل في الحكم الذي أوصانا به الحقّ ﷻ بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة ٨). ولأجل ذلك رغبت في هذا المبحث أن ألقي الضوء على قضايا هامّة، وجدت من الضروري بيانها وإيضاحها ، ومن أهمّها :

١- لم يعد يخفى على كثير من النّاس أنّ بلاد المسلمين أضحت مُستهدفة من أعدائها ، الذين سعوا إلى نقل الصراع على أراضيها ، ونجحوا في إقناع العالم بإعلامهم المأجور بأنّ التطرّف والإرهاب هما قضيتان تنموان في بلاد المسلمين ، فأدخلوا أهل التديّن في قفص الاتّهام ، وتجاهلوا حقائق كثيرة تدل على بطلان زعمهم ، وكانت الغاية الحقيقية من وراء ذلك ، منع الإسلام من أن

تقوم له قائمة على أرض المسلمين ، أو أن يكون له أَيّ تأثيرٍ في حياتهم ؛ ليبقى الدّين مجرد عنوان لموضوع أُريد له أن ينسلخ من جوهره وتأثيره . وازداد الواقع تعقيدا ، وباتت ظاهرة التطرّف الديني في معناها ومغزاها ، لُغزا يُحيّر كثيرا من النّاس ، بمن فيهم أصحاب الفكر وأولي الألباب ، فهل يا ترى يُحسب الملتزم بدينه والمتّبع لسُنّة رسوله ﷺ من أهل التطرّف فيُلحق بهم ؟ أم أنّ المتطرف هو الذي خالف الدّين وأحكامه وابتدع فهما جديدا لتحقيق مآرب شاذة لا تصبّ في مصلحة الأمّة ؟

٢- إنَّ صُوَرَ التطرّف كثيرةٌ ومتعددةٌ ، وشعوب العالم اليوم أصبحت تُعاني من إرهاب الدّول أكثر مما تُعاني من إرهاب الأفراد أو الجماعات . وباتت ظاهرةُ الإرهاب في حدّ ذاتها مُعضلة عالميّة تسبحُ في فلَكِها دولٌ ومُنظماتٌ لا علاقة لها بالإسلام . وهناك من يُدِيرُ ظاهرةَ التطرّف في المشرق الإسلامي بحِنكةٍ ودهاءٍ ، بل ويغذّيها بشتّى الوسائل والسبل ويستغلّ وجودها لتحقيق مآربه في نشر الفوضى في بلاد المسلمين ، ولتدمير حصون الأمّة من داخلها، لهذا تجدهم يُحاربون التطرّف في العَلَن ، لكنّهم يدعمونه في السرّ والخفاء ، ماديّا وعسكريّا ، وبطرقٍ مُباشرةٍ وأُخرى غير مُباشرة .

كما إنّ بعضُ الأنظمة استغلّت هذه الظاهرة لاتهام غيرها بالتطرّف والإرهاب ؛ لإزاحة خصومها السياسيين والتخلص منهم خُصوصًا إذا كانوا من أبناء التيارات الإسلامية ، فهؤلاء - في زعم هذه الأنظمة - لا بُدَّ من سجنهم أو تصفيتهم تحت ذريعة حفظ الأمن وحماية الوطن والمواطن . هذا في الوقت الذي تسعى فيه بعض دول العالم لتحديد موقفها من الأحداث حسب مصالحها ، فتجدها تَكِيلُ بمكيالين وتَغُضّ طرفَها عن الذي والاها من الحكّام ، أو خدم أهدافها ومصالحها حتّى وإن فَتَكَ بشعبه أو دمّر بلاده، في الوقت الذي غابت عنهم حقيقة مفادها: **"الساكت عن الحق شيطانٌ أخرسٌ"**(١)

٣ - قام بعض الظلمة بقتل مئات الآلاف من شعوبهم وتهجير الملايين منهم تحت أنظار العالم ظلما وعدوانا ، وحتى الذين أدانوهم، كان من قبيل ذرّ الرماد في العيون ، ولرفع الحرج والملامة ، بل إنّ إدانتهم جاءت على استحياء ، وهذا يُؤكد أنّ معاييرهم بِرُمّتها تخضع لحسابات تتفق مع المصالح لا مع المبادئ،

---

(١) هذه القولة منسوبة للحسن بن علي النيسابوري (أنظر : شذرات الذهب ج٣/ص١٨٠ ، والأذكار ج١/ص٢٦٥)

حيث لم تُقِم وزنًا لكرامة الإنسان ، بل أصبح شغلهم الشاغل أن لا يصل إلى قيادة الأمّة من لم يسبّح بحمدهم أو ينقاد لأوامرهم وبالأخصّ من كان محسوبا على الدين والإسلام ، لأنّه العدوّ الأزليّ الذي أوجبوا محاربته . ولأجل الوقاية من الخطر القادم في نظرهم، بادروا بالكيد والمكر بالجمعيات الخيرية الإسلامية واتهموها بدعم الإرهاب والتطرّف ، ثم ألبسوها التّهَمَ المعدّة سلفا ، وضغطوا على الحكومات لإغلاقها من أجل تجفيف منابعِ العملِ الخيريّ الإسلامي، في الوقت الذي سمحوا للجمعيات والمنظمات الدينية الأخرى غير الإسلاميّة لأن تصول وتجول في مُختلف أرجاء العالم بلا رقيب ولا حسيب ، وأن تنفق مليارات الدولارات لتحقيق أهدافها ، من غير أن يمسّها أحد بنقد أو بتهمة ، ناهيك عن إتهامها بالتطرّف والارهاب !!

٤- لا يفوتُنا التنبيه هنا إلى أَنَّ الفخَّ الذي نُصِبَ لشعوبنا ، إنّما هو جُزءٌ من مُؤامرةٍ أرادها الأعداء لتكون حَطَبَ نارٍ تُوقَدُ لتُحرِقَنا وتُدَمّرَ ديارَنا . وفي النهاية ، وبعد فوات الأوان ، ستظهرُ الحقيقةُ المبيّتةُ التي كشف ستارَها القرآنُ الكريم من قبل ، وغفل عنها كثير من المسلمين ، قال الحقّ ﷻ : ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاّ ولا ذِمّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وأَكْثَرُهُمْ

فَاسِقُونَ﴾ (التوبة ٨) والحديث في الآية يعودُ على المشركين ، أمّا غيرُهم من أعداء الدين فقد كشف القرآنُ الكريمُ عن الحقيقةَ التي يُضمرونها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف ٢٠) .

إذن لا بدّ للحقائق أن تنجلي ، ولوعي الشعوب أن يزداد ويتسع ، ولخيوط العنكبوت أن تنكشف، ومن يُريد القضاء على الإسلام فسعيه إلى بوار، لأن سُنّةَ بقائه وظهوره قائمةٌ ومستمرةٌ بوعد الله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف ٨-٩).

٥ ـ في الوقت الذي نسعى إلى تلمّس الخطأ عند غيرنا ، لا ينبغي أن نتجاوز نقدنا الواجب لأنفسنا ، فكثير من الأخطاء سببها ممارساتنا واجتهاداتنا الخاطئة ، وتَديّننا غيرِ السوي . ونقدنا لذواتنا نابع من يقيننا بسنن الله ﴿أَوَلَمّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران ١٦٥) ولن نبلغ غايتنا في تغيير واقعنا قبل أن نُغَيّرَ ما بأنفسنا ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد ١١)

وعند البحث عن أسباب تردّي واقعنا المؤلم ، لا ينبغي أن نتوقف عند حدود كيد ومكر الأعداء فحسب ، بل لا بدّ من مراجعة شاملة لممارساتنا الدّينيّة ، وكذلك الأساليب والوسائل التي اعتمدناها في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فنُمحّصها بأسلوبٍ عِلميٍّ مُتوازن ، من أجل تحديد مواطن الخلل فيها . كما يلزمنا النظر في سلوكيات الدُّعاة إلى الله ، قبل أن نُسارع في اتهام الآخرين بالصَّد عنهم ، فدعاتنا ليسوا مَلائكةً مُنزهين ، هم بَشرٌ يُخطئون ويُصيبون ، وقد يبلغُ حجمُ الخطأ عندهم إلى صدّ النّاس عنهم ، خصوصا وأنّ نقدهم المتواصل للواقع قد أحدث فجوةً حالت دون المشاركة في إصلاحه حتّى بدأت نظرةُ بعض النّاس عنهم تأخذ طريقها نحو العداء لهم ولدين الله الذي حملوا رايته. نحن لا نملكُ ، والحالة هذه إلاّ أن نُواجه تعقيدات الواقع بآثاره ومخلّفاته وتراكماته، ولا مناص من الاصطدام بنتائجه ، وليس من عيب في أن نقرّ بأخطائنا ، لأنّ الاعتراف بالخطأ فضيلة ، لكن الذي يعيبنا هو الإصرارُ عليه أو الاستمرارُ في إنكار وجوده ، فالخطأَ لن يؤدي إلى صواب ، والضلالةَ لن تأخذنا نحو الهداية .

لقد أصبح كثير من المسلمين يتخبطون بين الدّين والتديّن ، وبين التّشدّد والتّساهل ، وبين التطرّف والاعتدال ، حتى كادت الحقيقةُ أن تَغيبَ في واقعٍ لا ينصلح إلاّ بوجودها ، ولا تستقيم حياةُ الناس إلاّ بجلائها وصفائها ، ومن هنا أدركتُ ضخامة المهمّة وصعوبة الطريق لإصلاح الخلل ، إذ لا بُدَّ من خُطىً مُستقيمة على منهج الله ، ويقينٍ راسخٍ بوعد الله، لكي نبلغ أهدافنا في مسيرتنا نحو الله ﷻ ، لذا يلزمنا تقويم حياتنا وفق تعاليمه التي دأب عليها الأنبياء والصالحون ، كما يلزمنا حصر أوجه الخلل في النّهج المتّبع لدى بعض أهل التدين فيما يتعلق باعتقاداتهم أو مُمارساتهم الدينيّة ، لأجل فصل ما اتصل بها من أوجه الحق عمّا لَحَنَ فيه أدعياءُ الحق، وعندها فمن الممكن أن نعيش الحقيقة التي غابت عن كثيرٍ من الناس ، إمّا لجهلهم بها ، أو لصعوبة استبصارهم لها ، في خِضَمّ الصراع العالمي المحموم بين الحقّ و الباطل .

٦- وفي النهاية علينا أن لا نُغالي في التشاؤم ، ولا نُبالغ في التفاؤل بل لا بُدَّ من إدراك الحقيقة وإن كانت مُرَّةً ، فالطريق طويل، والمسيرة شَاقَّةٌ ، والمهمّ أن تكون أعمالنا الصالحة أبلغ من أقوالنا ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ١٠٥) والمعني به هو العمل الصالح ، وهذا الخطاب موجّه للمؤمنين ؛ لأنّ الآية التي سبقتها تتحدّث عن الصدقات ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة ١٠٣ و ١٠٤) وهناك خطاب آخر قصد به المنافقين ، وأنّ الله مطلع على سوء أعمالهم ، قال الحقّ ﷻ : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة ٩٣ و ٩٤) . إذن لا بدّ للحقائق أن تنجلي ، ولوعي الشعوب أن يزداد ويتسع ، ولخيوط العنكبوت أن تنكشف ، ومن يُريد القضاء على الإسلام فسعيه إلى بوار ، لأن سُنّةَ بقائه وظهوره قائمةٌ ومستمرةٌ بوعد الله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف٨-٩)

المبحث الثالث

أسباب التطرّف الديني وسبل علاجه

إنّ ظاهرة التطرّف الديني أخذت نيرانُها تستعر وتخبو وفقا للعوامل المغذيّة لها ، لذلك يلزم الباحث الوقوف على حقيقة أسبابها ومسبباتها ، والعوامل المحيطة بها ، لتشخيصها أولاً ، ومن ثَمَّ وضع الحلول الناجعة لعلاجها ، خصوصا وأنّ كثيرا من الحروب التي عاشتها الأمّة الإسلاميّة في أيّامنا هذه ارتبطت أسبابها بظاهرة التطرّف والارهاب ، ناهيك عن الصراعات الداخليّة التي سبّبتها .

وفي هذا المبحث رغبت في كشف حقيقة الأسباب التي تكمن وراء ظاهرة التطرّف الديني ، مع قناعتي بأنّ الإحاطة بها قد تصعب على الباحثين ؛ لتشعباتها وتعقيداتها ، إضافة لذلك فإنّ كثيرا من أهل المعرفة والدراية يخافون التصريح بالأسباب الحقيقية للتطرّف ، خشية الاصطدام بواقعٍ تُهيمنُ عليه فئةٌ لا ترغب في جلاء الحقائق وسُطوعها ، بل إنّها تفرض سُلطانها على حرية التفكير والتعبير حتى لا يجد الباحث مُتَّسَعًا ليكشف الحقيقةً التي تُنوّر بصائر العباد .

ولا أدّعي هنا الجرأة على التصريح بالحقيقة دون غيري ، لكن لا يَسعُنا أن نبقى دوما في أسفل الوادي ، بل لابد أن نرتقي نحو المعالي ، لنُقدّمَ ما يمكن تقديمه ، ولتبقى كلمة الحقّ هي العليا ؛ لأنّ الباطل أصغر من أن يستأصل شجرة الحق ، لثباتها وشموخها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم ٢٤ و ٢٥).

أمّا فيما يتعلّق بعلاج هذه الظاهرة ، أو على الأقل التخفيف من حدّتها ، يلزمنا التأنّي في كشف أسبابها ودوافعها بمنهجيّة علميّة جادّة والوقوف على جذورها ومنابعها ؛ لأنّ معرفة الدّاء جزء من العلاج والشفاء . كما يلزمنا تجنّب أساليب العنف في مواجهتها ، ومقابلة الحجّة بالحجّة والبرهان بالبرهان والفكر بالفكر ، ولابد من اعتماد أسلوب الاستيعاب بفتح قنوات الحوار الفكري بعيدًا عن العنف وإراقة الدماء ؛ لأنّ العُنفَ سيولّد عُنفًا مُضادًا .

وفيما يلي بيان لأهمّ الأسباب التي تُغذي ظاهرة التطرّف الديني ، مع محاولة وضع الخطوات الكفيلة بعلاجها وفق ما نراه مناسبا :

١- الجهل بأحكام الدين ومقاصده :

أخذ هذا السبب حيّزا كبيرا من أصل المشكلة ، ولا عجب ولا غرابة في أن يتصدر غياب الوعي الكافي بدين الله وأحكامه ومقاصده قائمة أسباب التطرّف ، فالجهل في الغالب يؤدي إلى خلل في العمل والأداء ؛ وبسببه يَخْرُجُ كثير من النّاس من سُنَّة الاتّباع إلى رزيّة الابتداع ، ومن دائرة المعروف إلى دائرة المنكر، وهم يحسبون أنّهم يحُسنون صنعًا .

لقد أدّى الجهل بأحكام الدّين إلى إسقاطات فاسدة على أرض الواقع ، فشُوّهت صورة التديّن ، وعاد اللوم على الإسلام ، وفُتح الباب للطعن في النّصوص والأحكام مع التشكيك بأصول الدّين حتّى انتهى بنا الأمر إلى تعزيز القطيعة الموهومة في أذهان بعض النّاس، بين الدّين والحياة .

ولا شكّ في أنّ نشر الوعي الديني بين النّاس ، هو الطريق الأمثل لعلاج هذه المشكلة ، فإذا أردنا أن نقضي على بدعة فعلينا بإحياء سنّة ، وإذا أردنا أن نمحو جهلاً فعلينا بنشر العلم ، حيث لا يُرفع الجهل إلاّ بالعلم ، ولا يُرفعُ اللُّبس إلاّ بالبيان ، ولا تُكشف الحقيقة إلاّ ببصيرة أهل العلم والدراية ، ولا يصحّ العمل بأحكام

الدّين إلاّ بفقه الدليل وفهم الواقع ، وهذا يستوجب السماح للعلماء من أهل الاعتدال والنظر بأداء دورهم في تعليم النّاس وتوعيتهم .

وكذلك يلزمنا إيجادُ مؤسسات تربوية تتميّز بالاعتدال والتوازن، لتُعْنى بالعمل على نشر وترسيخ الوعي الديني الأصيل بين النّاس من أجل تهذيب سلوكياتهم واعتقاداتهم بما يُوافق مُرادَ الحق تبارك وتعالى . والأصل أن تُعطى هذه المؤسسات استقلاليةً كافية ، بعيدا عن التقلبات السياسيّة أو الضغوط الأمنيّة ، لتتمكن من أداء دورها بصورة صحيحة ، على أن يتولّى أمرها أو توجيهها جمعٌ من العلماء والمفكرين من أهل الاعتدال ، فهم أقدرُ الناس على علاج بوادر التطرّف وإرهاصاته أو الحدّ من تعاظمه وانتشاره .

٢- الحساسيّة المفرطة من حركَة التجديد :

إنّ حاجتنا إلى التجديد تفرضها طبيعة هذا الدّين ، لأنّ من سماته الدوام والبقاء إلى يوم القيامة ، مع أنّ نصوص الشريعة محدودة وحوادث الحياة تتجدد وتتنوّع عبر الزمان والمكان ولا حدّ لها ، والنّاس بطبيعتهم يبعدون عن مصدر الوحي مع تقادم الزمن ، ممّا يؤدّي إلى اندراس كثير من معالم الدّين، فالمجدّد يسعى إلى إحياء ما اندرس منها . يقول النبي ﷺ: " إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ

عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" [1]. وفي بيانه للحديث يقول الإمام الذهبي -رحمه الله - : "الذي أعتقده من الحديث أن لفظ (مَن يُجَدِّدُ) للجمع لا للمفرد" [2] ويقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : "قال طائفة من العلماء : الصحيح أنّ الحديث يشمل كل فرد من آحاد العلماء من هذه الأعصار ممن يقوم بفرض الكفاية في أداء العلم عمّن أدرك من السلف إلى من يدركه من الخلف ، كما جاء في الحديث من طرق مرسلةٍ وغير مرسلة : "يحمل هذا العلم من كل خلف عُدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين" وهذا موجود ولله الحمد والمنة إلى زماننا هذا ونحن في القرن الثامن (الهجري) " [3] وقال ابن حجر - رحمه الله - : "لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط ، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة فإنَّ اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في

---

(١) سنن أبي داود ج٤/ص١٠٩، رقم ٤٢٩١، وأخرجه الطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات؛ وأخرجه الحاكم من حديث ابن وهب وصححه. وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث . (أنظر: كشف الخفاء ج١/ص٢٨٢ ؛ والمقاصد الحسنة ج١/ص٢٠٣ ؛ وأسنى المطالب ج١/ص٨١) وذكره الألباني في "السلسلة الصحيحة" (رقم/٥٩٩).

(٢) تاريخ الإسلام ١٨٠/٢٣

(٣) البداية والنهاية ٢٥٦/٦

نوع من أنواع الخير ، ولا يلزم أنّ جميع خصال الخير كلها في شخص واحد" [1] ولفظة (مَن) يراد بها الواحد ، ويراد بها الجماعة . ويؤيد هذا ما رواه الإمام الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنّ الدّين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا ؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنّتي " وكذلك يؤيده ما ورد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال : "الحمد لله الذي امتنّ على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ؛ يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ويحيون بكتاب الله أهل العمى " [2]

ونودّ التنبيه هنا إلى أنّ التجديد يكون في أمر الأمّة بسبب التغيير أو التبديل لا في ذات الدّين ، لأنّ الدّين الذي شرعه الله قد أتمّه وأكمله، وهو محفوظ بحفظ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ المبينة له ، قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر ٩) ومع أنّ التجديد من ضروريات البقاء والاستمرار ، لكن

---

(١) فتح الباري١٣/٢٩٥.

(٢) أنظر: إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة ١/٣٣٦

هناك من يرون فيه تلاعبا بثوابت الدّين وتغييرا في دلالاته وأحكامه فوقفوا أمام هذا الاتجاه موقفا متطرفاً ، إلى درجة أنّ بعضهم بتشدّده قد أخرج كثيرا من قضايا الدّين عن سمتها العالميّة ، وعن كونها صالحة لكلّ زمان ومكان .

ونؤكّد هنا على أنّ التجديد الذي نعنيه لا يطول ثوابت الدّين وإنّما يعالج الجوانب القابلة للتغيير والتطور . فهو محاولة لتوسيع دائرة الفكر الإسلامي ، وقراءة متجددة لبعض النصوص ، والنّظر في إمكانيّة استنباط بعض الدلالات المناسبة لفقه النّوازل أو فقه واقع النّاس ، سواء بشكل مباشر أو بالاجتهاد والقياس ، وذلك لمعالجة المتغيّرات التي تفرضها تطوّرات الحياة وتشعّبات عناصرها . وحتّى النصوص الشرعية الثابتة ، فبعضها يخضع للفهم المختلف أو المتغير من حيث معانيها ودلالاتها ، أو من حيث إسقاطها على الأحداث ، فثبات النّص لا يعني ثبات مفهومه أو دلالاته ، وهذا ينجرّ على صفة القدسيّة لنصوص الوحي ، فقدسيّتها لا تعني قدسيّة فهمها أو اجتهاد المجتهد في بيانها واستنباط الأحكام منها ، لأنّ نصوص الوحي فيها كثير من المتشابه الذي يتّسع لتنوّع الأفهام والأحكام . ولا خلاف في أنّ هناك قواسم كثيرة مشتركة في

فهم النّصوص بين القديم والجديد ، وبالأخص نصوص العقيدة منها، لكن كم حجم الخلاف والتباين في فهم النصوص المتصلة بالفروع ، وبالأحكام الفقهيّة الاجتهاديّة، التي تحتمل الاجتهاد والنظر ؟ لا أحد يستطيع أن يُقدّر حجم هذه القضيّة ، بل يراها المنصفون من أهل الدراية بأنّها بحر غرق في ساحله العلماء ، فما بالك بالجهلة من النّاس !! ولأجل علاج هذه المشكلة ، يلزمنا توعية النّاس بأنّ وُجهةَ التأصيل لا تتعارض مع مسيرة التجديد ، لأنّ الأصالة امتدادٌ نحو الجذور ومُنطلقٌ نحو التجديد الذي أصبح من ضروريات البقاء والاستمرار . فإذا أردنا أن نمكّن لدين الله في الأرض، خصوصا في عالم اليوم الذي تفجّرت فيه ينابيع المعرفة بكلّ أشكالها وتفريعاتها ، لا بدّ أنْ نُلبس الفكر الإسلامي ثوبَهُ المتجدد ، لكي لا نترك فراغا لأهل الباطل لأن يصولوا ويجولوا في ساحة زهَد فيها أهل الفضل والخير ؛ بسبب حسّاسيّتهم المفرطة تجاه كلّ جديد ، حيث لا مفرّ من السعي إلى تهيئة واقع إسلامي يعيش فيه المسلمون زمانهم لا زمان غيرهم طالما التزموا بمنهج الله . إنّنا في أمسّ الحاجة إلى إرساء قواعد ثابتة نتحرّك من خلالها نحو التجديد ، لنتحاشى الانجراف والذوبان ، مع وعينا بأنّ الأرضَ ميراثٌ إيمانيٌّ

مُترابطٌ ، وأنّ منهجَ الله قادرٌ على أن يقود هذه الأرض مهما تطورت واتّسعت فيها الحياة من غير إفراطٍ ولا تفريط .

ومن هنا فإنّنا نؤكّد على ضرورة استيعاب المتغيّرات في فقه التجديد، لأنّ ذلك جزء من تحقيق سمة العالميّة لدين الله ، ومن مقتضى استمرار صلاحه لكلّ زمان ومكان .

٣ - خللٌ في فهم غاية الشهادة في سبيل الله :

ليس غريبا أن نضع هذا السبب من بين أسباب التطرّف الديني، لأنّ رغبة المسلمين في طلب الاستشهاد في سبيل الله ، باتت مدار تهمة التصقت بالتطرّف والارهاب ، بل أصبحت مصدر قلق عالمي يدور في فلكه البعيد والقريب . ومن هنا يلزمنا التفريق بين أمرين ، بين من يرغب بالشهادة لأجل نصرة الحقّ وإعلاء كلمة الله، وبين من يطلبها لتكون له سبيلا للخلاص من مأزق الحياة ؛ بسبب المعاناة والحرمان ، وبذلك تنحرف الأمور عن مقاصدها ، وتبعد الأحكام عن غاياتها .

قد تكون الحياة في سبيل الله مطلب عظيم يفوق اختيار الموت في سبيله ؛ لأنّ معيار الاختيار يقوم على مدى تحقق النّصر

والتمكين لدين الله. ومن جانب آخر فإنّ من يستقيم على منهج الله ، قد يصل إلى مرتبة الصدّيقين ، وهي أعلى مراتب الإيمان بعد النبوة، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء ٦٩) فرفَعَ الله مقام الصديقين فوق مقام الشهداء، من غير بخس لمكانة الشهداء ؛ لأنّهم في زمرة الذين أنعم الله عليهم . ولعلّ حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ يوضّح المعنى الذي ذهبنا إليه ، فقد حدّث : " أَنَّ رَجُلَيْنِ من بلى قَدِمَا على رسول اللهِ ﷺ وكان إسلامُهُمَا جميعا فَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا من الآخَرِ فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ مِنهُمَا فَاستُشهِدَ ثُمَّ مَكَثَ الآخَرُ بَعْدَهُ سَنَةً ثُمَّ تُوُفِّيَ قال طَلْحَةُ فَرَأَيتُ في الْمَنَامِ بَينَا أنا عِندَ بَابِ الْجَنَّةِ إذا أنا بِهِمَا فَخَرَجَ خَارِجٌ من الْجَنَّة فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوُفِّيَ الآخر مِنْهُمَا ثُمَّ خَرَجَ فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتُشْهِدَ ثُمَّ رَجَعَ إلي فقال ارْجِعْ فَإِنَّكَ لم يَأْنِ لك بَعْدُ فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يحدث بِهِ الناس فَعَجِبُوا لِذَلِكَ فَبَلَغَ ذلك رَسُولَ اللهِ ﷺ وَحَدَّثُوهُ الحديث فقال من أَيِّ ذلك تَعْجَبُونَ فَقَالُوا يا رَسُولَ اللهِ هذا كان أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجتِهَادًا ثُمَّ استُشهِدَ وَدَخَلَ هذا الآخرُ الْجَنَّةَ قَبلَهُ فقال رسول الله ﷺ أَلَيْسَ قد مَكَثَ هذا بَعْدَهُ سَنَةً قالوا بَلَى قال وَأَدرَكَ

رَمَضَانَ فَصَامَ وَصَلّى كَذَا وَكَذَا من سَجْدَةٍ في السَّنَة قالوا بَلَى قال رسول اللهِ ﷺ فما بَينَهُمَا أَبعَدُ مِمَّا بين السَّمَاءِ وَالأَرضِ" (١)

إذن لا بدّ من نشر الوعي بأحكام الجهاد في أوساط النّاس ، وبالأخصّ الشباب منهم ، مع التأكيد على أنّ القتال والاستشهاد في سبيل الله هما وسيلة لتمكين دين الله ، ولا يُطلبان غاية لذاتهما ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال ٣٩) وكذلك فإنّ الجهاد والقتال ليس هو الإسلام وحده ، فهو دين رحمة قبل أن يكون دين دولة ، وكانت دعوة اللسان فيه قبل السنان ، وليس المطلوب فقط القتال والموت في سبيل الله ، بل الأهمّ من ذلك العيش لأجل الله ما أمكن إلى ذلك سبيلا . أمّا إذا لزم الأمر أن يقدّم المؤمن نفسه فداءً لدين الله ، فهذا مطلب منصوص عليه في أصل البيعة مع الله ، قال الحقّ ﷻ : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

(١) سنن ابن ماجه ج٢/ص١٢٩٣ ؛ وصحيح ابن حبان ج٧/ص٢٤٨ ؛ وسنن البيهقي الكبرى ج٣/ص٣٧١ ؛ ومصباح الزجاجة ج٤/ص١٥٨ . وحكم عليه الشيخ الألباني بالصحّة .

التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاستَبشِرُوا بِبَيعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة ١١١) لكن ذلك لا يكون بإطلاقه كيفما يجتهد النّاس فيه ، بل له خطوات اعداديّة ، ومحدّدات وشروط شرعيّة ومصالح اعتباريّة . ثمّ لا يمكن اختزال تأريخ الإسلام ومجده بالفتوحات والمغازي فحسب ، بل هو دين عقيدة وإيمان قبل أن يكون دولة غالبة ، أو امبراطوريّة قاهرة . ودعوة الإسلام عالميّة قبل أن تكون قوميّة أو محليّة أو قبليّة .

٤ - ضعف القيادات الدينيّة و التربويّة :

والتي عجزت عن تأهيل الشباب وتلبية حاجيّاتهم ، ممّا أدّى بهم إلى البحث عن بدائل أخرى حتّى وإن كانت من مشارب غير سليمة ، من أجل سَدِّ هذا الاحتياج المُلحّ عندهم .

إنّ غياب القيادات الواعية عن ميادين التأثير بسبب العزوف أو الإقصاء ، أوجد فراغًا كبيرًا أخذ نطاقُه يتّسعُ يومًا بعد يوم ، حتى شغل الساحةَ أناسٌ ليسوا من أهل الكفاءة ولا يملكون القدرة على تغيير الواقع أو النهوض به، بل زادوا من حجم المأساة فأصبح النّاس في حيرةٍ من أمرهم، يميلون إلى اليأس قبل الأمل ، وإلى

الشك قبل اليقين ، وإلى العجلة قبل التأنّي . وبسبب ضعف القيادات الدينيّة ، اندفع الشباب نحو التديّن بطريقتهم الخاصّة ، من غير وعي كافٍ ، أو إرشاد سليم ، بعد أن تزعزعت ثقتهم بالعلماء وقادة الفكر ، بل قد يرون فيهم سببا للتعويق وتقاعسا وتخاذلا عن قول الحق والجهر به ، ممّا أحدث لديهم ردّة فعلٍ قوية ، فثاروا على الواقع المتردّي من حولهم ، الذي يرونه ولا يطيقونه ، مع رغبتهم الشديدة في تبليغ دعوة الله وتمكين شريعته ، فاندفعوا نحو غايتهم بشدّة كبيرة ، بعد أن فقدوا القدوة الحسنة والأسوة الصالحة ، ممّا أدّى إلى بناء حاجزٍ كبير بينهم وبين العلماء .

يقول الشيخ يوسف القرضاوي : "يجب أن نكون شُجعانًا ونعترف بأن كثيرًا من تصرفاتنا هي التي دفعت بهذا الشباب دفعًا إلى ما نسميه بالتطرّف ، فنحن ندعو إلى الإسلام ولا نعمل به ، ونقرأ القرآن ولا نطبّق أحكامه ، ونزعم حبّ الرسول ﷺ ولا نتّبع سُنته ، ونسجّل في دساتيرنا أنّ دين الدولة هو الإسلام ولكنّنا لا نعطيه حقّه في الحكم والتشريع والتوجيه . لقد ضاق الشباب ذرعًا بنفاقنا وتناقضنا ، فمضى وحده في الطريق إلى الإسلام دون عونٍ

منّا فقد وجد الآباء له مُثبطين والعلماء عنه مشغولين ، والحكام له مُناوئين ، والموجهين به ساخرين" [1]

لقد عاشت الأمّة الإسلاميّة منذ زمن ليس بالبعيد ، حالة من الفوضى في ميدان القيادة وصناعة القرار ، وهذا الواقع له أسبابه ، ويبدو أنّ هذا الأمر انجرّت آثاره على جميع المستويات ، حتّى شمل الجانب الديني والتربوي ، لذلك فإنّ التفكير في إصلاح الحالة ، يحتاج إلى معالجة الواقع بكلّ تعقيداته ، لأنّ كثيراً من أنظمة الحكم لا تسمح إلى حدّ كبير بتنامي قيادات واعية في أوساط الجماهير ، بل تحاول جاهدة تجفيف منابع إعدادها وتكوينها . وما دامت القيادات الدينيّة والتربويّة رهينة السياسات القائمة ، أو أسيرة أنظمة دكتاتوريّة ، فلا يمكن أن ترقى إلى مستوى متقدّم يصلح لقيادة النّاس في ظروف صعبة ومعقدة . ومن هنا يصعب الوصول إلى حلول جذريّة لهذه المعضلة ، في الوقت الذي فشلت فيه كثير من المحاولات ؛ بسبب وصولها في النّهاية إلى طريق مغلق ، بالرغم من سعي بعض المؤسسات إلى تحقيق هذا المطلب ، لكن تبقى الحلول الترقيعيّة أضعف من أن تسعف الواقع المتردي للأمّة .

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف (مقدمة الكتاب)

إذن لا مفر من توحيد الجهود لاعداد قيادات دينيّة وتربويّة ، تتميّز بالكفاءة العلميّة ، والقدرة على معايشة واقع النّاس ، وبالأخصّ جيل الشباب منهم ، وتحسس معاناتهم ، والنظر في حاجياتهم ، والانبساط إليهم من أجل تحويطهم ورعايتهم ، كي يُصانوا من الانحراف والتطرّف . وهذا الأمرُ مناطٌ أولاً بالعلماء ، ثم بالمسئولين عن توجيه الشباب وعن برامج إعدادهم . إنّ شبابنا هم أملنا بعد الله في مُستقبلٍ واعدٍ لأمّتنا ، والحكمة تقتضي أن نستثمر طاقاتهم ونُوَجّه جُهودهم لتكون فاعلةً في بناء مجتمعنا الإسلامي ؛ فهم ليسوا أعداءً لنا وإنْ أخطأ بعضُهم طريق الوصول ، ولهذا فإنّه لا ينبغي وضعُهم في خانة العداء . فكثيرٌ من سلوكياتهم انحرفت بسبب الفقر والظلم وفقدان الثقة بالذات ، ناهيك عن الشعور بالتهميش ، وهذا أمرٌ يُمكنُ علاجه بإذن الله ﷻ .

٥ ـ ظلمٌ في توزيع الثروات وخللٌ في تكافؤ الفرص :

الأمر الذي أدّى إلى تحطيم آمال الناس - وبالأخصّ شريحة الشباب منهم - وتعذّر وصولهم لغاياتهم المشروعة عبر الطرق السليمة ، حتّى أضحت ظاهرة الفقر مظهرا اجتماعيا عمّ شريحة كبيرة من المجتمع ، ودفعت الحاجة الشديدة إلى ردّة فعل عنيفة

بسبب الشعور بالظلم والفساد ، ونحن نعلم بأنّ ظاهرة الفقر من الآفات التي تفتك بالنّاس ، وقد تعوّذ النبي ﷺ منها بقوله : "اللهم إنّي أَعُوذُ بكَ من الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ" [1] فقرن بين الفقر والكفر ، لأنّ الأوّل قد يَجُرُّ إلى الثاني ويُؤدي مُؤدّاه ، وفي ذلك دلالةٌ واضحة على خطورة حبس أرزاق النّاس ، وتقليل فرص عيشهم . ومع تزايد حالة التردّي الاجتماعي والاقتصادي ضاق النّاس ذرعًا بالحياة ، وازداد تذّمرهم من الواقع يوما بعد يوم ، خصوصا وأنّ التفاوت الطبقي الاجتماعي اتسعت دائرته ، كما اتسعت الهوة في توزيع الثروات ، فأصبح كثير منهم يعيشون تحت خط الفقر ، إضافة إلى اصطدامهم بالواقع السياسي القاهر ، فلم يتمكنوا من الوصول لغاياتهم المشروعة عبر السُّبل والمسالك السليمة لشحّتها ، ناهيك عن الوجهة العالمية الداعمة للأنظمة المتسلطة على شعوبها والخانقة لأنفاسها. إضافة لذلك فبسبب التهميش والتضييق والتمييز؛ كابد كثير من النّاس آلام الغربةَ داخل أوطانهم وبلدانهم ، فعاشوا تحت مظلةٍ خانقةٍ من الظلم والإقصاء ، وتحت تشويهٍ متعمَّدٍ نال من فِكرهم وسلوكهم ، وهذه الغربة لم تكن بالنسبة لهم غربة وطن ، بل

---

(١) المستدرك ج١/ص٣٨٣ ؛ وسنن أبي داود ج٤/ص٣٢٤

هي غربة مواطن ، وأصعب ما يعتريهم أن يكونوا غرباء داخل أوطانهم ، بعد أن ضُيّقَت عليهم دوائرُ الحياة ، وتآكَلَ الأملُ في نفوسهم ، وغلب على ظنّهم أنّ القادم من الأيّام لا يبشّر بخير ، فتردَّت حياتُهم وانكسرت نفوسُهم . كلّ هذه العوامل أوجدت حالةً من الإحباط واليأس فاندفع بعض الشباب إلى سلوك طريق التطرّف والإرهاب ؛ لأنّه في نظرهم الأقرب والأسرع للانتقام ممّن يرونه مسؤولاً عن ظلمهم .

نحن بحاجة إلى إرساء مبدأ التكافل الاجتماعي وتكافؤ الفرص لأنّ من شأنه أن يُقَلِّصَ الفجوة المتزايدة بين الفقراء والأغنياء ، ويُنقِصَ من حدة الطبقية الاجتماعية في ظلّ ما تعيشه الشعوب الإسلامية اليوم من زيادةٍ مُستمرةٍ في فقر الفقراء وغنى الأغنياء ، وفي ظلم الظالمين وذلّ المظلومين ، لأنّ التفاوت الطبقي المتعاظم ، من شأنه أن يزيد من شعور المستضعفين بالتهميش والإحباط ، ويفتح عليهم طريق التطرّف كردّة فعل على الواقع الذي لم تستفد منه سوى فئةٌ محدودةٌ من النّاس ، وقد يكون هؤلاء المستضعفين هم الفريسة التي يصطاد منها قادةُ الفكر المتطرف ضحاياهم ، فهي فئةٌ محبطة يائسة من الحياة ، هشةُ التكوين وسهلةُ الاستمالة بعد أن

كابدت مرارة الحاجة وقساوة الحرمان . ولا سبيل في تقديرنا إلى مواجهة هذه المخاطر إلاّ من خلال اجتثاث الفساد ، وإعادة الحقوق إلى مستحقيها ، ومن ثَمَّ العمل على إرساء العدل في توزيع الفرص والثروات كقيمةٍ مُثلى لا تنازل ولا تراجع عنها . وحتّى إذا لزم الأمر فإنّ على أهل الدراية والخبرة من المنصفين دراسة هذه المشكلة ، بأبعادها وآثارها ، وتقديم النّصح لولاة الأمور عن كيفيّة علاجها، والتخفيف من وطأتها ، لأنّ تعاظمها ستعود آثاره السلبيّة على الجميع . ويبقى منطق القوة في علاجها ، هو الأسوأ ؛ لأنّ صَبّ الوقود على النّار لا يزيدها إلاّ شدّة ولهيبا .

٦ ـ استباحة حرمات الأمّة ومقدّساتها :

إنّ الاستباحة الممنهجة التي تمارسها بعض الدول ، أدّت إلى إيذاءٍ عميقٍ لمشاعر المسلمين ، وطعنة أليمة في صميم معتقداتهم ، وهذا أمرٌ لا يقبله إلاّ من فسَد دينه وساءت أخلاقُه . والغرابةُ كُلُّ الغرابةِ في إصرار بعض الأنظمة على مساندة التطرّف المعادي للإسلام وتقويته ثم تجدها بعد ذلك تَتَصَدّرُ لمحاربة الإرهاب والتطرّف !! ولا أريد أن أجزم بأنّ المقصود هو الإسلام ، لكن قد لا أجد تبريرا لما نعيشه من أحداث لأن أقول غير ذلك . كما

ساعدت بعض الأنظمة الحاكمة على إطلاق العنان لوسائل الاعلام المعادية للإسلام والساخرة منه ، لأن تنفث سمومها في جسد الأمّة ، وتعبث في عقول شبابها حتّى أفرزت جيلا يستخفّ بأحكام الدين، ولا يحترم قيمه وثوابته.

وبسبب حريّة الاعلام الممنهج ، تنامت أعدادُه ، وتنوعت وسائله بشكل كبير ومخيف ، خصوصا تلك التي تسعى إلى نشر الفساد والضلال ، وهدم صرح الأخلاق ، وكأنّ الهدف الأسمى الذي ينشده هذا الإعلام هو تغييبُ شرع الله عن حياة المسلمين ، وتشويهُ صورة المتدينين ، وفتحُ المجال للمعادين للإسلام ، لأن ينشروا فكرهم الهدّام من غير حرجٍ أو حياء. وحريٌّ بالذّكر فإنّ هذه الموجات الإعلاميّة العاتية قد أوجدت رُدُودَ فِعلٍ عَنِيفَةٍ عند بعض المتديّنين بسبب غيرتهم الشديدة على دين الله تعالى ، الأمر الذي ساعد في إيقاد جذوة التطرّف الديني لدى بعض النّاس ، وبالأخصّ الشباب المتديّن منهم ، فكانت بعض ردود أفعالهم قد أخذت جانبا متطرفا كردّة فعل متوقعة في مثل هذه الأجواء . وهناك من أبناء المسلمين من يرى في هذا الاعتداء ذريعةً للثأر لدينه ولمقدسات أمّته ، متى سنحت له الفرصة أو استطاع إلى ذلك سبيلا ، فغالى

بعضهم في ردّة فعلهم ، وركبوا موجة التطرّف ، ولا أحد يستطيع أن يوقف هذا السيل الجارف حتّى يعي العابثون بدين الله حجم المشكلة . علينا أن ندرك بأنّ من أشدّ أنواع الظلم ، المساس بقدسيّة الدين وانتهاك حرماته ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام ٢١) ويتعاظم الشعور بالظلم في نفوس أصحاب الحقّ كلّما زاد أهل الباطل في عدوانهم على دين الله . وهناك من يعذر المظلوم إن تجاوز الحدود المألوفة لكون الظلم والحيف وقع عليه ، يقول الله ﷻ : ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء ١٤٨) وهذا الاستثناء من باب الانتصار للمظلوم لدفع العدوان عنه ، وليضرب الحقّ ﷻ على يد الظالم فيخشى عاقبة فعله ويتردد عن تكرار ظلمه . ولأجل إيجاد مخرج من هذه الأزمة الخانقة ، يلزمنا التوقف عن دعم التيارات المعادية للإسلام ، ومعالجة الإعلام المعادي له ، للحدّ من تصاعد موجة الاستفزاز لمشاعر المسلمين ، فنحن شُعوبٌ إسلاميةٌ أولاً وأخيرا ، وأغلى ما نملك هو ديننُا الحنيف ، فلا مجال للمساومة على هُويتنا بأيّ حال.

٧ ـ التفرد السياسي في الحكم :

لقد عشنا زمنا طويلا بين الزعيم الأوحد ، والقائد إلى الأبد ، وفريد العصر ، وحجّة الدهر ، وما شابه ذلك من الأسماء الجوفاء التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ومع أنّ عهد فرعون القائم على نظريّة (أنا ربّكم الأعلى) قد ولـّى وانتهى ، لكن لا يزال بعض الظلمة من يحلمون بذلك ، بل ترجموا بعض أحلامهم إلى حيف وظلم وتنكيل للشعوب المقهورة ، فسادت سياسات القمع وتكميم الأفواه ، وضاقت الأرض على النّاس بما رحبت ، فتطرّف كثير منهم كردّة فعل على الواقع السياسي ، خصوصا وأنّ شعورهم بالظلم والقهر أخذ طريقه بالازدياد يوما بعد يوم ، ومن هنا نشأ صراع مرير بين أنظمة الحكم وبعض الجماعات المتطرّفة ، بل وصل الأمر إلى الإرهاب الممنهج ، وإلى مواجهات مدمّرة دفع ثمنها الأبرياء .

وعلى صعيد آخر ، شاهدنا قبل سنوات كيف خرجت الشعوب العربيّة المظلومة إلى الشوارع والساحات ، بطريقة عفويّة لا قيادة لها سوى شعورها بظلم حكّامها ، وطغيان ساستها ، والعبث بمقدّرات أوطانها، فكان الشعار الذي ظلّل الجميع (نريد إسقاط

النّظام) ومع أنّ ثورة الشعوب المظلومة باءت بالفشل ، في تصور كثير من أهل الدراية ، لكنّ جذوة الحقّ في نصرة المظلوم لا تنطفىء ، فإن كانت المؤامرة التي نسج خيوطها أعداء الأمّة في ليل قد عسعس ظلامه أو في نهار قد لبّدت الغيوم سماءه ، قد أصابت غايتها ، فإنّ ذلك لا يعني النّهاية ، لأنّ طالب الحقّ لا يموت حتّى وإن فقد حياته ، فحقّه سيكون إرثا تتناقله الأجيال . فإن لم يتحقق الحلم بسبب ضعف الشعوب أو استضعافها ، فإنّ النتيجة ستتحقق بناموس الله ووعده ، قال الحقّ ﷻ ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص٦) وقال سبحانه : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف ١٣٧) وهذه سنّة إلهيّة لا تتبدل ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا﴾ (الأحزاب ٦) ليعلم الماكرون أنّ الله ﷻ فوق الجميع ، وسينقلب يوما السحر على الساحر، وفي النّهاية ﴿وَلايَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا﴾ (فاطر٤٣)

إنّ ظاهرة التسلّط والتفرّد في الحكم ، خصوصا الذين أخذوه من غير وجهة حقّ ، سواء بالقوّة أو بالثورات والانقلابات ، باتت تشكّل مشكلة كبيرة في حياة النّاس ، بل يعدّها بعض المصلحين الجذور الأولى لمنبت التطرّف والارهاب في واقعنا . وهذا الأمر يتطلّب منّا خطوات فاعلة لمعالجة المشكلة التي اكتوينا بنيرانها .

لا بدّ من خطوات جادّة لإصلاح مؤسسات الحكم ، والعمل على إرساء مبدأ العدل في النظام السياسي ، لتنتهي معاناة الشعوب الإسلاميّة من ويلات احتكار السلطة ، والأبديّة في زمن الحاكم ، الذي حجب الابداع والتغيير ، وأوجد عوقا سياسيا أخذ بالازدياد مع مرور الزمن ، في الوقت الذي تسعى فيه دول العالم إلى توسيع دائرة المشاركة في عالم السياسة والحكم ، بل وسَعَت جاهدة لترسيخ الديمقراطيّة وتعميمها لتشمل المبدعين من أبنائها. وحتّى لا يتهمنا أحدٌ بأنّنا نميل إلى سياسة الغرب في إدارة الحكم مع إقرارنا بقربها إلى العدل أكثر ممّا تعانيه أمّتنا من ظلم وتسلّط ، فإنّنا قي الوقت الذي نرفض فيه الدكتاتوريّات الظالمة، لا نقبل الديمقراطيّات

المعتلّة، لتبقى أمّتنا الإسلاميّة متميّزة بمنهجها الذي ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت٤٢) وبه وحده يتحقق العدل والقسط ، وتُحفظ الحقوق ، وتتحقق الكرامة. ولا يمكن أن تعيش الأمّة حالة الاستقلاليّة والتحرّر إلاّ في ظلاله . ثمّ إنّ الخيريّة في الأمّة لا تزول وإن ضعفت ، ولا تنتهي وإن ندرت ، لأنّ أملنا معقود - بعد الله - بوعد رسوله الكريم محمّد ﷺ الذي قال فيه : " لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ من خَذَلَهُمْ حتى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ" [1] إذن لا بدّ من علاج المشكلة بإقرار مبدأ العدل في الحكم على أساس الكفاءة وتحقيق المصالح .

ونود التنبيه هنا إلى أنّ نظريّة (أنّ الحكم للشعب) قد لا يتحقق العدل في تبنّيها على الدوام ، فالشعوب التي يغلب عليها الجهل أو الفساد في الغالب لا تفرز قادة صالحين ، قال تعالى ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام ١١٦) فليس شرطا في أن يكون الخير في رأي الأكثريّة ، خصوصا في ظلّ غياب القواعد الصالحة

(١) صحيح مسلم ج٣/ص١٥٢٣

لاختيار الحاكم على أساس العدل والكفاءة . لكنّ رأي الأكثريّة يبقى الأقرب إلى العدل في واقع تحكمه الدكتاتوريّة الخانقة لأنفاس شعوبها ، لذلك يلزمنا السعى لتفويض إختيار أولياء الأمور إلى جماعة صالحة ذات دراية كافية بواقع الأمّة ، لأجل أن تتولّى ترشيح واختيار الأكفأ لقيادتها .

٨ - الهيمنة الخارجية على سياسات دولنا :

عانت الأمّة الإسلاميّة من تبعيّة سياسيّة خارجيّة أثقلت كاهلها، وأفقدتها الاحساس بكرامة الذات ، وقلّما نجد في الأمّة حاكما يملك قرار شعبه ، أو يستقلّ بحكمه ، من غير إملاءات خارجيّة لا ترعى حقوق أمّتنا بقدر ما ترعى مصالحها وأهدافها . وفي خضمّ ذلك شعرت شعوبنا الإسلاميّة بأنّ معظم دول العالم تملك قرارَها بيدها ، وتُحدد مصيرها بنفسها ، أمّا نحن فقرارنا بيد غيرنا ، وكثير من ساستنا لايحرّكون ساكنا في الأمّة ، بل قد لا يملكون شيئًا سوى التسلط على أبناء شعوبهم. لقد أدخل هذا الأمر كثيرا من الحكّام في دائرة الحرج مع شعوبهم فانعكس ذلك في سلوكيّات الأفراد والجماعات وأفرز تطرفا غير محمود أخذ في الاتساع يوما بعد يوم . كما ساهمت كثير من السياسات القائمة في تنفيذ برامج

غربية، راعت مصالحها وأضرّت بمصالح شعبها ، بل ضايقت النّاس في عيشهم وحريّاتهم ، ممّا ساعد هذا الأمر على إضرام نار التطرّف والإرهاب لدى الشعوب المقهورة ، ووقع الصدام بين الحكّام وشعوبهم ، أو مع من انتفض وخرج عن سلطانهم ، فلجأ أصحاب القرار إلى معالجة الأزمات بالعنف والسجن وتكميم الأفواه، فبدل أن نطفئ نار الفتن زدنا في صبّ الوقود عليها.

إنّ بلداننا بحاجة إلى تعزيز مبدأ (استقلاليّة الذات) لما له من أثر إيجابي على السلم والاستقرار العالمي ، بل إنّ استقلال أيّ دولة بقرارها شرط في الاعتراف بشرعيتها ، حيث يذهب بعض رجال القانون إلى تعريف (الدولة) بأنّها : "وحدة قانونية دائمة تتضمن وجود هيئة اجتماعية لها حق ممارسة سلطة قانونية معينة في مواجهة أمّة مستقرة على إقليم محدد ، وتباشر الدولة حقوق السيادة بإرادتها المنفردة" (١)

ويرى آخرون بأنّها : "مجموعة كبيرة من الناس تقطن على وجه الدوام إقليما معينا وتتمتع بالشخصية المعنوية والنظام

---

(١) النظم السياسية ، محمد كامل ليله ، ص٢٠

والاستقلال" [1] فسيادة الدول لا تتحقق إلاّ بأن تملك أيّ دولة قرارها السياسي وفق إرادتها الحرّة ، ولا يحقّ لأي جهة - داخليّة أو خارجيّة - أن تفرض إرادتها على الدولة في منطقة نفوذها.

وعلى المستوى الداخلي فإنّ استقلال الدولة يعني : "امتلاكها السلطة المطلقة على جميع الأفراد والجماعات والمناطق الداخلة تحت حكمها وتستمد شرعيتها من التعاقد بين الحكام والمحكومين والبيعة الشرعية ، وهذه الشرعية هي التي تخوّل الدولة تشريع القوانين والنظم وإلزام الناس بها حفظاً لمصالِحهم وصوناً لهيبة الدولة ، كما تخوّلها تدبير شؤون البلاد سياسياً واقتصادياً وثقافياً وتعليمياً وقضائياً... تبعاً لخصوصيةِ البلاد وما تقتضيه المصلحة ". أمّا على المستوى الخارجي فيعني مبدأ استقلال الدولة وسيادتها : "استقلالها فعلياً وقانونياً في ممارسة قرارها الدولي بعيداً عن سيطرة أي دولة أخرى أو توجيهها ، واعتراف الدول الأخرى بها وحقها في التمثيل الدبلوماسي وعضوية المنظمات الدولية ، وحرّيتها في اتخاذ القرارات الدولية على الصعيد الخارجي وعلى صعيد العلاقات الدولية من دون قيد أو تردّد أو إكراه أو ضغط إلاّ

---

(١) القانون الدستوري ، عثمان خليل ، ص ١٠

في الالتزامات التي يقرها القانون الدولي والمعاهدات الدولية الثنائية والإقليمية في نطاق الندّية والاحترام المتبادل" [١] وضمن هذا المفهوم فإنّ استقلال أيّ دولة يقتضي تحررها من جميع أشكال الضغط والتحكم الداخلي أو الخارجي . فلا قيمة لبلد لا استقلال له ولا قيمة لاستقلال لا ينبني على الإرادة الحقيقية لأبناء البلد. [٢]

ولا شكّ في أنّ سعي الشعوب للمطالبة بحريّتها في استقلال قرارها وتحقيق ذاتها ، هو مطلب يتوافق مع الحقّ والعدل الذي كفلته الشرائع السماويّة ، وكذلك الدساتير العالميّة ، وإنّ سلب هذا الحقّ سينعكس سلبيّا على واقع الأمّة ، وعلى ردود فعل أبنائها ، وستتهيأ الأجواء لنمو وتعاظم الحركات المعاندة للتبعيّة السياسية المقيتة ، ومع مرور الزمن لا أحد يستطيع أن يوقف سيل التطرّف والارهاب الذي قد تلجأ إليه بعض الجماعات ، سعيا منها للخروج من حالة تلبس أنظمتها السياسيّة بالتبعيّة لغيرها ، ولو كان السبيل خاطئا أو مدمّرا .

---

(١) استقلال الدولة : الطيب الوزاني (مقالة في الانترنيت)

(٢) أنظر : المرجع السابق.

٩ ـ مُناصبة العداء للجماعات الإسلاميّة المعتدلة :

وفي ذلك توسيع للهوّة بين هذه الجماعات وبين السلطات الحاكمة ممّا تسبب في زيادة مساحة الجفاء والعداء بينها ، فقد اتّبعت كثير من الأنظمة سياسة التهميش للجماعات الإسلاميّة ، وحتّى إن وجدت بعض هذه الأنظمة عللا في استبعادها من ميادين العمل السياسي والمشاركة في القرارات بحجّة أنّها جماعات إرهابيّة أو متطرّفة ، فما بال الجماعات الإسلاميّة المعتدلة التي أثبتت حرصها على مصالح أمّتها . ومن جانب آخر ، فإنّ التغييب المتعمّد للجماعات المعتدلة عن مسرح الأحداث تسبب في دخول بعض الجماعات المتطرّفة إلى ميادين التأثير ، وهذا الأمر كانت عَوَاقِبُهُ غير محمودة ، وقد رأينا ذلك في كثير من مناطق العالم الإسلامي ، وبالذات في دول الشرق الأوسط. إذن يلزمنا التوقف عن مُناصبة العداء للجماعات الإسلاميّة المعتدلة، لأنّ الرقم الذي تشكله ليس بالهيّن ، ولا ينبغي تجاوزه ، وبدلا من تصنيفها في خانة الإرهاب ، كان بالإمكان إيجاد جسور تفاهم مع قادتها ومنحهم فرصة المشاركة في القرار السياسي وعملية الإصلاح والتغيير .

المبحث الرابع

مظاهر التطرّف الديني في الوسط الدعوي

لقد برزت مظاهر التطرّف الديني بمسميّاتٍ دينيةٍ أو بشعاراتٍ برّاقة أُلصقت بالإسلام والمسلمين ، وادّعى أصحابها الذود عن الإسلام وأهله ، فاغترّ بها خلق كثير ، بين جاهلٍ أو مُتعاطِف ، ومن تأمّل هذه المظاهر لا يجد بدًّا من أن يَسِمُها بالتطرّف الدّيني ، الذي عانت الأمّة الإسلاميّة من آثاره في القديم والحديث ، فكانت نتائجه عليها وليس لها. وممّا يحزننا هو ما تشهده الساحةُ الدعويةُ من تصدي بعض الغُلاة المتشددين للدعوة ، فشاركوا بقصدٍ أو من غير قصدٍ في تشويه الصورة السمحة للإسلام ، وللوسطيّة التي طُبع عليها ، وساعدوا بذلك على إلصاق التُّهم به .

ويبقى من الصعب على الباحث الإحاطة بمظاهر التطرّف الديني لتشعبها وتعقيدها ، لكن لا مناص من تناولها لإتمام الفائدة ولو على سبيل المثال لا الشمول والاستغراق . ومن أهمّ تلك المظاهر :

١- تغليب النزعة الإنتمائيّة :

لا يجب أن يكون الولاء المطلق إلاّ لله تعالى ، ولا يصحّ أن يكون الانتماء الحقيقي إلاّ لدينه الحنيف ، ولمن يُمثله بصدق من أهل الإيمان ، فلا يسعنا أن نصرف ولاءنا وانتماءنا لغير ذلك ، سواء للجماعات أو للأفراد ، أو للطوائف والأحزاب ؛ لأنّ النزعة الانتمائية في الغالب تجعل أصحابها في موطن الشطط في الحكم على غيرهم ، أو على من يخالفهم في الرأي والاجتهاد ، بل لا يرون النجاة إلاّ لجماعتهم ، ولا يفرّقون بين الاختلاف في الحقّ أو على الحقّ ، بل يُسيئون العمل بحديث النبي ﷺ عندما يحكمون على غيرهم بالشقاء وعلى أنفسهم بالنجاة ، قال النبي ﷺ: "افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ على إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ في النَّارِ ، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ في النَّارِ وَوَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي على ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ في النَّارِ، قِيلَ يا رَسُولَ اللهِ من هُمْ قال الْجَمَاعَةُ " (١)

---

(١) سنن ابن ماجه ج٢/ص ١٣٢٢ (واللفظ له) ؛ وسنن أبي داود ج٤/ص١٩٨

وقد يُحاول من يحملُ هذه النزعة ، الحكم على الجماعات الأخرى بالضلال أو بالكفر أحيانا ، وإنْ كانت في الواقع أقرب إلى الحق من جماعته ، وقد تكون جماعتُه ليست على حقٍّ ، وإنّما وسمها بالحق لكونه عُنصرًا منها ، وهذا الأمر يُحدث خللاً كبيرًا في أداء الأمّة الإسلاميّة ، ويُبعد الجماعات الإسلامية المتناحرة عن أمْر الله ﷻ : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ...﴾ (آل عمران ١٠٣) كما يُبعدها عن نهي النبي ﷺ : "ولا تَحَسَّسُوا ولا تَجَسَّسُوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا" (١) .

ومع ذلك كلّه فإنّنا نجد أنّ النزعة الانتمائية لدى المتأثرين ببعض المدارس الفكرية والفقهية قد تعاظمت وازدادت حدّتُها مع مرور الزمن ، حتى اضمحلت الغاية وضَعُفَ الهدفُ ، وانتقلنا من أمّة ولاءٍ إلى أمّة عداء، ومن أتباعٍ للحق إلى أتباع للخلق ؛ فقد يبلغ ببعض المريدين تبجيل مشايخهم إلى حدّ التقديس ، ومن ثَمَّ الشعور بعصمتهم من الخطأ ، فلا مجال للنقاش فيما يقوله بعض المشايخ عند أتباعهم ، وبذلك تضيع هيبة الحق ويغيب الحوار الهادئ

(١) صحيح البخاري ج٥/ص٢٢٥٣ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٩٨٥.

الموصل إلى الصواب في الرأي والاجتهاد ، فلا بد من تجاوز حالة الشعور بقدسية الأفراد ، تحقيقًا لشمولية المصالح .

إنّ تقليد أهل الحق مطلوبٌ ، فهم أسوتنا في الحياة بعد رسول الله ﷺ، لكن الذي نخشاه هو التقليد الأعمى الذي يُضعف الحق . لقد حاول بعض المقلدين أن يتصدروا واجهة الدعوة الإسلامية وأرادوا أنْ يحملوا الأمّة على ما يرون ، متأثرين بمدارس فكريةٍ ومذهبيةٍ معينةٍ ، بل ومقدّسين لرموز هذه المدارس والمذاهب ، فنشأ الصراع والخلاف في أوساط المسلمين في الوقت الذي غابت فيه عن الأذهان حقيقةٌ مفادُها : (أنّ أسباب خلاف العلماء الذين قلَّدوهم لا تستلزم أن تكون نفسها أسباب اختلافنا في زماننا هذا) فلقد كان عامل التقوى ومخافة الله فاعلاً كبيرًا ومُؤثرًا في حياة السَّلف وفي تعاملاتهم، كما أنّ حرصهم على وحدة الصف وتماسك أجزاء الأمّة كان شديدًا ، مما ألبسهم ثوب الموضوعية والتجرد وصدق اللهجة حتى مع مخالفيهم. أمّا عند الخلف، فقد برزت نزعة التعصب وتوسعت دائرتها حتى تعدّى الأمر إلى النيل من علماء وسلف الأمّة الذين أسدوا ذلك العطاء الهائل .

هناك من تحامل على شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وبسبب طيشهم في الحكم عليه حرّموا على أنفسهم التعامل مع كل ما يتصل به، فكم حجم خسارتهم الفكرية والتربوية ؟ أما كان بإمكاننا أن نستفيد مثلاً من كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) خصوصا وأنّ هذا الكتاب فيه من القِيَم والمسائل المتنوعة التي تَهُمّ المسلمين حتى في أيّامنا هذه ، وفي مُقدمتها بيانُ الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على مخالفة أهل الكفر والضلال، كما فصّل في بعض العادات والبدع والضلالات التي جاء النهي عن التشبه بغير المسلمين فيها، وعن متابعتهم في شيءٍ منها.

ألسنا بحاجة إلى مثل هذا الكتاب لرسم معالم وأبعاد الشخصية الإسلامية الثابتة أمام التبعيّة والذّوبان والانحراف ؟ وفي ذات الوقت نحن بحاجةٍ للاستفادة من بقية تُراثه الهائل المتنوع . فلو كانت الموضوعية تحكم حياتنا الفكرية لمَا وقع العلماء الأجلاء ضحيّة جهلنا وظلمنا في الحكم عليهم .

وتحامل آخرون على الإمام الغزالي - رحمه الله - وطعنوا في مؤلفاته وبالغوا في الانتقاص من كتابه (إحياء علوم الدين) وهو من جملة كتبه التي لقيت عنايةً كبيرةً لدى أهل العلم، فقد جمع فيه

جوانب كثيرة في الأخلاق والسلوك . وفي ذات الوقت الذي لا نُنكر اختلاف أهل العلم حول الكتاب ، حيث مدحه قومٌ حتى غالوا في مدحه وقالوا : "من لم يقرأ الإحياءَ فليس من الأحياءِ" !! وذمّه قومٌ آخرون حتى أفتوا بحرقه ومنعه وقالوا : "من قرأ الإحياءَ فليس من الأحياءِ" !! ولعلّ سبب الاختلاف حول هذا الكتاب لتضمنه بعض الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة ، وبعض الإشكالات في أمور العقائد ، خاصةً في حديث الإمام الغزالي عن الصُّوفية والتصوُّف . قال ابن تيمية رحمه الله : "والإحياء فيه فوائدٌ كثيرةٌ لكن فيه بعض المواد المذمومة". ثم ذكر أنّ الذي فيه مما يوافق الكتاب والسنة أكثر من خلافه فلهذا اختلفت اجتهادات الناس وتنازعهم فيه . [١]
وقال الإمام الذهبي - رحمه الله - : "أمّا الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملةٌ وفيه خيرٌ كثيرٌ لولا ما فيه من آدابٍ ورسومٍ وزهدٍ من طرائق الحكماء ومنحرفي الصُّوفية ، نسأل الله علمًا نافعًا " [٢] . أما كان بإمكاننا أن نستفيد من هذا الكتاب ، بعد التخلي عن الروايات الضعيفة ، وعن الآراء التي اختلف فيها الباحثون في أمور العقائد ،

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٥٥١/١٠

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٣٣٩/١٩

ولا ضرر في أن يُشار إلى ذلك بمنهجيةٍ علميةٍ تُلبسنا ثوب الموضوعية من غير قدحٍ أو تجريحٍ .

علينا أن لا نتناسى كم في الإحياء من القيم والمعاني التربوية التي نحتاجها في بناء الشخصية الإسلامية وتحسين سلوكها التربوي وتقويم طريق عبادتها ، لذلك يلزمنا حسن الأدب مع علمائنا الأجلاء، وحَمل حصيلة عطائهم محَملاً حسنًا لنكون خير خلفٍ لخير سلفٍ ، فالعلاقة بين الخلف والسلف حدد معالمها الحقّ سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر ١٠) وفي هذا الموطن لا بُدَّ من التنبيه إلى ما وقع فيه بعضُ طلاب العلم من انتقاص بعض العلماء الأجلاء لما وقفوا عليه من أقوال الأقران فيهم ، فتأثروا بكلام بعضهم على بعضٍ ، وانطلقوا يبثون الأحكام على جماعةٍ من العلماء بسبب الجهل بأحوالهم ، والتأثر بأقوال أقرانهم فيهم ، فلهم ما يقولون ولنا حُسن الظن بعلمائنا من غير أنْ نكون طرفًا في خلافاتهم أو نزاعاتهم . يقول عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : "خذوا

العلم حيث وجدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض" [1] ، وقد قعّد السلف لذلك قاعدة عظيمة مفادها : (كلام الأقران يُطوى ولا يُروى) . ويقول الإمام الذهبي - رحمه الله - : "كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به لا سيما إذا لاح لك أنّه لعدواة أو لمذهب أو لحسد وما ينجو منه إلاّ من عصمه الله وما علمت أنّ عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين" [2] .

٢ - خلل في الفهم والأداء :

إنّ الفهم الصحيح لنصوص الدين يساعد على حسن العمل بمقتضاه وبخلاف ذلك سيختل الأداء الديني ، ويحصل التطرّف في الفكر والعمل ، لذلك فإنّ البصيرة في الدعوة إلى الله ﷻ مطلوبة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف ١٠٨) وهذه البصيرةُ لا تتم إلاّ بالمعرفة الحقّة والدراية الكافية بأمور الدين ومستلزمات التكليف . يقول النبي ﷺ : "من يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدين ، وَإِنّما الْعِلْمُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج٢/ص١٥١

(٢) أنظر: لسان الميزان ج١/ص٢٠١ ؛ وقواعد التحديث ج١/ص

بِالتّعَلُّمِ" [1] وعن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أنّه قال : "لا خَيْرَ في عِبَادَةٍ لا عِلْمَ فيها ولا عِلْمٍ لا فَهْمَ فيه ولا قِرَاءَةٍ لا تَدَبُّرَ فيها" [2] .

ولهذا فإنّ فقه الأمر سببٌ في سلامة أدائه ، لأنّ الخُطى تتعثر في الأداء قبل التفقه ، فليس كلّ من قرأ فهم ولا كلّ من فهم أفتى ولا كلّ من أفتى أصبح مُفتيًا ، لذلك يشترط الإمام ابن القيم - رحمه الله - للمُفْتي أو للحاكِمُ نوعين من الْفَهْمِ :

الأول : فَهْم الْوَاقِعِ وَاسْتِنْبَاط حَقِيقَة ما وَقَعَ بِالْقَرَائِنِ وَالأَمَارَاتِ وَالعَلامَاتِ ، حتى يُحِيطَ بِهِ عِلْمًا .

الثاني : فَهْم الْوَاجِبِ في الْوَاقِعِ ، وهو فَهْمُ حُكْمِ اللهِ الذي حَكَمَ بِهِ في كِتَابِهِ أو على لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ . [3] .

ولأهمية سلامة الفهم للنّصوص الشرعية في إحداث التوازن والاعتدال وتحقيق المصالح، أفرد الإمام البخاري -رحمه الله- بابًا أسماه : "بَابُ من تَرَكَ بَعْضَ الاخْتِيَارِ مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص٣٧

(٢) سنن الدارمي ج١/ص١٠١

(٣) أنظر: إعلام الموقعين ج١/ص٨٧-٨٨

الناس عَنهُ فَيَقَعُوا في أَشَدَّ منهُ" . وأورد فيه قول رسول الله ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - : "ياعَائِشَةُ ، لَوْلا أن قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لها بَابَيْنِ ، بَابٌ يدخل الناس وَبَابٌ يَخْرُجُونَ" وكذلك أورد بابًا آخرًا أسماهُ : "بَاب من خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لا يَفْهَمُوا". (١)

ولأجل تحقيق كمال الأداء ، يُوَجّهُ الإمامُ ابن تيمية - رحمه الله - المتعلمَ بقوله : "ولتكن همّته فهم مقاصد الرسول ﷺ في أمره ونهيه وسائر كلامه ، فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول ﷺ فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ، ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك" (٢) .

وبما أنّ فهم أحكام الدين يُمثل الطريق القويم لتحقيق العبودية لله، فلا بُدَّ وأن تتسع دائرةُ الفقه ؛ لتشمل فقه النصوص وفقه الواقع الذي يُراد لأحكام الشريعة أن تكون فاعلةً ومُوجهةً لسلوك العباد فيه، وإلاّ أصبح التطرّف الديني أمرًا واقعًا في حياة النّاس . وإذا عدنا إلى سيرة الصحابة ﷺ فإنّنا نجد أنّ أوّل اختلاف بينهم وقع بعد

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص٥٩

(٢) مجموع الفتاوى ج١٠/ص٦٦٤

وفاة النبي ﷺ مُباشرةً ، لإشكال في الفهم ، وتباين في الاجتهاد في تفسير كُنهِ الأحداث . فمثلا كان عمر بن الخطاب ﷺ قد أَصَرَّ على أنّ رسول الله ﷺ لم يمت ، لذلك قال : إنّ رجالا من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله ﷺ قد توفي وأنّ رسول الله ﷺ ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أنْ قيل قد مات ، ووالله ليرجعنّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنّ رسول الله ﷺ مات . . . وبعدها أقبل أبو بكر ﷺ حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر بن الخطاب ﷺ يكلّم الناس فلم يلتفت الى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها ، ورسول الله ﷺ مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ فقبله ثم قال : بأبي انت وأمّي ، أمّا الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثمّ لن تصيبك بعدها موتة أبدا، وردّ البرد على رسول الله ﷺ ثم خرج وعمر بن الخطاب ﷺ يكلم النّاس فقال : على رسلك يا عمر . أنْصت فأبى إلاّ أنْ يتكلم. فلمّا رآه أبو بكر ﷺ لا ينصت أقبل على النّاس ، فأقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيّها النّاس إنّه من

كان يعبد محمدا فإنّ محمّدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فأنّ الله حيّ لا يموت. ثم تلا الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران ١٤٤) ولكأنّ النّاس لم يعلموا بنزول الآية حتى تلاها أبو بكر ﷺ ، فسقط عمر ﷺ مغشيا عليه ولم تحمله رجلاه ، وذلك بعد تيقنه من وفاة النبي ﷺ وقال عن الآيات التي تلاها أبو بكر ﷺ : "كأنّي والله لم أكن قرأتها قط". (١)

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : "والله إنّي لأمشي مع عمر في خلافته فالتفت إليّ فقال : يا ابن عباس ، هل تدري ما كان حملني على مقالتي التي قلتُ حين تُوفي رسول الله ﷺ قال : قلتُ لا أدري يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم ، قال : فإنّه والله ما حملني على ذلك إلاّ أنّي كنت أقرأ قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة ١٤٣) فو الله لقد كنت لأظنّ أنّ رسول الله ﷺ سيبقى في أمّته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها ، وهذا الذي حملني على أن قلت ما

---

(١) أنظر: السيرة النبوية ج٦/ص٧٥، ٧٦

قلت" [1] . وَوِفقَ هذه الرواية فإنّ موقف عمر ﷺ يوم وفاة النبي ﷺ بُنيَ على فهمٍ أشكل عليه ، فكان ما كان من الأمر .

٣ - أن يرى المرء في نفسه مطلق الحقّ فينتصر لها :

ومن ثمّ يعادي من خالفه الرأي والاجتهاد ، حتّى وإنْ كان أقلّ النّاس علمًا وأضعفهم اجتهادًا ، بينما لا يرى جُزءًا من ذلك في غيره ولو كان أعلم النّاس وأقواهم اجتهادًا وأكثرهم درايةً . وعندما يكون الحقّ معنا فلا ينبغي أن يُفسد ذلك علاقاتنا مع عموم النّاس ، لأنّهم يمثلون ميدان دعوتنا ، فما بالُنا ونحن في صراعٍ وخصامٍ مع أهل الإيمان ، لذلك ينبغي للمؤمن - وبالأخصّ طالب العلم - أن يكون مُتواضعًا في رأيه ، حتى لو أيقن أنّ الحقّ معه لكي لا يُثير حفيظة المخالفين أو يستفزهم فيتكبروا على الحق . وإنْ كنّا من أصحاب الحقّ فعلينا أن نحترم من يمثله من النّاس وأن نعرف الرجال بالحقّ ، وليس خلافه ، فلقد سُئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ من أحد أصحابه : "أترانا نعتقد أنّك على الحق وأن طلحة والزُّبير على الباطل ؟" وفي السؤال إشارة إلى موضوع الخلاف

---

(١) أنظر: السيرة النبوية ج٦/ص٨٣

والفتنة التي وقعت للصحابة في ذلك الوقت ، فأجابه الخليفة علي ﷺ بقوله : "اعرف الرجال بالحق ولا تَعرِف الحق بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله" [١] ويقول معاذ بن جبل ﷺ : "اقْبَلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافرًا أو فاجرًا ، واحذروا زيغة الحكيم ، قالوا كيف نعلم أن الكافر يقول الحق ؟ قال إنّ على الحق لنورًا"[٢].

ويقول أبو حامد الغزالي - رحمه الله - : "من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضّلال فاعرف الحق تعرف أهله" [٣] . ويضع الإمام الزرعي – رحمه الله – قاعدة في الحكم فيقول: "لسنا ممن يعرض الحق على آراء الخلق فما وافقه منها قبله وما خالفه ردّه ، وإنّما نحن ممّن يعرض آراء الرجال وأقوالهم على الدليل ، فما وافقه منها اعتدّ به وقبله وما خالفه خالفه" [٤] .

---

(١) قواعد التحديث ج١/ص٢٩١ ؛ والفتاوى الفقهية الكبرى ج٢/ص٢١٦

(٢) أقاويل الثقات ج١/ص٢٣٨ ؛ وطبقات الشافعية الكبرى ج٩/ص٨٤ ؛ والتراتيب الإدارية ج٢/ص٣٤٩

(٣) إحياء علوم الدين ج١/ص٢٣

(٤) الفروسية ، محمد بن عبد الرحن الزرعي ، ج١/ص٢٢٨

وقيل أنّ الفيلسوف أرسطو لمـّا خالف أستاذه أفلاطون قال : "تخاصم الحق وأفلاطون وكلاهما صديقٌ لي ولكن الحق أصدق من أفلاطون" (١) .

٤ - التحرّج من قول "لا أعلم" :

هناك من يتهاون في أمر الفتوى ويخوض في مسائل الفقه وإنْ دقّت من غير هديٍ ولا تخصصٍ ولا دليلٍ ، فيضل في آرائه وفتاويه، وهناك من إذا سُئل عن أمرٍ في الدين أجاب دون أدنى شعورٍ بالحرج ، لدرجة أنّ بعضهم يُجيز لنفسه الاجتهاد المطلق في الوقت الذي يرفضه عند غيره ، ولو كانوا هم الأئمةَ الأربعةَ الذين أجمعت غالبيةُ الأمّة على مطلق اجتهادهم . وهذا من جهلهم بالأحكام ، أو من قلّة تديّنهم وضعف تقواهم. يقول النّبي ﷺ : "إنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ من الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاء حتى إذا لم يُبْقِ عَالِمًا اتخَذَ النَّاسُ رؤوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا" (٢) .

---

(١) قواعد التحديث ، ج١/ص٢٩١

(٢) صحيح البخاري ج١/ ص ٥٠ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص٢٠٥٨

وعن جبير بن مطعم "أنَّ رَجُلاً أتى النَّبي ﷺ فقال أَي البلاد شَر؟ فقال لا أَدْرِي ، فلما أتى جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ عَلَيْهِمَا السلامُ قال: أَي الْبِلادِ شَر ؟ قال لا أَدْرِي حتى أَسْأَلَ رَبي فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَمَكَثَ ما شَاءَ اللهُ فقال : يا محمد إنّكَ سَأَلْتَنِي أَي البلاد شَر فقلت لا أَدْرِي وَإني سَأَلْتُ رَبي فقلت أَي البلاد شَر فقال أَسْوَاقُهَا"[1] .

وكان بعض علماء السلف يتهربون من الفتوى ، ليس من قبيل الجهل بالمسألة ، وإنّما هو الحذر والخوف والوجل من أمرها ، فعن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى قال : "أَدْرَكْتُ عِشْرِينَ وَمِائَةً من الأَنصَارِ من أَصْحَابِ رسول اللهِ ﷺ ما منهم رَجُلٌ يُسْأَلُ عن شَيْءٍ إلاّ وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاه ، وَلا يحُدّثُ حَدِيثًا إلاّ وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ" [2] .

وجاء رجل إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ فسأله عن شيء فقال القاسم : "إنّي لا أُحسنه" فقال السائِلُ : "إنّي جِئْتُكَ لا أعرف غَيْرَكَ" فقال له الْقَاسِمُ : "لا تَنظُرُ إلَى طُولِ لِحْيَتِي وَكَثْرَةِ

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج١/ص١٦٧ ؛ والمعجم الكبير ج٢/ص١٢٨

(٢) إعلام الموقعين ج١/ ص ٣٤ ؛ والمعرفة والتاريخ ج٣/ص١١٥ ؛ والطبقات الكبرى ج٦/ص١١٠

النّاس من حولي وَاللهِ ما أُحْسِنُهُ" فقال شَيْخٌ من قُرَيْشٍ جَالِسٌ إلَى جَنبِهِ: "يا بن أخي الْزَمْهَا فَوَ اللهِ ما رَأَيْنَاكَ في مَجْلِسٍ أَنبَلَ مِنْكَ الْيَوْمَ" . فقال الْقَاسِمُ : "والله لأن يُقْطَعَ لِسَانِي أحب إليَّ من أن أتكلم بمَا لا عِلْمَ لي بِهِ" . [1] وكذلك سُئل الإمام مالك - رحمه الله - عن مسألةٍ فقال : "لا أَدْرِي" فَقِيلَ له : "إنّهَا مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ سَهْلَةٌ" فَغَضِبَ وقال: "ليس في الْعِلْمِ شيءٌ خَفِيفٌ ، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ عز وجل : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا﴾ (المزمل ٥) فَالْعِلْمُ كُلُّهُ ثَقِيلٌ وَخَاصّةً ما يُسْأَلُ عنه يوم الْقِيَامَةِ" وقال : "وإذا كان أصحاب رسول اللهِ ﷺ تَصْعُبُ عليهم الْمَسَائِلُ وَلا يُجِيبُ أحدٌ منهم عن مَسْأَلَةٍ حتى يَأْخُذَ رأي صَاحِبِهِ مع ما رُزِقُوا من السّدَادِ وَالتَّوْفِيقِ وَالطَّهَارَةِ فَكَيْفَ بِنَا وقد غَطّت الذنُوبُ وَالْخَطَايَا قُلُوبَنَا" وقال : "ما أَفْتَيْتُ حتى شَهِدَ لي سَبْعُونَ أنّي أَهْلٌ لِذَلِكَ" وقال أيضًا : "لا يَنبَغِي لِرَجُلٍ أن يَرَى نَفْسَهُ أَهْلا لشيءٍ حتى يَسْأَلَ من هو أَعْلَمُ منه فيه ، وما أَفْتَيْتُ حتى سَأَلْتُ رَبِيعَةَ وَيَحْيَى بن سَعِيدٍ فَأَمَرَانِي بِذَلِكَ وَلَوْ نَهَيَانِي لكنتُ قد انتَهَيْتُ" [2]

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج٢/ص٥٣

(٢) حلية الأولياء ج٦/ص ٣١٦ ؛ وأدب المفتي والمستفتي ص/٨٠

والجهل في العلم يجعل النّاس أكثر جرأة على الفتوى ، يقول عبد السلام بن سعيد [١] : "أَجْسَرُ الناس على الْفُتْيَا أَقَلّهُمْ عِلْمًا ، يَكُونُ عِنْدَ الرجُلِ الْبَابُ الْوَاحِدُ من الْعِلْمِ يَظُنّ أنّ الحقّ كُلَّهُ فيه"[٢] وقال أيضا: "أشقى النّاس من باع آخرته بدنياه ، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره. قال ففكرت فيمن باع آخرته بدنيا غيره فوجدته المفتي يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه فيقول له لا شيء عليك فيذهب الحانث فيتمتع بامرأته ورقيقه وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا" [٣]

ولمّا سُئِلَ الإمام عامر بن شراحيل الشَّعْبِي عن مسْأَلَةٍ قال : "لا أَدْرِي" فَقِيلَ له : "ألا تستحيي من قَوْلِكَ لا أَدْرِي وَأَنْت فَقيهُ أهل الْعِرَاقِ ؟ فقال : لَكِنّ الْمَلائِكَةَ لم تستحيي حين قالت : ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة ٣٢)" [٤] .

---

(١) الملقب بسحنون ، إمام المالكية وصاحب المدونة في الفقه المالكي .

(٢) إعلام الموقعين ج١/ص٣٤

(٣) أدب المفتي والمستفتي ص/٨١

(٤) صفة الفتوى ج١/ص٩

ويلزمنا هنا التمييز بين الجرأة في الحق ، والجرأة على الحق، فهناك من يكون جريئًا في الحق لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، كما جاء في وصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حيث قال عنه كَعْبُ الأَحْبَارِ: "قَرْنٌ من حَدِيدٍ لا تأخذهُ في اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ" (١) . وهناك من يكون جريئًا على الحق ، فالأوّل يمثل العزيمة في الأداء والعطاء ، والثاني يُنقص من قدر الحق في أعين الخلق ، ولا يحسّ بحرجٍ في فعل ذلك لسوء سريرته وضعف إخلاصه لله ﷻ.

٥ ـ التعسير في الفُتيا :

والتضييق على النّاس فيها ، وترْك الأخذ بما يَسّرَ اللهُ على عباده من الأحكام ، بسبب النظرة القاصرة عن إدراك المصالح ، فلقد جاءت الشريعة الإسلامية للتيسير والتخفيف ، بل إنّ مبدأ التيسير هو من محبوبات الحق ﷻ ويتفق مع مراده ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥) لذلك لا ينبغي التعسير على العباد ، بل الأخذ بالتيسر ما أمكن، وبالقدر الذي تتسع له الشريعة ويحقق المصلحة . يقول النبي ﷺ : "أَحَبُّ الدينِ إلى اللهِ الْحَنِيفِيةُ

(١) المعجم الكبير ج١/ص٨٤ ؛ وحلية الأولياء ج٦/ص٢٥

السمْحَةُ" و "إنَّ الدينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدينَ أَحَدٌ إلاّ غَلَبَهُ فَسَدّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا" [١] و"إنّ الله يُحب أَن تُؤتى رخصه كما يحب أن تُؤتى عزائمه" [٢] . وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: "لا تعب على من صام في السفر ولا على من أفطر ، خُذ بأيسرهما عليك" [٣]. وعن تميم الداري ﷺ قال : "خذ من دينك لنفسك ومن نفسك لدينك حتى يستقيم بك الأمر على عبادةٍ تُطيقها"[٤].

وكَانَ التيسيرُ على العباد من هدي النبي ﷺ تقول عائشة - رضي الله عنها- : "ما خُيّرَ رسول اللهِ ﷺ بين أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ من الآخَرِ إلاّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ما لم يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كان إِثْمًا كان أَبْعَدَ الناس منه" [٥] فلا حرج في الدّين على النّاس ، وإنّما يقع

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص ٢٣؛ وصحيح ابن حبان ج٢/ص٦٣.

(٢) أخرجه البزار والطبراني وابن حبان (انظر : الدر المنثور ج١/ص٤٦٦) وفي رواية عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إنّ الله يحب أن تؤتى رخصه كما لا يحب أن تؤتى معصيته) (المصدر السابق)

(٣) الدر المنثور ج١/ص٤٦٦

(٤) المصدر السابق

(٥) صحيح البخاري ج٦/ص٢٤٩١ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٨١٣

الحرج بسبب سوء تطبيق الدّين ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج ٧٨) وقال النّبي ﷺ: "إنّما بُعِثْتُمْ مُيَسّرِينَ ولم تُبْعَثُوا مُعَسّرِينَ" (١) وقال أيضا: "يَسّرُوا ولا تُعَسرُوا وَبَشّرُوا ولا تُنَفّرُوا" (٢) . وقال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: "لاينبغي لمن أفتى النّاس أن يحملهم على مذهبه ويشدد عليهم" (٣) فقد يكون فيما ذهب إليه يجلب التعسير ويزيد في المشقّة .

وهناك من النّاس من لديه رغبةٌ جامحةٌ في توسيع مساحة المحرمات والتضييق على الناس ما أمكنه ، وقد أسرف بعضُ المتشددين في القول بالتحريم ، ظنّا منهم أنّ ذلك من باب الأخذ بالأحوط والأحفظ للتدين ، مع العلم أنّ القضيّة مرتبطة بمبدأ الحكم لا بنوع الحكم ، وقد نهى الله تبارك وتعالى عن (التحريم والتحليل) إذا لم يكن للمرء علم بالحكم أو نصيب كاف من الاجتهاد . لذلك يقول الحقّ ﷻ : ﴿ولاتَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص٨٩

(٢) صحيح البخاري ج١/ص٣٨ ؛ ومسلم ج٣/ص١٣٥٩

(٣) الآداب الشرعية ج٢/ص٦٢

وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل١١٦) [1].

لذلك ذهب بعض العلماء إلى التحذير من إطلاق حكم التحريم إلاّ ما كان الجزم فيه حُكمًا تشريعيًا ، أمّا ما كان محل نظرٍ واجتهادٍ، فلا يجزمون بتحريمه ، وقد يضعوه في دائرة الكراهية أو الترك عُمومًا . ومع أنّ الأخذ بالأيسر هو من سماحة ديننا الحنيف ، لكن لا ينبغي أن يُستغل هذا الجانب عند ضعاف النفوس ، فيتلاعبون بالأحكام دون قيود تحمي شريعة الله ، فلا بدّ أن يُحاط التكليف بسياج الخشية ليسلم القصد وتصدق النيّة ، وأن يُحاط الأداء بسياج الرحمة ليداوم العبد على طاعة ربه من غير كللٍ أو مللٍ .

٦- الغلظة والفظاظة في التعامل :

فهذا الأمر يُؤدي إلى التنفير من الدّين ، وكراهيّةٌ أهل التدين. وقد يظن بعض الجهلة من النّاس أن الغلظة والتشدّد من مقتضى الصدع بالحق والانتصار له ، متجاهلين أثر اللين في أخلاق رسول الله ﷺ على الصحابة الكرام ، وأنّ ذلك كان من أسباب القرب منه

---

(١) أنظر : صفة الفتوى ج١/ص٦

والتأثّر به وملازمة صحبته ، قال الله ﷻ في خطابه لرسوله ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران ١٥٩) ووصف الله رسوله ﷺ بالرأفة والرحمة فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة ١٢٨). كما أمرنا الحقّ ﷻ أن نجادل بالحسنى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (النحل ١٢٥) والرفق زينةٌ في حياة المؤمن ، وصفةٌ محمودةٌ لدى الدعاة إلى الله ، يقول النبي ﷺ : "ما كان الرّفْقُ في شيءٍ قَطُّ إلاّ زَانَهُ وَلاَ عُزِلَ عن شيءٍ إلاّ شَانَهُ" (١) ويقول ﷺ : "من أُعْطِيَ حَظَّهُ من الرّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظّهُ من الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ من الرّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ من الْخَيْرِ" (٢) . والرفق من مكارم الأخلاق ، وصاحبه ينل حبّ العباد في دنياه ، وحبّ الرسول ﷺ والقرب منه يوم يلقاه ، قال ﷺ : "إنَّ أحبَّكم إلي وأقربكم منّي

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٦/ص ٢٠٦ ؛ وصحيح ابن حبان ج٢/ص٣١١

(٢) سنن الترمذي ج٤/ص٣٦٧ وقال عنه : حديث حسن صحيح .

أحاسنكم أخلاقًا وإنَّ أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوؤكم أخلاقًا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون" [1] . ولم يرد ذكر الشدّة والغلظة في القرآن إلاّ في موضعين :

الأوّل : في قتال الكفّار ، قال الحقّ ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ١٢٣)

والثاني : في إقامة حدود الله وتنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها ، فلا مجال للشفقة فيها، قال الله ﷻ : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور ٢). وحسبُنا في أسلوب الرفق واللين وصيّةُ الله ﷻ لموسى وهارون عليهما السلام بقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه ٤٣ و ٤٤) حتى أنّ أحد الصالحين لمّا سمع بالآية قال : يارب إن كان هذا لطفك بفرعون القائل: (أنا ربكم الأعلى) فكيف يكون لطفك بعبد قال: (سبحان ربي الأعلى). لذلك فإنّ الجهل بمبادئ ومتطلبات الدعوة

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ج١٠/ص١٩٣

إلى الله وبأحوال النّاس هو من أكبر أسباب الوقوع في التشدد ، خُصوصًا إذا ظن المتشدد أنّ ما يفعله هو الصواب فيغتر بفعله ويخاصم من أجله .

٧- حملُ النّاس على الأخذ بالعزيمة دون الرخصة :

وذلك من خلال عدم الاكتراث بمسوغات الرخص في الأحكام، فيلجأ بعضهم إلى اتهام من يُرخص للنّاس في بعض فتواه بأنّه متساهلٌ في الدّين ومتهاونٌ بأحكام الله ، وبهذا يكونون قد تجاوزوا العمل بجمال هذا الدّين في كونه منظومةً متكاملةً بين الرخصة والعزيمة ، وخالفوا محبوبات الله في التيسير ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة ١٨٥) لذلك نجد أنّ الحقّ ﷻ يراعي في عباده الضعف البشري فيخاطبهم على هذا الأساس ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ (التغابن ١٦) وبالمقابل يحثّهم على الأخذ بالعزيمة لكي يبقى أُفُقُ الغاية في علوّ وشموخٍ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ١٠٢) ليعيش المؤمن ميدان التجاذب الإيماني بين عشق الغاية في سقفها الأعلى ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ وأداء المقدور عليه ﴿ فَاتَّقُوا الله ما استطعتم﴾ . يقول النبي ﷺ : "فإذا نَهَيْتُكُمْ عن شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وإذا

أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ" [1] على أن يبقى المقصد العام للمؤمن في مسيرةٍ تصاعديةٍ نحو المعالي ، وليس نحو الهبوط .

ومع الأسف فهناك من النّاس من يستغلّ هذا الجانب ، فيجعل الترخّص في الأحكام غاية له ، فيبالغ في تتبع الرخص ، وكأنّ الأخذ بها هي المطلب ، دون الاكتراث بمبدأ (الأصل في الاجتهاد هو إصابة الحقّ) لذا فإنّ تتبع الرخص ينبغي أن يحقق المصلحة المناطة بالحكم وليس الأخذ بها بإطلاق بغيّة الترخص لا غير ، فقد يؤدّي ذلك إلى تطرّف في الاتّباع ، وإخلال في صورة التديّن أو في سلوكيات المتديّن ، خصوصا وقد أسهب كثيرٌ من النّاس في ظل ذريعة التيسير في تتبع الرخص حيثما وُجِدَت حتى وإنْ كانت من شواذّ الأحكام ، دون النظر إلى حال المفتي ، سواء كان من أهل العلم أم من غيرهم . يقول الإمام مالكٌ - رحمه الله : "إنّ هذا العلم دينٌ فانظروا عمّن تأخذونه ، لقد أدركت في المسجد سبعين ممن يقول قال فلانٌ قال رسول الله ﷺ وإنّ أحدهم لو ائتمن على بيت

(١) صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٥٨ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٨٣٠

المال لكان به أمينًا ، فما أخذت منهم شيئًا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ولمّا يَقْدِم علينا الزهري وهو شابٌ فنزدحم على بابه"[١]

ويذهب الإمام أحمد - رحمه الله - إلى تفسيق من يتتبع الرخص رغبةً فيها لا في إصابة الحقّ ، لتكون عبادتُه مَبنيةً على الترخّص عمومًا، وفي ذلك يقول : "لو أنّ رَجُلا عَمِلَ بِكُل رُخْصَةٍ بِقَوْلِ أَهْلِ الْكُوفَةِ في النبِيذِ ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ في السَّمَاعِ ، وَأَهْلِ مَكةَ في الْمُتْعَةِ لكان فَاسِقًا" [٢] . كما يذهب بعض العلماء إلى أنّ المرء لو أخذ برخصة كل عالمٍ أو زلّة كل عالمٍ لاجتمع فيه الشرّ كلـّه. [٣] ويقول إسْمَاعِيلُ بن إِسْحَاق الْقَاضِي : "دَخَلْتُ على الخليفة الْمُعْتَضِدِ فَدَفَعَ إلَيَّ كِتَابًا نَظَرْت فيه وكان قد جَمَعَ له الزلَلَ من رُخَصِ الْعُلَمَاءِ وما احْتَجَّ بِهِ كُلٌّ منهم لِنَفْسِهِ فَقُلْتُ له : يا أمير الْمُؤْمِنِينَ مُصَنّفُ هذا الْكِتَابِ زِنْدِيقٌ ، فقال لم تَصِح هذه الأَحَادِيثُ قُلْت: الأَحَادِيثُ على ما رُوِيَتْ وَلَكِنْ من أَبَاحَ الْمُسْكِرَ لم يُبِحْ الْمُتْعَةَ وَمَنْ أَبَاحَ الْمُتْعَةَ لم يُبِحْ الْغِنَاءَ وَالْمُسْكِرَ ، وما من عَالِمٍ إلاّ وَلَهُ زَلّةٌ

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٥/ص٣٤٣

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه ج٤/ص٦٠٢

(٣) أنظر : إغاثة اللهفان ج١/ص٢٣٠

وَمَنْ جَمَعَ زَلَلَ الْعُلَمَاءِ ثُم أَخَذَ بها ذَهَبَ دِينُهُ ، فَأَمَرَ الْمُعْتَضِدُ فَأُحْرِقَ ذلك الْكِتَابُ" [1] . وعندما سُئِلَ الإمام النّووي - رحمه الله - عن جواز أنْ يُقلّد مُقَلّدُ مذهبٍ ما ، مذهبًا آخرًا في رخصةٍ لضرورةٍ ونحوها فأجاب بقوله : "يَجُوزُ له أَنْ يَعْمَلَ بِفَتْوَى من يَصْلُحُ لِلإِفْتَاءِ إذَا سَأَلَهُ اتفَاقًا من غَيْرِ تَلَقُّطِ الرُّخَصِ وَلا تَعَمُّدِ سُؤَالِ من يَعْلَمُ أَنَّ مَذْهَبَهُ التَرْخِيصُ في ذلك" [2] . وللأسف فهناك من المفتين ممن لا يتقون الله ، من يُرخّص ويشدّد في فتواه على حسب هواه أو مصلحته ، فيجعل من الأحكام مطيّةً لدنياه ولا يخشى الله فيما يقول، وفي أمثال هؤلاء يقول الإمامُ القرافي - رحمه الله -: "لا ينبغي للمفتي إذا كان في المسألة قولان أحدُهما فيه تشديدٌ والآخر فيه تخفيفٌ أن يُفتي العامة بالتشديد ، والخواص من ولاة الأمور بالتخفيف، وذلك قريبٌ من الفسوق والخيانة في الدين والتلاعب بالمسلمين، ودليلٌ على فراغ القلب من تعظيم الله تعالى وإجلاله وتقواه وعمارته باللعب وحبّ الرياسة والتقرب إلى الخلق دون

---

(١) الفروع ج٣/ص١٦١؛ وسنن البيهقي الكبرى ج١٠/ص ٢١١

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه ج٤/ص٦٠٢

الخالق ، نعوذ بالله من صفات الغافل" [1]. وكذلك من مظاهر التطرّف ، الميلُ نحو الترخيص في الأحكام دون الترجيح في المسائل الخلافية ، فعلى المفتي إذا عرض أقوال العلماء وخلافهم في المسائل الفقهية التي وقع فيها خلافٌ بين العلماء أن يرجّح ما يراه حقًّا ، أو ما يعتقد فيه الصواب ، أو الأصوب من الآراء ، وإلاّ فما فائدةُ سرد الخلاف دون توجيهٍ وترجيحٍ ، بل عليه الترجيح المنضبط بأصوله ، لا بما يوافق رأيه وهواه ، فالحق أحق أن يُتبع . يقول الإمام ابن الصلاح - رحمه الله -: "إذا اقتصر في جوابه على سرد الخلاف بأنْ قال فيها قولان أو وجهان أو نحو ذلك من غير أن يبين الأرجح فحاصل أمره أنّه لم يفت بشيء" [2] وقال : "ومن يكتفي بأن تكون في فتواه أو عمله موافقةٌ لقولٍ أو وجهٍ في المسألة ويعمل بما شاء من الأقوال أو الأوجه من غير أن ينظر في الترجيح أو يقتدي به فقد جهل وخرق الإجماع" [3]

---

(١) مواهب الجليل ج٦/ص ٩٢ ؛ وتبصرة الحكام ج١/ص٥٩

(٢) فتاوى ابن الصلاح ج١/ص٦٨

(٣) صفة الفتوى ج١/ص٤٠- ٤١ ؛ وأدب المفتي والمستفتي ج١/ص١٢٥

٨ ـ خلل في التعامل مع المحكم والمتشابه :

لا يسعنا في هذا الموطن أن ندخل في تفصيلات معنى المحكم والمتشابه ، ففيهما أقوال كثيرة عند العلماء ، وبالأخص أهل التفسير والتأويل ، وقد ألّف العلماء في ذلك كتبا كثيرة ومتنوعة ، والذي يهمنا في حديثنا هنا تعريفهما بالقدر المجزئ ، لذلك نعني بالمُحْكم : اللفظَ الذي يُعرَف المراد منه من غير لبسٍ ، وهو ما لا يحتمل إلاّ وجهًا واحدًا . وقيل عن المحكم : أنّه ما استقلّ بنفسه ولم يحتج إلى بيان . وأما المتشابه: فهو ما احتمل أكثر من معنًى ، وقد تكون دلالتُه غيرُ مُنضبطة ، وهو ما احتاج إلى بيانٍ أو رَدٍّ إلى المحكم . وفي أمر المحكم والمتشابه قال الحقّ ﷻ : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران ٧) . أمّا موقفنا من المحكم فهو العمل به ، ومن المتشابه هو الإيمان به ، ولذلك لمـّا سُئل الإمامُ مالكٌ رحمه الله عن كيفيّة الاستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه ٥) قال : "الاستواءُ

معلومٌ والكيفُ مجهولٌ والإيمانُ به واجبٌ والسؤالُ عنه بدعةٌ" [1] .
لذلك يلزمنا رَدُّ المتشابه إلى المحكم عندما يُشكل علينا أمرُ المتشابه. فمثلا : لو اشتبه علينا تفسير اليد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح ١٠) فهنا نردّ المتشابه في تفسيرها إلى المحكم في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى ١١) فنتوقف عن الخوض بعد الردّ ، لأنّ الخوض فيها يؤدي بنا إلى إخلالٍ بمفهوم صفات الله تبارك وتعالى ، فنقع فيما وقع فيه بعض من سبق من التشبيه والتمثيل في صفاته ، وهو أمرٌ مردودٌ في أحكام العقيدة الإسلامية .
ومن هنا نجد أنّ بعض المتطرفين يُثيرون الجدل والنقاش حول المتشابهات ويتخذون منها سبيلاً لمنهجهم وآرائهم وفي نفس الوقت تجدهم يُعرضون عن المحكم في كتاب الله .

ويبدو أنّ هذه الظاهرة هي التي أوقعت كثيراً من الفرق قديمًا وحديثًا في أخطاءٍ جسيمةٍ ظهرت آثارُها في العقيدة والعبادة والأحكام بل نتجت عنها فتنٌ ومحنٌ شقت عصا المسلمين على مرّ العصور ، ونسي هؤلاء أنّ الدين الإسلامي الحنيف بَيّنٌ وواضحٌ ،

---

(١) مجموع الفتاوى ج١٣/ص٣٠٩ ؛ وإعلام الموقعين ج٤/ص٢٤٦

وهو بما فيه من أُسسٍ وأصولٍ ثابتةٍ مدعاةٌ للوحدة لا الفرقة، ولإحقاق الحقّ لا لإقرار الباطل، يقول النبي ﷺ : "تَرَكْتُكُمْ على الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عنها بَعْدِي إلاّ هَالِكٌ ، من يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ من سُنتِي وَسُنةِ الْخُلَفَاءِ الراشِدِينَ الْمَهْدِيينَ ، عَضُّوا عليها بِالنوَاجِذِ" (١) .

٩- حبّ المخالفة والانفراد بالرأي :

وذلك عملا بمقولة : (خالف تُعرف) من غير شعورٍ بآثارٍ فردية الرأي وانفراد الاجتهاد على مصلحة الدعوة ووحدة الأمة ، وهذا ممّا تعانيه اليوم ونحن نعيش في زمن غابت فيه النظرة الجماعية وانزوى فيه توافق الآراء أو ما كان يُسمّى قديمًا برأي الجمهور. وقد أضعف هذا الأمرُ ثقة النّاس بمعطيات التراث الإسلامي ، فمع توسع العلوم وتباين التخصصات وتنوع مشاكل العصر والتعقيد في تركيبة المجتمعات ، أصبح من الصعب، بل من المستحيل على المرء أن يتصدر واجهة الاجتهاد لمجرد أنه يحفظ شيئًا من نصوص التراث، أو يفقه بعضًا من جوانبه بعيدًا عن فقه

---

(١) سنن ابن ماجه ج١/ص١٦ ؛ ومسند الإمام أحمد ج٤/ص١٢٦

الواقع وفقه المتغيرات والأولويات . وقد أوجد الاتجاه الفردي في ميدان الاجتهاد الفقهي المعاصر ، حالةً من الفزع عند العامّة ، بسبب اتساع هوة الخلاف ، وتباين الأحكام الفقهية من مجتهد لمجتهد ، حتى انتقلنا من خلاف الأئمّة الذي ضاق به ذرعًا بعض الناس إلى اختلاف أبناء الأمّة ، ومن الآراء الفقهية الاجتهادية المعتدّ بها ، إلى الاجتهادات الفردية المشكوك بأمرها .

إذن لا مناص لنا من الوُجهة والنظرة الجماعية أو على الأقل من تقارب وجهات النظر داخل إطار المجموعة ، لأنّ الفكر الجماعي أقرب في إصابة الحق وأنفع للأمّة ، لما له من نفاذ الرؤية في دائرة الشمول والتوازن ، لأنّ الفردية في الغالب تحكمها المزاجية ، وتعصف بها النزعة الذاتية ، فتتجاوز حدود المصالح العامة إلى أنانية الذات . وهناك أيضًا من يعتقد أنّ رأيه صوابٌ لا يحتمل الخطأ وأنّ رأي غيره خطأ لا يحتمل الصواب ويحكم على من يخالفه الرأي بأنه من أهل الضلال والزيغ دون الاكتراث بإمكانية تعدد الدلالات وتباين الاجتهادات ، فمن الممكن أن تتعدد صور الحق وتتنوع أوجهه حسب تباين الناس في قدراتهم في النظر والاجتهاد ، خصوصًا وأنّ ميدان الفقه يتسع لذلك من غير حرج .

ومن مظاهر التطرّف في واقع النّاس أنّنا نجد من بينهم من يكتفي بنصّ واحد في الفتوى دون النظر في النصوص الأخرى ، خصوصا إذا خالفت أو عارضت فتواه ، فدلالة النّص الواحد تطغى في حكمه على جميع دلالات النصوص الأخرى .

لقد كان عليه أن ينظر في النصوص مجتمعةً في وقتٍ واحدٍ ويستنبط الحكم الذي يرجحه بقوة الدليل وغلبة المصلحة ، فليست العبرةُ في كشف الأحكام فحسب ، وإنّما في إحكام الأحكام المحققة لمصالح الأنام ، لنجعل من أداء المكلفين طريقًا مُستقيمًا يربط بين الحكم والحاكم ، وبين التشريع والمشرّع ، وبين العبد والمعبود .

١٠- تحميل النّصوص أكثر ممّا تحتمل من دلالات وأحكام :

وغالبًا ما يؤدي ذلك إلى أن يبتعد الناس بالأحكام خارج مُراد الشارع منها ، وبالمعاني بعيدًا عن مراميها . وهنا أسرف بعضهم في تفسير آيات القرآن الكريم وفي بيان أحاديث رسول الله ﷺ وتحميلها دلالات ومعانٍ لا تستقيم مع مراد الحقّ ﷻ ، وذلك إمّا بقصد أن يعزز وُجهةً يريدها ، أو أنْ يحرف المعنى عن مواضعه لحاجة في نفسه أو لإرضاء غيره . وهناك من يستهويه ربط القرآن

الكريم بكل جديد في عالم المتغيرات ، ليُثير إعجاب النّاس ، فليست الغاية الوصول بالناس إلى ما يريدون من خطاب الله ، وإنّما إلى ما يريدُ الحق ﷻ من خطابه، فلا نُنقص من سموّ الدلالات لكتاب الله عزّ وجل من أجل أن ننل رضا النّاس ونحن نعلم أنّ رضا الناس غايةٌ لا تُدرك . قال الإمام الشافعي - رحمه الله - لأحد أصحابه : "رضا الناس غايةٌ لا تُدرك ... فانظر ما فيه صلاح نفسك والزمه ، ودع الناس وما هم فيه" (١) . وقال الإمام الغزالي - رحمه الله - : "إنّ رضا الناس غايةٌ لا تُدركُ ، فكل ما يرضى به فريقٌ يسخط به فريقٌ آخرٌ ، ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم عليه" (٢) .

١١- سوء الظنّ بالنّاس .

وذلك بالنظر إليهم من منظارٍ أسودٍ قاتمٍ ، واستبعاد أنْ يكون ظاهر أفعالهم على خلاف مقاصدهم أو نيّاتهم ، مع عدم تلمس الأعذار لهم ، فيكون حكمهم عليهم بعيدًا عن الواقع ومُجافيًا للعدل ،

---

(١) معجم الأدباء ج٥/ص٢٠٤

(٢) إحياء علوم الدين ج٣/ص٣١١

فيجعلوا من الخطأ خطيئةً ، ومن الخطيئة كُفرًا ، ويكاد أنْ لا يَنجوَ داعيةٌ أو مُصلحٌ من شواظ هؤلاء ، بل إنّ خاصة الخاصة من أئمة المذاهب المشهورة لم يسلموا من سَلْق ألسنتهم الحِداد ، وهم بهذا على خلاف تعاليم الله ورسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات ١٢) وقال النبي ﷺ: "إِياكُمْ وَالظَّنّ فإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث." [١] ولا يخلو زمان من أمثال هؤلاء ، وحتى في زمن النبي ﷺ فهناك من اعترض على بعض أفعاله بألفاظٍ قاسيةٍ لا تليق بخاتم الأنبياء والمرسلين، فعن أبي وَائِلٍ عن عبد اللهِ ﷺ قال: "لَمّا كان يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ رسول اللهِ ﷺ نَاسًا في الْقِسْمَةِ فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بن حَابِسٍ مِائَةً من الإبِلِ وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلك وَأَعْطَى أُنَاسًا من أَشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ في الْقِسْمَةِ فقال رَجُلٌ : واللهِ إنَّ هذه لَقِسْمَةٌ ما عُدِلَ فيها وما أُرِيدَ فيها وَجْهُ اللهِ . قال : فقلت واللهِ لأُخْبِرَن رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قال : فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قال ، قال : فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حتَّى كان كَالصرْفِ ثُم قال : فَمَنْ يَعْدِلُ إن لم يَعْدِلْ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ ثُم قال : يَرْحَمُ الله

(١) صحيح البخاري ج٥/ص٢٢٥٣ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٩٨٥

مُوسَى قد أُوذِيَ بِأَكْثَرَ من هذا فَصَبَرَ . قال قلت : لا جَرَمَ، لا أَرْفَعُ إليه بَعْدَهَا حَدِيثًا" [١] .

وفي موضوع حسن الظنّ بالمسلمين يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : "أعقل الناس أعذرهم لهم" [٢] . و "لا تظن بكلمة خرجت من في مسلم شرًّا وأنت تجد لها في الخير مَحملاً" [٣] . ويقول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : "يا بني إذا سمعت كلمةً من مسلمٍ فاحملها على أحسن ما تجد حتى لا تجد محملاً" [٤] ، وجاء عن جعفر الصادق - رحمه الله - أنّه قال : "إذا بلغك عن أخيكَ الشيء تُنكرهُ فالتمسْ لهُ عُذرًا واحدًا إلى سبعينَ عُذرًا ، فإنْ أصبتَهُ وإلاّ فَقُلْ : لعلّ لهُ عُذرًا لا أعرفهُ " [٥] فلا يجوز للمسلم تقديم سوء الظن على حسنه ، لأنّ الأصل تجاه إخوانه

---

(١) صحيح البخاري ج٣/ص ١٢٤٩؛ وصحيح مسلم ج٢/ص٧٣٩ (واللفظ له)

(٢) أخبار المدينة ج١/ص٤٠٩ ؛ مداراة الناس ج١/ص٤٨

(٣) مداراة الناس ج١/ص٥٠

(٤) مداراة الناس ج١/ص٤٨

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج٦/ص٣٢٣

هو حسن الظنّ بهم ، فعلينا أن نأخذ بالظاهر والله يتولى السرائر ، فلا يعلم الأنفس إلاّ فاطرها ، ولا يعلم خفايا القلوب إلاّ خالقها .

١٢- المسارعة إلى التكفير :

من غير توثقٍ أو برهانٍ ، فباطنُ الناس موكولٌ إلى الله ﷻ الذي يعْلَم السرّ وأخفى . ولا يجوز لنا أن نَبني حُكمًا على أحدٍ بمجرد الظن ، قال الحقّ ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات١٢) فصفاء السريرة وإحسان الظن مطلبٌ أساسيٌ في الحكم على النّاس قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء ٩٤) . فلو أظهر إنسانٌ الإسلام ونطق بالشهادتين مثلا ، فإنّه لا ينبغي لأحدٍ أن يحكم عليه بخلاف ما أظهر على سبيل الظنّ لا اليقين ، ثم يُرتّب الأحكام عليه وِفقًا لما حكم عليه بالكفر أو الردّة ، فهذا لا يجوز؛ لأنّ الله تعالى قد عصم دمه وماله وعرضه بعد النطق بالشهادتين . يقول النبيﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلاّ الله وَأن مُحَمدًا رسولُ اللهِ

وَيُقِيمُوا الصلاةَ وَيُؤْتُوا الزكَاةَ ، فإذا فَعَلُوا ذلك عَصَمُوا مِنّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلاّ بِحَقّ الإسلام ، وَحِسَابُهُمْ على اللهِ" [1]. لذلك أنكر النبي ﷺ بشدةٍ على فعل أسامة بن زيد رضي الله عنه حين قتل رجلا في المعركة بعد أن نطق بالشهادة . والحادثة يرويها بقوله : "بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلاّ الله ، فكفَّ عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي : يا أسامة ، أقتلته بعدما قال لا إله إلاّ الله؟ قلتُ يا رسول الله إنّما كان مُتعوّذًا ، فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلاّ الله ؟ قال فما زال يُكرّرها علي حتى تمنيت أنّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم".

وفي رواية : قال أسامة : "قلت يارسول الله إنّما قالها خوفًا من السلاح قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا" [2] .

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : "قلتُ يا رسول الله أَرأيتَ إن لقيتُ رجلا من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي فقطعها ، ثم لاذ

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص١٧ ؛ وصحيح مسلم ج١/ص٥١

(٢) الجمع بين الصحيحين ج٣/ص٣٤٢ ؛ ومنهاج السنة ج٤/ص٤٥٣

منّي بشجرة فقال : أسلمت لله ، أفأقتله بعد أنْ قالها ؟ قال رسول الله ﷺ : لا تقتله ، فقلت يا رسول الله : إنّه قطعها ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله؟ فقال رسول الله ﷺ : لا تقتله فإن قتلته فإنّه بمنزلتك قبل أنْ تقتله وإنّك بمنزلته قبل أنْ يقول كلمته التي قالها" [١].

يقول الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه :"ما عِنْدَنَا شَيْءٌ إلاّ كِتَابُ اللهِ وَهَذِهِ الصحِيفَةُ عن النبي ﷺ " ثم قال : " ذِمّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ فَمَنْ أَخْفَرَ -أي غَدَرَ- مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالناسِ أَجْمَعِين ، لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ" [٢] . ويقول ابن حجرٍ - رحمه الله- : "إنّ أمور النّاس محمولةٌ على الظاهر ، فمن أظهر شعار الدين أُجريت عليه أحكام أهله ما لم يَظهر منه خلافُ ذلك"[٣] فلا يجوز تكفير المسلم وإخراجه من الإسلام إلاّ أنْ يأتي بأمرٍ مُكفرٍ أو مخرجٍ عن الملـّة ، فيبقى الحكم على الأصل الذي بُنيَ عليه. فالذي يعنينا هو ظاهر النّاس ، أمّا ما دون ذلك فليس من تخصصنا ، ومن حُسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه كما أخبر النبي

---

(١) منهاج السنة النبوية ج٤/ص٤٥٣

(٢) صحيح البخاري ج٢/ص٦٦١

(٣) فتح الباري ج١/ص٤٩٦

ﷺ [1] . ومع ذلك نجد بعض المغالين والمتطرفين لا يترددون في إصدار الأحكام ، حتى لو شملت تكفير المسلمين من غير مسوغاتٍ شرعيةٍ تُبيح لهم هذا الأمر ؛ لذلك فإنّ الفكر التكفيري يُعد من أخطر مظاهر التطرّف ، وأصحابُه من أكثر الجماعات تطرفًا ، فهم يُسارعون الخطى إلى تكفير الناس وتبديعهم بمجرد الظن أو ظاهر قولٍ أو فعلٍ يمكن تأويلُه وصرفُه إلى ما فيه حسن الظن بالمسلم ، ويُسقط بذلك عصمة الآخرين ويستبيح دماءهم وأموالهم ، ولا يرى لهم حرمةً ولا ذمةً . يقول الإمام الطحاوي -رحمه الله- : "لا نُكفّر أحدًا من أهل القبلة بذنبٍ ما لم يستحلّه" [2]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن النّصوص الشرعية قد حملت تحذيرًا شديدًا من تكفير المسلم ، أو رمْيه بالنفاق أو ما شابه ذلك ، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : "إذا قال الرَّجُلُ لأَخِيهِ يا كَافِر فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا" . وقال ﷺ: "لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتلِهِ" . ولمّا اتّهم عمر بن الخطاب ﷺ حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ بالنّفاق ، قال له النبي ﷺ:

---

(١) سنن الترمذي ج٤/ص ٥٥٨ ؛ وسنن ابن ماجه ج٢/ص١٣١٥

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ج١/ص٣٥٥

"وما يُدْرِيكَ لعلَّ اللهَ قد اطّلَعَ إلى أَهْلِ بَدْرٍ فقال قد غَفَرْتُ لَكُم" [1] .

وعن جَابِر بن عبد الله ﷺ "أنّ مُعَاذَ بن جَبَلٍ ﷺ كان يُصَلّي مع النبي ﷺ ثم يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلّي بِهِمْ الصلاةَ ، فَقَرَأَ بِهِمْ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوّزَ رَجُلٌ فَصلى صَلاةً خَفِيفَةً فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا فقال إنّه مُنَافِقٌ فَبَلَغَ ذلك الرجُلَ فَأَتَى النبي ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللهِ إنّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا وَإن مُعَاذًا صلّى بِنَا الْبَارِحَةَ فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ فَتَجَوّزتُ فَزَعَمَ أنّي مُنَافِقٌ فقال النبي ﷺ يا مُعَاذُ ، أَفَتّانٌ أنت -قالها ثَلاثًا- اقْرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وسَبِّح اسْمَ رَبكَ الأعلى وَنَحْوَهَا" [2].

وكان الخوارج أوّل من أظهر التكفير ، فكفّروا المسلم بالذنوب واستحلوا دمه وماله . يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله - : "يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا فإنّ ذلك أوّل بدعةٍ ظهرت في الإسلام، فكفّر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم" [3] .

---

(١) أنظر هذه الأحاديث الثلاثة في : صحيح البخاري ج٥/ص٢٢٦٤

(٢) صحيح البخاري ج١/ص ٢٤٩ ؛ وصحيح مسلم ج١/ص٣٣٩

(٣) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ج١٣/ص٣١

ومع ذِكْر كلّ ما سبق ، ينبغي التوضيحُ على أنّه لا يُمنَعُ إسقاط حكم التكفير على مستحقيه ، وبالأخصّ الذين ثبت كفرُهم بدلالةٍ قطعيةٍ لا ظنيةٍ، وإلاّ اختلط الحقّ بالباطل ، وتمازج أهل الإيمان بأهل الكفر في أوساط الأمّة ، من دون مفاصلة بين الكفر والإيمان ، أو بين الخير والشر ، خُصوصًا وأنّ الله تبارك وتعالى قد حكم بالكفر على كثيرٍ من خلقه ، إمّا بسبب عقائدهم الباطلة أو بسبب أعمالهم المؤدية إلى الكفر. قال ﷻ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران ٨٥ و٨٦) وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ (آل عمران٩٠) فكان الحُكم عليهم بالكفر بعد الشهادة لهم بالإيمان. وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء ١٥٠ و ١٥١) والتأريخ يشهد على وجود أمثال هؤلاء في كل زمانٍ ، وهم أصحاب أنصاف

الحلول . وفي موطن آخر حَكَمَ اللهُ ﷻ بالكفر أو بالظُّلم أو بالفسوق على من لم يحكم بشرع الله فقال ﷻ : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة ٤٤) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ٤٥) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة ٤٧) .

١٣- اختلال في فقه الأولويّات في الأمر والنّهي :

فتجد بعض النّاس يُقيمون الدنيا ولا يُقعدونها على أمورٍ اتّسع فيها الخلاف ، وكثر حولها الجدل ، وتعددت فيها الآراء ، ثم بعد ذلك يصدرون أحكامهم القاسية حتى يشعر المرء أنّه ارتكب الكبائر التي لا تُغتفر ، ووقع في الموبقات الموجبة للهلاك . وبهذا فقد نسي هؤلاء أنّ الأمّة قد عطّلت أحكام الدين ، وتضاءل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأولوياته الصحيحة ، وانتشر فيها الزنا ، وشُربت فيها الخمور ، وطغى حكّامها ، وضلّت فيها العامّة، وانتُهك حمى الدين ، وسادت الفرقةُ والتمزقُ حياةَ المسلمين ، وشُوِّهت العقيدة ، وما إلى ذلك من الأمور التي يصعب حصرُها أوعدُّها . كم من كبيرةٍ عمَّت في ممارسات الأمة ولا رادعَ لها ، وظهرت في أفعال الناس ولا مُنكرَ لها ، وكم وكم ؟

لقد سادت العلمانية حياتَنا الثقافية والفكرية ، وانتشرت المذاهب الهدامة ، ونخرت الفرق الضالة في جسد الأمة ، وتفاقمت الفتنُ حتى باتت حياة المسلمين في خطرٍ ، فقُتل من قتل ، وعُذّب من عذّب ، وهُجّر من هُجّر ، حتى علت صرخة المظلوم الذي لايجد له نصيرًا من البشر ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم ٥٨) بل هي رِدَّةٌ ولا أبا بكر الصديق لها ، ومحنةٌ ولا أحمد لها !! ومن فقه الأولويات أنْ يكون الاهتمام بتغيير الكبائر قبل الصغائر ، والأحكام المتفق على تحريمها قبل المختلف عليها ، ولا يجب أن نستغرق جهدنا ووقتنا في صغار الذنوب قبل كبيرها ، بل يلزمنا أولاً التركيز على تعليم النّاس سلامة الاعتقاد ، وأداء الفرائض ، واجتناب الكبائر ، قبل الدخول معهم في فعل المستحبات واجتناب المكروهات . فعلى سبيل المثال : كم سمعنا من صوتٍ ونحن نعيش في مجتمعات الغرب ، يُنكر على النّاس أكل اللّحوم التي ذُبحت من قِبل أهل الكتاب ، ونعلم بأنّ أكلها قد أفتى بحله عددٌ كبير من العلماء قديمًا وحديثًا ، ثم نجد نفس الأصوات تتساهل في ارتكاب المحرمات وبيع المحظورات تحت ذريعة الواقع المفروض عليهم وفي هذا تناقضٌ في الأحكام وخللٌ في الطاعات .

١٤- تقنيط النّاس من رحمة الله :

وذلك بسبب خلل في فهمهم لآيات الرحمة وآيات العذاب ، وبين آيات الترغيب و الترهيب ، وبين آيات الوعد و الوعيد . فيبعد الناس عن التوبة والاستغفار لقنوطٍ يُصيب قلوبهم جرّاء هذا الأسلوب الذي يُنفّر ولا يُبشر، فأين نحن من قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر ٥٣) . يقول ابن كثير - رحمه الله - : "هذه الآية الكريمة دعوةٌ لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبارٌ بأنّ الله يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها ، مهما كانت ، وإنْ كثرت وكانت مثل زبد البحر . ولا يصح حمل هذه الآية إلى غير توبةٍ ، لأنّ الشرك لا يُغفر لمن لم يتب منه" [١] .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّه قال : "إنَّ نَاسًا من أَهْلِ الشّرْكِ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا ثُم أَتَوْا مُحَمدًا ﷺ فَقَالُوا إنَّ الذي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ وَلَوْ تُخْبِرنا أنّ لِمَا عَمِلْنَا كَفارَةً ، فَنَزَلَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (تفسير الآية ٥٣ من سورة الزمر)

قوله تبارك تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلاّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان ٦٨-٧٠) قال ابن عباس ﷺ: "من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد بكتاب الله"[١] .

ويقول الحقّ ﷻ : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إِلاّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء ١٤٥ و ١٤٦). وفي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (البروج ١٠) يقول الحسن البصري - رحمه الله - : "انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة" [٢] . وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "وَالذِي

---

(١) المصدر السابق

(٢) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة البروج ، آية ١٠)

نَفْسِي بيده لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لهم" (١) .

ولا يسعنا في ظلال كلّ هذه النصوص أن نسدّ باب التوبة بوجه عبْدٍ أقبل على الله ﷻ وطرق بابه ، مهما بلغت ذنوبه ، فإنْ أراد العودة إلى الله والتوبة بين يديه ، فلا أحد يستطيع أن يحول بينه وبين ربّه .

(١) صحيح مسلم ج٤/ص٢١٠٦

الفصل الثاني

أمثلة عن التطرّف (أحداث ووقائع)

المبحث الأوّل : التطرّف على مستوى الأفراد

المبحث الثاني : التطرّف على مستوى الجماعات

المبحث الثالث : التطرّف على مستوى القادة والحكام

المبحث الرابع : تطرّف أتباع الأديان السابقة

المبحث الخامس : تطرّف أهل البدع والأهواء

المبحث السادس : إخبار النبي ﷺ عن تطرفٍ قادمٍ

تقديم

إنّ التطرّف بعمومه هو سلوك بشريّ خاطىء ، تتنوّع صوره وتتباين أشكاله من عصر لأخر ، ومن مكان لمكان ، وله آثار اعترضت حياة النّاس بين الماضي والحاضر بأشكاله وأنواعه ، سواء ما يظهر في أهل الكفر والضلال أو في أتباع الأديان ، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات ، أو على مستوى القادة والحكّام، أو في أهل الملل والنِّحل، وأنّه لا علاقة له بأصل الدّين حتّى وإنْ وُجدت بعض مظاهره في ممارسات بعض المنتمين له .

ومن المعلوم لدى الباحثين بأنّ التطرّف نتج عن جُملة اعتقادات وممارسات خاطئة لجأ إليها بعضُ الناس منذُ القديم نتيجةً لأمراض اجتماعية أو نفسية أو سياسية أو اقتصادية ، ومع ذلك فإنّ صفةَ التطرّف التصقت في زماننا بأهل التديّن ، وبالأخصّ بأتباع الدّين الإسلامي ، فأصبحت مدار اتهام المسلمين ، وفي ذلك ظلم وجور ؛ لأنّ الحالات الفرديّة التي يمارسها بعض المنتمين للدّين لا تمثّل الوجهة في الدّين ، وإنّما هي بسبب الفهم الخاطىء له ، أو بسبب ردّة فعل من حدث أو موقف مستفزّ ، أو بسبب تمرّد على واقع مرير .

والتطرف هو داء اجتماعي لا يتوقف عند مجموعة بشرية معينة ، ولا يحدّه دين بعينه ، فتجده ظاهرة ومسلكا قد يقع في أهل التديّن أو في غيرهم ، كما تجده في الحاكم والمحكوم ، وفي الفقير والغني والصغير والكبير. وفي المقام الأوّل هو أزمة أخلاقيّة إجتماعيّة فإن نُسبت للدّين فذلك بسبب انحراف الأتباع في مسلك التديّن .

ومن مساوئ المعالجين لظاهرة التطرّف هو تركيزهم على جانب التشدّد دون الاكتراث بظاهرة التسيّب والانحلال ، والتي قد تكون هي المسبّب الأوّل لردود الفعل لدى المتطرفين .

المبحث الأوّل

التطرّف على مستوى الأفراد

وهنا أتحدّث عن المظاهر الفرديّة التي نتجت عن سلوك سلبي في ممارسات الأفراد ، نتيجة لعوامل عدّة ، منها الحسد والكيد ، أو العداء المتعاظم لدين الله ، أو نتيجة للخلط في المفاهيم والتصورات، أو التأثّر الشديد بالأشخاص أو بالمدارس الفكرية. ومن الأمثلة على ذلك :

١- قتل أحد ابني آدم لأخيه :

إنّ قصّة ابني آدم (قابيل وهابيل) [١] من القصص الغريبة والمثيرة ، فهي واقعة مُؤلمة حدثت منذ بداية وجود الإنسان على وجه الأرض ، فلم تَحُلْ نبوة آدم عليه السلام دون وقوع الجريمة في أولاده، لكنّها وقعت بدافع الغيرة والحسد . وتبدأ جريمة القتل بسبب القربان

(١) وهما الاسمان الذان تعارفا عليهما النّاس ، وتسميتهما بذلك هو ما يذهب إليه معظم أهل التفسير والتأريخ .

الذي تقدّم به كلّ منهما لله ربّ العالمين [1] ، فتُقبّل من واحد منهما ولم يُتقبّل من الآخر ، ممّا أثار غضبه، وأشعل نار الحسد في قلبه ، حتّى وقع ما وقع منه . يقول الحقّ ﷻ : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة ٢٧-٣١) وقصّة القتل هذه [2] جاءت في سورة المائدة بعد حديث طويل عن أفعال بني إسرائيل

---

(١) القُربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ﷻ . ولا داعي للخوض في التفصيلات التي ساقها المفسّرون لبيان ما هيّة القربان ، والكيفيّة التي تمّت بها ، ونكتفي بذات القدر الذي اكتفى به الحقّ سبحانه وتعالى في خطابه القرآني .

(٢) راجع تفصيلات القصّة في البداية والنّهاية لابن كثير ٢١٦/١ ، وفي تفسيره لسورة البقرة ، الآيات (٢٧-٣١)

(أتباع موسى عليه السلام) الذين أتعبوا نبيّهم ، وخالفوا أمر ربّهم ، فكانت نهاية مسيرتهم الطويلة مع رسولهم أن قالوا له : ﴿فَاذهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة ٢٤) الأمر الذي جعل موسى عليه السلام يرفع شكواه إلى ربّه من هول ما قاساه وعاناه منهم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة ٢٥) فجاء العقاب من الله جل جلاله من جنس أفعالهم ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة ٢٦) وبعدها مباشرة جاء ذكر قصّة ابني آدم بالحقّ.

وفي قصّة القتل الذي وقع في ابني آدم عليه السلام تتباين المواقفِ بين جهتين :

الأولى : تمثل الاعتدال وضبط النفس ، حيث أثّرت خشية الله في سلوكها فكان التعقّل والاعتدال من ثمارها ، وفي ذلك رَدٌّ على من يتهم التديّن بأنه سببٌ للتطرّف والمغالاة .

الثانية : تمثل التطرّف والمغالاة ، وهو سلوك عدواني دفع بصاحبه إلى ارتكاب جريمة القتل ، وإلاّ فما ذنب الأخ الذي تُقبّل منه ؟ فهو في طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته ، بل قدّم قربانا لربّه عز وجل لينال رضاه ، وقبول القربان أو عدمه موكول لله تبارك وتعالى .

يقول سيّد قطب في تفسيره : " فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه ، وليجيش خاطر القتل في نفسه ! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال ، مجال العبادة والتقرب ، ومجال القدرة الغيبية الخفية التي لا دخل لإرادة أخيه في مجالها ﴿قال لأقتلنّك﴾ وهكذا يبدو هذا القول - بهذا التأكيد المنبىء عن الإصرار - نابياً مثيراً للاستنكار لأنه ينبعث من غير موجب ؛ اللهم إلاّ ذلك الشعور الخبيث المنكر . شعور الحسد الأعمى ؛ الذي لا يعمر نفساً طيبة ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة وخسر آخرته فباء بأثمه الأول وإثمه الأخير."[1]

وهكذا تبدو صورة التطرّف بأعلى مراتب الجرم والبشاعة ، فالأصل أنّ الأخ يحفظ أخاه ولا يقتله ، ويعينه ولا يخذله ، ولكنّ الشرّ في الإنسان يقلب الموازين ، ويحطّم القيم ، ويجعل من الإنسان وحشا كاسرا لا يهدأ باله إلاّ بقتل فريسته ، وتمزيق جسدها. إنّ في فعلة ذلك الظالم ، مظهر شنيع من مظاهر التطرّف في السلوك البشريّ ، فلم يكن اعتداءً على نفس واحدة ، بل هو على

(١) في ظلال القرآن، سيّد قطب، تفسير سورة المائدة ، الآية ٢٧ - ...)

جنس النفس البشريّة ، فحينما أزهق نفسا بريئة بغير حقّ ، فكأنّها أزهق جميع الأنفس ؛ لأنّه بفعلته تلك فتح لغيره طريق الشرّ ، وسنّ لهم سنّة القتل ، قال الحقّ ﷻ : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة ٣٢) وقال النبيّ ﷺ : "لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلا كان على ابن آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ من دَمِهَا لأنهُ كان أَوَّلَ من سَنَّ الْقَتْلَ" [١] . وقال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- : "إنّا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النّار قسمة صحيحة ، العذاب عليه شطر عذابهم " [٢]

٢- خيانة امرأتي نوحٍ ولوط (عليهما السلام) :

قصة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام من القصص الغريبة في القرآن الكريم ، فالعبرة فيهما بالغة ، والحجّة دامغة ، واليقين راسخ بميزان الله تعالى في حكمه على عباده ، فما أغنى كلّ منهما أنّهما كانتا تحت ظلال نبيّين صالحين من عباد الله . يقول الحقّ ﷻ:

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص٤٣١ ؛ وصحيح مسلم ج٣/ص١٣٠٣

(٢) تفسير ابن كثير ج٢/ص٤٦ ؛ وأخرجه ابن جرير والبيهقي في شعب الايمان (أنظر الدر المنثور ج٣/ص٦٢)

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم ١٠) فلا محاباة لأحد على حساب منهج الله، وهذا الميزان متكرر الحدوث في حياة الرّسل ، فنبي الله نوح عليه السلام لم يستطع أن يقدّم لابنه شيئا بعد أن أعرض ولده عن الإيمان بالله جل جلاله ، ومع أنّه دعا ربّه لأجل نجاته ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود ٤٥) لكن يأبى الحقّ سبحانه وتعالى أن يستجيب لنبيّ مقرّب لأجل منجاة كافر عدوّ لله جل جلاله ، فكان الجواب من عند الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود ٤٦) . كما أنّ نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يملك لأبيه من الأمر شيئا ، لأنّ الله تبارك وتعالى لم يشأ له الهداية ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٤) . وفي المثالين السابقين تقابل عجيب ، والدٌ هو نبي من أوّل رسل الله الكرام ، وولد عاق غرق في بحر الكفر والضلال فكان من المغرقين الهالكين ، وفي المثال الثاني : ولد

كان من أعظم الرّسل عند الله ، بل هو أبو الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم ، وأبٌ كان عدوّا لله ، بل كان صانعا للأصنام التي تُعبد من غير الله . فوا عجبا لأقدار الله كيف تمضي في حياة العباد !! وحتّى النبي محمّد ﷺ (سيّد الخلق وحبيب الحقّ) لم يستطع أن يملك لوالدته شيئا ، ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى [1] وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ ، فَقَالَ: "اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي ، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي ، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ" [2] وكذلك ما استطاع أن يشفع لعمّه أبي طالب، ولا أن يجلب له الإيمان ؛ لأنّه ﷺ لا يملك هداية التوفيق ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص ٥٦) ولا يملك له الاستغفار؛ لأنّه محكوم بميزان الله وناموسه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة ١١٣) فلا شفاعة لقرابة أو نسب ، ولا

---

(١) يرى بعض العلماء أنّ بكاؤه ﷺ على أمّه لأجل ما فاتها من ادراك أيامه والايمان به . (أنظر : شرح النووي ج٧/ص٤٦)

(٢) صحيح مسلم ج٢/ص٦٧١

محاباة لأحد على حساب العقيدة ، وأجلّ ما فيها بعد توحيد الله ﷻ هو الولاء والبراء ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : "يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ : اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللهِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللهِ ، يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ : اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنْ اللهِ ، لا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنْ اللهِ شَيْئًا ، سَلانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا" [1] . وعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - قَالَتْ : "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ قَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَال : "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِب: لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُم " [2]. ولله درّ الشاعر إذ يقول :

لَعَمْرُكَ مَا الإنسَانُ إلاّ بِـدِينِهِ

فَلا تَتْرُكِ التَّقْوَى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبِ

لَقَدْ رَفَعَ الإسْلامُ سَلْمَانَ فَارِسٍ

وَقَدْ وَضَعَ الشركُ النسيبَ أَبَا لَهَبِ [3]

---

(١) صحيح البخاري ج٣/ص١٢٩٨ ؛ وصحيح مسلم ج١/ص١٩٢

(٢) صحيح مسلم ج١/ص١٩٢

(٣) جامع العلوم والحكم ج١/ص٣٤٨

ومن هنا كان حكم الله على زوجَتَي نوح ولوط عليهما السلام ﴿وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فجاء لفظ (مع الداخلين) للمساواة في استحقاق العذاب مع غيرهما .

وجاء ذكر إمرأة نوح في سورة التحريم ، وجاء الخبر عن هلاكها في سورة هود ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود ٤٠)، وفي سورة المؤمنون : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون٢٧) ومن سبق عليه القول في الآية هم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته . [١]

أمّا امرأة لوط فقد ورد ذكر هلاكها في مواطن عدّة في القرآن الكريم، قال الحقّ ﷻ : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ لأنّها كانت للوط خائنة وبالله كافرة. [٢] وقال تعالى :

---

(١) أنظر: تفسير ابن كثير ج٣/ص٢٤٥

(٢) تفسير الطبري ج٨/ص٢٣٦

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُون ۞ قالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۞ إِلاّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب﴾

لقد أنعم الله عليهما بنعمة عظيمة يوم أن جعلهما زوجتين لنبيّين عظيمين من أنبيائه ، فمن الغرابة أن يقعَ مثل هذا السُلوك المتطرّف والغريب من امرأةٍ عاشت في بيت رسولٍ كريمٍ ، فزوجة نوح عليه السلام خانت زوجها بجحودها لرسالته وتكذيبها له كما أخبر أهل العلم بذلك ، ولعلّ زواجه منها كان قبل النبوة والرسالة ، وأمّا امرأة لُوطٍ عليه السلام فقد كانت تُناصرُ القومَ الذين شذوا بأفعالهم عن الفطرة البشرية وعن النواميس المعتادة ، وهذه مُفارقةٌ عجيبةٌ ، نبيٌّ في أعلى عِلِّيِّينَ وزوجته في أسفل سافلين . ذلك ليعلم الناسُ أنْ لا محاباة لأحدٍ على حساب نواميس الله التي تجعل جميع الخلق يقفون سواسيةً أمام العدل الإلهي .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خيانة امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانت خيانةً في الدعوة ولم تكن خيانةَ الفاحشة ، يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : "ما بغت امرأةُ نبيٍّ قط ، إنّما كانت خيانتُهما في الدّين" (١) .

٣- عصيان ابن نوح عليه السلام لأبيه :

وهو موقفٍ متطرفٌ غريبٌ ، ومثالٌ واضحٌ في العناد والعقوق ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود ٤٢ و ٤٣) . وفي هذه الأجواء الرهيبة القاهرة ، يبحثُ نوحٌ عليه السلام عن أحد أولاده فلا يجده معه ، فقد كان ابنه في عالمٍ آخر ، مع من كفر بدعوة أبيه وحقّت عليهم كلمةُ العذاب ، إنّها مأساةُ أُبُوَّةٍ يُقابلُهَا جُحودُ وعُقُوقُ بُنُوَّةٍ ، فالأبُ يُدرِكُ حقيقةً مُستقرةً في قلبه المتيقن بوعد الله ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاّ مَنْ رَحِمَ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤/ص٣٩٤

ويُقابل هذه الحقيقة غباءُ ابنه في تقدير الموقف وجهلُه بمكنونات أقدار الله ﴿قالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فقد غابت عن ابن نوحٍ حقيقةٌ لا يُدركها إلاّ أهلُ الإيمان واليقين ، فالبحر بهيجانه، والجبال بشموخها ، بل الوجود بأسره مُعَبَّدٌ لله وخاضعٌ لأوامره ، وكلّ ما في الوجود يتساند لتنفيذ أمرِ اللهِ، قال ﷻ : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (عمران٨٣) وهنا ينطلق نداءُ الأب المكروب المدرك لحقيقةٍ قادمةٍ على ولده الذي سيكون فريسةً من فرائسها ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود ٤٢) وهذه الحقيقة التي واجهها نوح ﷺ تُذكرنا بما قاله الشاعر :

لقد أسمعتَ لو نَادَيتَ حيًّا . . . ولكن لا حَيَاةَ لمن تُنَادِي

ولو نارًا نَفَختَ بِهَا أَضَاءت . . . ولكن أنتَ تنفُخُ في رَمَادِ [1]

إنّه موقفٌ مُتطرفٌ من ولدٍ غرق في العناد وأطنب في العقوق، وركب موجةَ الجهل والحماقة فتجاوزَ نداءَ والده الرحيم به

---

(١) النجوم الزاهرة ج١٦/ص١٦٠ .

والمشفق عليه ، ولم يفهم حقيقةَ السُّنَنِ الإلهية الجارية على العباد ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود٤٤) والتي مضت على أهل الظلم والفساد بأنّ هلاكهم قادم لا محالة ، وليس عنهم ببعيد ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود ٨٣)

٤ ـ أمثلة عن تطرف بعض الأفراد في العهد النبوي :

لقد حوت السيرةُ النبويةُ أحداثًا كثيرةً أظهرت جانبًا من سلوك بعض أصحاب رسول الله ﷺ وكشفت عن بعض الممارسات المغالية التي احتاجت إلى تعديل وتصحيح وتوجيه من رسول الله ﷺ ، ويبدو أنّ هذا النوع من التطرّف في السلوك الديني أو التعبدي نتج عن خلل في فهم النصوص أو في فقه الأحداث . ومن بين تلك المواقف نذكرُ ما يلي :

أ ـ عن جَابِر بن عبد اللهِ ﷺ أنّ مُعَاذَ بن جَبَلٍ ﷺ كان يُصَلِّي مع النبي ﷺ ، ثُم يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمْ الصَّلاةَ ، فَقَرَأَ بِهِمْ الْبَقَرَةَ ، قال : فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلى صَلاةً خَفِيفَةً فَبَلَغَ ذلك مُعَاذًا فقال : إنّه مُنَافِقٌ ، فَبَلَغَ ذلكَ الرَّجُلَ ، فَأَتَى النبي ﷺ فقال: يا رَسُولَ اللهِ ، إنّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا وَإنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ

فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ فَتَجَوَّزْتُ ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ . فقال النبي ﷺ : يا مُعَاذ أَفَتَّانٌ أنت (قالها ثَلاثًا) اقْرَأْ "وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا" و"سبّح اسْمَ رَبّكَ الأعلى وَنَحْوَهَا" [1] . وصيغة اللفظ (أَفَتَّانٌ أنت) مع تكرارها ثلاثا، فيه توكيد من النبي ﷺ على أمر التيسير على العباد لا التعسير والتشديد .

ب - عن أبي مَسْعُودٍ الأنصَارِيِّ رضي الله عنه أنّ رجلا قال : يا رَسُولَ اللهِ ، لا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلاةَ مِما يُطَوِّلُ بِنَا فُلانٌ ، فما رأيت النبي ﷺ في مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا من يَوْمِئِذٍ ، فقال : أيُّها النَّاسُ إنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صلّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فإنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ" [2] وفي روايةٍ : "قال يا رسول الله ، والله إنّي لأتأخر عن صلاة الغداة مما يُطِيلُ بنا فيها فلانٌ ." [3] . فالنفوس السويّة جبلت على حبّ التيسير، لأنّه يتناسب مع ظروف العباد واختلاف أحوالهم، فليس من المرغوب أن تشقّ على النّاس وتعسّر عليهم الأمر حتّى وإن كنت في عبادة أو طاعة .

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص٢٤٩ وصحيح مسلم ج١/ص٣٣٩

(٢) صحيح البخاري ج١/ص٤٦ حديث (٩٠) ؛ وصحيح مسلم (٤٦٦)

(٣) سنن الدارمي ، كتاب الصلاة ، حديث رقم (١٢٥٩)

ج - عن ابن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قال : "قال رسولُ اللهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وهو على نَاقَتِهِ : الْقُطْ لي حَصًى ، وذلك لرمي الجمرات في مِنى أيّام الحج ، فَلَقَطْتُ له سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ - أي الحصى الصغيرة - فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ في كَفِّهِ وَيَقُولُ : أَمْثَالَ هَؤُلاءِ فَارْمُوا ، ثُم قال: يا أَيُّهَا النَّاس ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فإنما أَهْلَكَ من كان قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ في الدينِ" (١). وفي رواية قال النبيﷺ : "هلك المتنطعون" وكررها ثلاثا (٢) . وفي اللفظ وتكراره ترهيب من الفعل ، خصوصا إذا كان ذلك سببا في هلاك من سبق من غلاة أتباع الأديان ، لأنّ الله ﷻ أراد اليسر بعباده ، وهذا يتناسب مع طبيعة الدّين الذي أمر الله به رسله .

د - عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ أنَّه أخبر عن رجلٍ اعترض على قسمةِ رسول الله ﷺ فقال : "يا رَسُولَ اللهِ اتقِ الله ، فقال له النبي ﷺ : وَيْلَكَ أو لستُ أَحَقَّ أَهْلِ الأرض أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ ، ثُم وَلَّى الرجُل ، قال خَالِدُ بن الْوَلِيدِ : يا رَسُولَ اللهِ ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ ؟ قال: لا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي، فقال خَالِدٌ : وَكَمْ من مُصَلٍّ يقول بِلِسَانِهِ ما

---

(١) سنن النسائي رقم الحديث (٣٠٥٧) ؛ وابن ماجه (٣٠٢٩) واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم ، حديث (٢١٧٠) ؛ وسنن أبي داود، حديث (٤٦٠٨).

ليس في قَلْبِهِ ، قال رسول الله ﷺ : إنّي لم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوب النَّاسِ ولا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ ، قال: ثُم نَظَرَ إليه وهو مُقفٍ فقال : إنَّه يَخْرُجُ من ضِئْضِئِ هذا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا لا يجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرمِية. قال أبو سعيد : أظنّه قال: لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُود"(١).

وفي رواية عنه رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : "يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مع صَلاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مع صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ ويقرؤون الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيةِ" (٢) .

(١) صحيح البخاري ج٤/ص١٥٨١ ؛ وصحيح مسلم ج٢/ص٧٤٢

(٢) صحيح البخاري ج٤/ص١٩٢٨

المبحث الثاني

التطرّف على مستوى الجماعات

سواء كانوا من أهل الكفر والجحود الذين حاربوا أصحاب الحقّ بكيدهم وبمكرهم ، أو من أهل التديّن الذين خرجوا عن جادّة الصواب ، فظهر الخلل في أدائهم أو في أهدافهم وبرامجهم ، فقد تحملُ بعض الجماعات فِكرًا مُشتَبِهًا أو مبادئ مغلوطةً أو منحىً بعيدًا عن الوسطية والاعتدال ، وينتُجُ عن ذلك تطرّفٌ واضحٌ في التعامل مع النّاس ، ويظهر أثره في المواقف المختلـّة في معالجة الأمور أو في مواجهة الأحداث.

ومن الأمثلة على تطرّف الجماعات:

١ - تطرّف قوم ثمود :

لقد حدَّث القرآنُ الكريمُ عن صُورةٍ مُشينةٍ لتطرّف بعض الأقوام الذين جاءتهم رسالةُ الله فجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم عُلوًّا وكِبرًا، وهم قومُ ثمودٍ الذين أرسل الله تعالى إليهم نبيّه صالح عليه السلام ، وجاء الحديثُ عن جحودهم وهلاكهم في مواطن عديدةٍ من القرآن

الكريم . وفي تعدّد مواطن الذكر للقصة دليلٌ على أهميتها لتكون تذكرة للعباد بأن لا يجحدوا بآيات الله ، لأن العقاب الإلهي أمرٌ حاصلٌ بسننه التي لا تتبدل ولا تتغيّر ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ (الأعراف٧٣) وقصّة النّاقة نذكرها كما وردت في كتب التفاسير :

كان قومُ ثمودٍ من أحياء العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانوا بعد عاد ، ومساكنُهم مشهورةٌ فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى وما حوله ، وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآيةٍ ، واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرةٍ صماءٍ عيّنوها بأنفسهم ، وهي صخرةٌ منفردةٌ في ناحية الحِجْرِ يقال لها "الكاتبة" وطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقةً عشراء تَمْخَضُ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به ولَيَتَّبِعنَّهُ ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزَّ وجل ، فتحركت تلك الصخرةُ ثم انصدعت عن ناقةٍ جَوْفاء وَبْرَاء يتحرك

جنينُها بين جنبيها تمامًا كما سألوا ، فأقامت النّاقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مُدَّةً تشرب ماء بئرها يومًا وتدعه لهم يومًا ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملئون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (الشعراء ١٥٥) فلمـّا طال عليهم الأمدُ واشتد تكذيبُهم لنبي الله صالح عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يومٍ . وفي النهاية نفذوا وعيدهم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس١٤ و ١٥) فلمّا فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، بلغ الخبرُ صالحًا عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون ، فلمّا رأى الناقة بكى وأنذرهم وعيد الله عزّ وجل : ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود ٦) ومع ذلك كلـّه ، فإنّهم لم يكتفوا بقتل الناقة بل عزموا على قتل نبي الله صالح عليه السلام ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل ٤٩) فكانت نهايتهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الأعراف ٧٨) صرعى لا أرواح فيهم ، ولم يُفلِت منهم أحدٌ من الهلاك [١] .

---

(١) انظر تفصيلات القصة في تفسير ابن كثير ج٢/ص٢٢٩ - ٢٣١

إنّها صورةٌ مشينة لسلوكٍ جماعي متطرّف ، لا يرضى به العقلاء ولا يقرّه الفضلاء ، يعكس الظلم والجحود والعناد ، فبعد أن أكرمهم الله بخارقةٍ ومُعجزةٍ لها القدسيّة حين نسبها الله تعالى إليه (ناقة الله) لم يمنعهم ذلك من قتلها وعقرها !! .

وكان رسولنا الكريم محمد ﷺ قد مرّ على قُراهم ومساكنهم وهو ذاهبٌ إلى تبوك سنة تسع بعد الهجرة . قال عبد الله بن عُمر - رضي الله عنهما -: "نَزَلَ رسولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاسِ عَامَ تَبُوك نَزَلَ بِهِمُ الْحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُود فَاسْتَسْقَى الناس مِنَ الآبَارِ التي كان يَشْرَبُ منها ثَمُود فَعَجَنُوا منها وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْم فَأَمَرَهُمْ رسول الله ﷺ فَأَهَرَاقُوا الْقُدُورَ وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الإِبِلَ ثُم ارْتَحَلَ بِهِمْ حتى نَزَلَ بِهِمْ على الْبِئْرِ التي كانت تَشْرَبُ منها الناقَةُ وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا على الْقَوْمِ الذِينَ عُذِّبُوا، قال إنّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَهُمْ فَلاَ تَدْخُلُوا عليهم" (١) وفي رواية الإمام البخاري رحمه الله ، أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : "لا تَدْخُلُوا على هَؤُلاءِ الْمُعَذَّبِينَ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لم تَكُونُوا بَاكِينَ فلا تَدْخُلُوا عليهم ، لا يُصِيبُكُمْ ما أَصَابَهُمْ" (٢).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٢/ص١١٧

(٢) صحيح البخاري ج١/ص١٦٧

٢ - تطرّف إخوة يوسف عليه السلام :

تبدأ رحلة المعاناة في حياة نبيّ الله يوسف عليه السلام برؤيا يراها في المنام فيقصّها على أبيه يعقوب عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف ٤و٥). ولا بُدَّ أن يكونَ يعقوب عليه السلام قد عَلِمَ تأويل الرؤيا كما علم قُدرةَ إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، إذ لو قالها يوسف عليه السلام لهم لَفهِمُوا المقصود منها ، ولهذا خشي يعقوب عليه السلام من أن يكيدَ ليوسفَ إخوتُهُ كيدًا فيُصيبوه بمكروهٍ . ومع حرصه عليه السلام على أن لا يصل خبر الرؤيا إليهم لكنّهم علموا بها ، واشتعلت الغيرة في قلوبهم، وتعاظم الشر في نفوسهم ، فكانت ردّةُ الفعلِ عنيفة ومؤلمة. لقد تآمرَ الإخوةُ الكبارُ على أخيهم الصغير ليوقعوا به شرَّ وقيعة من غير أن يرحموا طفولة أخيهم وشيخوخة أبيهم . وبعدها يأتي التخطيط للجريمة ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف ٩) وتختلف الآراء ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (يوسف ١٠) وأيًّا كان الرأي فالنتيجة هي الخلاص من يوسف عليه السلام بالموت أو الإبعاد . فما الذنب الذي

اقترفه؟ وما الجناية التي فعلها حتى يستحق هذا العقاب وهو الصدّيق ابن الصدّيق ابن الصدّيق ؟ لقد شَرَعَ إخوةُ يوسف في تنفيذ المخطط بعد أن استقر الرأي على إبعاده عن أرض كنعان ، وبدأت المؤامرةُ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۞ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف ١١ و ١٢) لكنّ الأبَ الذي اشتعل قلبُه حُبًّا ليوسف ، تخوّف من أن يتركه معهم في رحلةٍ لا يأنس لها ولا يطمئن للقادم منها ، فقد أحسّ بشيءٍ غريبٍ ، فما سرّ هذا الحرصُ المفاجئُ من أخوة يوسف وهذا الإلحاح الغريب ؟ في الوقت الذي كان يشعرُ فيه يعقوب عليه السلام منهم بكراهيةٍ متزايدة تجاه أخيهم يوسف عليه السلام .

وأخيرًا يجيبهم بحذر ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف ١٣) ثمّ يجادلونه ليقنعوه ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ (يوسف ١٤) وذهبوا به بعد أن وافق على مَضَضٍ ، وبعدها وقعت الواقعةُ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف ١٥) عددٌ كبيرٌ من الإخوة يتفقون على تدمير طُفولةٍ بريئةٍ، وتحطيم قلبِ أبٍ

اشتدَّ حُبُّهُ لولده ، كيف نتصور حجمَ هذه الجريمة النكراء ؟ إنّه سلوكٌ مشينٌ ، وتطرفٌ مبغوضٌ ، وحدثٌ ليس له سببٌ إلاّ البغضاء والحسد . وبفعلتهم هذه ، حطّموا قلبَ أبيهم يعقوب عليه السلام على صخرةٍ صمّاء ، وغدروا بأخيهم الصغير يوسف عليه السلام الذي كان أحبّ الناس إلى قلب أبيه ، لِما فيه من جمال خَلْق وحسن خُلُق ، ثُمَّ لِعِلْم يعقوب عليه السلام بما سيئول إليه ولده من الكرامة وذلك باجتباء الله له ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف ٦).

إنّه لأمر عجيبٌ أن يتجاوز الإخوةُ تلك الخطوط الحمراء بسبب حسدهم وغيرتهم التي أعمت بصيرتهم حتى أصبحوا لا يرون فيما يفعلون منكراً أو إثمًا ، بل أخذوا يخطِّطُونَ للتوبة من فعلتهم قبل اقترافها ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف ٩) . وتتقابل الأقدارُ وتتواجهُ الإراداتُ ، فماذا أرادوا وماذا أراد الله عز وجل ؟ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف ١٥) فكان الجب الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام المحطةَ الأولى لتمكينه ، والمنطلق الأول نحو إرادةٍ إلهيةٍ ترسم لهذا الطفل البريء مرحلةً

قادمةً سيَعُمُّ خيرُها أرجاءَ الأرض . وعندما ضاق إخوة يوسف ذرعًا بأخيهم لأن يشاركهم العيش في أرض كنعان ، شاءت إرادة الله ﷻ في أن تكون الأرض الفسيحة تحت حُكمه وأمره ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف ٥٦) نحن نتألم بوقوفنا على الحدث ، كيف يكون الجبُّ نهايةً مؤلمةً ليوسف عليه السلام على أرض كنعان ، في الوقت الذي نحسدُ فيه الجب على أنّه كان رَحِمًا حنونًا ودافئًا لمن اجتباه الله لنبوته ورسالته. ولا أدري أَهِيَ خُلوةٌ ليوسف عليه السلام في الجب ، أم خُلوةٌ للجب مع يوسف عليه السلام ؟ إنّ الوجود ليأنس بالموجود إذا كان مُتصلا بالله ، فالكل مُعَبَّدٌ بين يديه ﷻ وساجدٌ لعظمته وجلاله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (الحج ١٨).

علينا أن لا نحزن في حياتنا إنْ وجدنا ما يُؤذينا فهناك ربٌّ يحمينا ، فالمهم أن نتوكّل عليه ، ونسلّم أمرنا بين يديه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (الفرقان ٥٨). وأخيرا نصل إلى مشهد التضليل والكذب على

الأب المكروب ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۞ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۞ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف ١٦-١٨) صبرٌ على فراق الحبيب، وصبرٌ على كيد القريب، وصبرٌ على قضاء الله وقدره . إنّها بداية الآلام والأحزان ، لفراقٍ طويل ، فكلّ لحظةٍ فيه تعدلُ دَهرًا ، وكلّ ألمٍ فيه يعدلُ عُمرًا، ولا يَسَعُ المؤمنَ إلاّ أنْ يفوّض أمره لله الواحد القهّار ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة ٥١) .

٣- تطرّف قريش مع دعوة النبي ﷺ :

من الغريب أنّ قُريشًا التي ادّعت القيادة الدّينية لأرض الجزيرة وقامت بسدانة الكعبة ، هي نفسها التي وقفت الموقف المخزي من رسول الله ﷺ ومن دعوته . فَمَعَ عُلُوِّ مكانة رسول الله ﷺ في قومه ومقامه الرفيع بين قريشٍ وباقي قبائل العرب ، كلّ ذلك لم يمنعهم من أنْ يتصرفوا معه بطريقةٍ لا تليقُ بمقامه ولا بمقامهم

كأهلٍ وعشيرة ، بل وصل الأمر إلى قيامهم بأفعالٍ مُشينة وأساليب مُتطرّفة لم تألفها العرب في سلوك الكبراء أوالسادة أوالسدنة .

عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ ﷺ قال: "سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بن عَمْرو عن أَشَدِّ ما صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، قال رأيتُ عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ جاء إلى النبي ﷺ وهو يُصَلِّي ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ في عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا فَجَاءَ أبو بَكْرٍ ﷺ حتى دَفَعَهُ عنه ، فقال : أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَنْ يَقُولَ رَبي اللهُ وقد جَاءَكُمْ بِالْبَيِنَاتِ من رَبِّكُمْ" (١) .

وعن عبد اللهِ بن عباس - رضي الله عنهما - قال : "بَيْنَمَا رسولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَجَمْعُ قُرَيْشٍ في مَجَالِسِهِمْ ، إِذْ قال قَائِلٌ منهم : ألا تَنْظُرُونَ إلى هذا الْمُرَائِي ، أَيُّكُمْ يَقُومُ إلى جَزُورِ آلِ فُلانٍ فَيَعْمِدُ إلى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلاهَا فَيَجِيءُ بِهِ ثُم يُمْهِلُهُ حتى إذا سَجَدَ وَضَعَهُ بين كَتِفَيْهِ ، فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ فلما سَجَدَ رسول اللهِ ﷺ وَضَعَهُ بين كَتِفَيْهِ ، وَثَبَتَ النبيُّ ﷺ سَاجِدًا ، فَضَحِكُوا حتى مَالَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ من الضحِك ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إلى فَاطِمَةَ - رضي الله عنها - وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَثَبَتَ النَّبيُّ ﷺ سَاجِدًا حتى

---

(١) صحيح البخاري ج٣/ص١٣٤٥

أَلْقَتْهُ عنه وَأَقْبَلَتْ عليهم تَسُبُّهُمْ ، فلمَّا قَضَى رسولُ اللهِ ﷺ الصَّلاةَ قال : اللَّهم عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ، اللَّهم عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ، اللَّهم عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ. ثُمَّ سَمَّى اللهم عَلَيْكَ بِعَمْرِو بن هِشَامٍ ، وَعُتْبَةَ بن رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بن رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدَ بن عُتْبَة ، وَأُمَيَّةَ بن خَلَفٍ ، وَعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ ، وَعُمَارَةَ بن الْوَلِيدِ ، قال عبد اللهِ : فَوَاللهِ لقد رَأَيْتُهُمْ صَرْعَى يوم بَدْرٍ ، ثُم سُحِبُوا إلى الْقَلِيب (قَلِيبِ بَدْرٍ) ثُم قال رسولُ اللهِ ﷺ : وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ لَعْنَةً" (١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : "قال أبو جَهْلٍ هل يُعَفِّرُ مُحَمدٌ وَجْهَهُ بين أَظْهُرِكُمْ ، قال : فَقِيلَ نعم ، فقال : وَاللاَّتِ وَالْعُزى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذلك لأَطَأَنَّ على رَقَبَتِهِ أولأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ في التُّرَابِ . قال فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وهو يُصَلِّي ، زَعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبَتِه ، قال : فما فَجِئَهُمْ منه إلاّ وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قال : فَقِيلَ له مالك، فقال إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا من نَارٍ وَهَوْلا وَأَجْنِحَةً ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : لو دَنَا مِنّي لاختَطَفَتْهُ الْمَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا . فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ....﴾ (إلى أخر

(١) صحيح البخاري ج١/ص١٩٤ ؛ وصحيح مسلم ج٣/ص١٤١٨

سورة العلق ٩-١٩) " [١] وبعد أن ضاق أهلُ مكة ذرعًا برسول الله ﷺ عزم أنْ ينتقل من الأقرب إلى القريب ، فذهب إلى الطائف ليكسر الحصار المضروب عليه من سادة قريشٍ بغية توسيع جغرافية الدعوة إلى الله، لكنّها لم تأت بالثمرة المرجوة والنتيجة المتوقعة ، فالحق ﷻ أراد لرسوله ﷺ أنْ يعيش التجربة، وأن يكابد ألم النتيجة ليكون أقوى عُودًا وأشدَّ بأسًا في مواجهة الأحداث ، فلا ينبغي الحكمُ على الأحداث استنادًا إلى مظاهرها المجردة عن الحكمة الإلهية من وقوعها ، قال الحقّ ﷻ : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦) .

ومن سنن الله ﷻ أنّ المِنَح الإلهيّة تبقى رديفة المِحَن ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح ٥و٦) فعلى المؤمن أن يتحلّى بالصبر وأن لا يستعجل أقدار الله ﷻ ، فالتمكين والغلبة في النهاية لأصحاب الحق ، وهذا وعدٌ من الحقّ ﷻ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات ١٧١- ١٧٣) لقد وصل رسول الله ﷺ إلى الطائف

---

(١) صحيح مسلم ج٤/ص٢١٥٤

وهو يأملُ بفتحٍ جديدٍ ، لكنّ هول المفاجأة أخذ بالأسماع والأبصار ، فقد قام كبراءُ ثقيفٍ وسادتهم بتسليط السفهاء والصبيان والمجانين من أهل الطائف على رسول الله ﷺ فشتموه وضربوه ، ورجموه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين . كان ذلك تصرفًا مُشينًا وموقفًا مُخزِيًا من طرفهم. وبعدها آوى الحبيب محمد ﷺ إلى حائط بُستانٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، لتسكن جراحُه وتهدأ أنفاسُه ويستريح من عناء الرحلة التي لَقِيَ فيها أشدّ الكروب ، فينطلق لسانُه الشريف لأن يهتف بكلماتٍ من نور ، صدرت من قلبٍ مُتوهجٍ بحب الله ، ومتوقدٍ باليقين والثقة بوعد الله . لقد أراد النبي ﷺ أن يُرسل تقريرًا صادقًا لما آل إليه حالُه ، وما وصلت إليه دعوتُه ، كي يُخفف عن كاهله ثقلَ المسؤولية وضخامة التكليف ، فكانت شكواه دليلا على ضعفه البشري ، وليس له من حول ولا قوة إلاّ بالله ، فانطلق لسانُه الشريفُ يُرسل بهذه الكلمات : "اللهمّ إنّي أشكو إليك ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي ، إلى من تكلني؟ إلى

عدوٍ ملكته أمري أم إلى بعيدٍ يتجهمني ؟ إنْ لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ... " [1]

قال ابن الجَوْزِي - رحمه الله - " الشَّكْوَى إِلَى اللهِ لا تُنَافِي الصَّبْرَ ، وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ هُوَ الشكْوَى إِلَى الْخَلْقِ . أَلم تَسْمَعْ قَوْلَ يَعْقُوبَ عليه السلام : ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٨٦) و قال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَة - رحمه الله - : "وَكَذَلِكَ من شَكَا إِلَى النّاس وهو في شَكَوَاهُ رَاضٍ بِقَضَاءِ اللهِ لم يَكُنْ ذلك جَزَعًا" [2] . إنّ الذي عاناه النبي ﷺ في نفسه وجسده ،

---

(١) انظر هذه الشكوى في : (مجمع الزوائد للهيثمي ٣٥/٦؛ وسيرة ابن هشام ٤١٩/١؛ وتأريخ الطبري٣٤٤/٢-٣٤٦؛ ودلائل البيهقي ٤١٥/٢-٤١٧). ويرى بعض العلماء أنّ الحديث في مرتبة الحسن فقد أخرجه المقدسي في الصحيح من طريق الطبراني (١٧٩/٩) وبعض العلماء الذين ضعفوه يرون أن ضعفه يسير لا يضر في روايته والاستشهاد به ، خصوصا في السير والمغازي والفضائل. ثم إنّ كثيرا من أهل العلم تناقلوا الحديث معتمدين له ومستشهدين بما ورد فيه كشيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى ١٨٤/١٠) وابن القيم يستشهد به على أنّ الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر.

(٢) الفروع ج٢/ص١٤١

إنّما هو ثمنُ الصراع بين الحق والباطل ؛ فكانت رحلة الطائف دُفْعةٌ من هذا الثمن ، والطريق طويلٌ لإتمام المسيرة .

ويبقى رسولُ الله ﷺ أُسوتنا في السرّاء والضرّاء ، فقد علَّمنا الشُّكر عند الرّخاء ، والصَّبر عند الضرّاء ، والتضحية من أجل دعوتنا ، واليقين الراسخ بوعد ربّنا ، كي لا نُعاند الأقدار فنُكْسَر ، ولا نستعجلها فَنَخْسر ، وكذلك علـّمنا كيف نعيش المعاني الإيمانية بظلالها ، والآيات القرآنية بدلالاتها ، فكان أداؤه مرهونٌ بخطاب الله ﷻ : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى ٤٣) لم تكن كلماتُ الشتم والسب التي سمعها بأذنيه أو الدماء التي سالت من قدميه ، سبباً لنقمةٍ ولعنةٍ عليهم من رسول الله ﷺ الذي أرسله اللهُ رحمةً للعالمين ، بل التمس لهم عند ربّه ﷻ أعذارا ترفع عنهم عذابه وسخطه ، كما فعل ذلك في مواطن عديدةٍ أُوذِيَ فيها فصبر . ومن هذه المواطن ما حدث يومَ أُحُد ، فعن سهل بن سعد قال: "شَهِدْتُ النبي ﷺ حين كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ وَجُرِحَ وَجْهُهُ وَهُشِّمَتِ الْبَيْضَةُ على رَأْسِهِ ، وَإِنّي لأَعْرِفُ من يَغْسِلُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ وَمَنْ يَنْقُلُ عليه الْمَاءَ وَمَاذَا جُعِلَ على جُرْحِهِ حتى رَقَأَ الدَّمُ ، كانت فَاطِمَةُ بِنتُ مُحَمَّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ وَعَلِيّ رضي الله عنه

يَنْقُلُ الْمَاءَ إِلَيْهَا في مَجَنَّةٍ، فلما غَسَلَتِ الدَّمَ عن وَجْهِ أَبِيهَا ، أَحْرَقَتْ حَصِيرًا حتى إذا صَارَتْ رَمَادًا أَخَذَتْ مِنَ ذَلِكَ الرَّمَادِ فَوَضَعَتْهُ على وَجْهِهِ حتى رَقَأَ الدَّمُ ، ثُمَّ قَالَ : يَوْمَئِذٍ اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ على قَوْمٍ كَلَمُوا وَجْهَ رسولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَكَثَ سَاعَةً ثُم قال : اللَّهُم اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ" [١] .

وفي يوم جاء الطُّفَيلُ بنُ عمرٍو ﷺ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال : "إنَّ دَوْسًا قد هَلَكَتْ ، عَصَتْ وَأَبَتْ ، فَادْعُ اللهَ عليهم" . فقال ﷺ : "اللَّهُم اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ" [٢] . وعن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال : "كَأني أنظر إلى النبي ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا من الأنبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ فَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِهِ وَيَقُول : رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فإنهُمْ لا يَعْلَمُونَ" [٣] . فإن كان هذا من سجية نبيٍّ من أنبياء الله ، وهو أقل مرتبةً ومكانةً من محمد ﷺ ، فرسول الله ﷺ أولى بهذا الخلق الرفيع . لقد كان قلب الحبيب محمّد ﷺ يشرق بِقَبَسٍ من نورِ الله ، وهو يتلقى كلماتِ الرضا في خطاب ربّه عزّ وجل : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ج٦/ص١٦٢

(٢) صحيح البخاري ج٤/ص١٥٩٦ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٩٥٧

(٣) صحيح البخاري ج٦/ص٢٥٣٩ ؛ وصحيح مسلم ج٣/ص١٤١٧

بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (الطور٤٨) فصنعه الله على عينه ، ورعاه بحفظه ، ونصره بوعده ، ولا يسعه إلاّ أنْ يمضي بسنّة الله فيمن قبله من رسل الله الكرام ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الأحقاف ٣٥)

٤ـ تطرّف جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ :

عن أَنَس بن مَالِكٍ رضي الله عنه قال : "جاء ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي ﷺ يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي ﷺ فلما أُخْبِرُوا كَأَنهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي ﷺ قد غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخّرَ ، قال أَحَدُهُمْ : أَمّا أنا فإنّي أُصَلّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقال آخَر : وأنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ ، وقال آخَر : وأنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فقال : أَنْتُمْ الذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا واللهِ إني لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ له ، لَكِني أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي" [1] . وهنا نتساءل : كيف لنا أن نستقلّ عبادةَ رسول الله ﷺ وهو المشرّعُ لها ؟ وكيف لنا أن نزيد على فعل التكاليف التي أمرنا

(١) صحيح البخاري ج٥/ص١٩٤٩

بها وهو الذي بلّغها عن ربه ؟ بل وكيف نخرج عن سُنته وطريقته والله قد أمرنا بطاعته وسُلُوكِ هَديه ؟ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر ٧) . إنّ مخالفة سُنة رسول الله ﷺ لا تأتي إلاّ بالنّصب والتّعب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات٧) .

٥- تطرّف الذين خرجوا على الخليفة عثمان ﷺ :

فكانوا يعيبون عليه جُملةً من الأمور التي اجتهد فيها أيام خلافته ، فبدؤوا يُرَوّجُونَ لمزاعمهم بحملةٍ إعلاميةٍ مسعورةٍ ، ظاهرُها فيه الرحمةُ وباطنُها من قِبَلِها العذابُ ، فما أرادوا خيرًا للأمّة ولكنّها الفتنة الحالقة التي لا يعلم مُستقرها ومستودعها إلاّ الله تبارك وتعالى .

استطاع عبد الله بن سبأ [1] ومن معه أن يستميلوا بمكرهم وكيدهم قُلُوبَ كثيرٍ من الناس وذلك بإثارتهم للشبهات والافتراءات حول خليفة المسلمين عثمان ﷺ ، وكان فيهم سمّاعون للكذب أكّالون للسّحت ، فدبّت الفرقة في أوساط الأمّة ، وتكالب الشرّ من كلّ صوبٍ على مدينة رسول الله ﷺ ووقع ما وقع بعدها من أحداثٍ.

واستمر الشرّ والكيد والمكر يتعاظم يومًا بعد يومٍ حتى أجمعوا على قتل عثمان ﷺ وإنهاء خلافته ، فَتَمَّ لهم ذلك بعد مجزرةٍ داميةٍ سقطت فيها دماءُ المسلمين ، وانتُهكت حرمةُ مدينة خير المرسلين محمد ﷺ.

لقد كان مقتلُ الخليفة عثمان ﷺ حدثًا عاصفًا غَيَّرَ تاريخ أمتنا ولم تتعافى من مُصابها ذلك إلى يومنا هذا. فما جرى للمسلمين من فاجعةٍ بمقتله ﷺ أصبح حدثًا تعمق جُرحه في جسد الأمة ، وبات

---

(١) الذي ينسب إليه السبئية ، كان يهوديا أصله من صنعاء في اليمن ، من أَمَة سوداء ، تظاهر بالإسلام زمن عثمان بن عفان ﷺ ، ثم تنقل في بلاد المسلمين يحاول نشر الفتنة وتفكيك الأمّة، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ثم الشام ، وتسبب في فتن كثيرة، كان من أبرزها فتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ (أنظر: تاريخ دمشق ج٢٩/ص٣-٤)

من الصعب على من جاء بعده تجاوزُ آثارِ هذه الجروح أو محوُها من ذاكرةِ التاريخ الإسلامي.

وليس من المفيد في هذا الموطن أن ندخل في تفصيلات الفتنة وتشعبات أحداثها ، لكنْ علينا أنْ لا نغضّ الطّرف عمّن يضمر لأمّتنا المكائد ، ويسعى إلى تدميرها ، وهذا الذي فعله غلاة النّاس وأرباب الفتن وأعداء الدين في عهد عثمان ﷺ. فمنهم من لا يعرفون للحق سبيلا ، وهم من الذين اندسُّوا في صفوف المسلمين مثل ذلك اليهودي الحاقد عبد الله بن سبأ ، رأس الفتنة ومُوقِد فتيلها، ومنهم من رضي لنفسه بأن يكون وقودَ نارٍ أُحرقت بها الأمّة ، ومنهم من اختلط عندهم الحقُّ بالباطلِ أو توهموا الحقّ على غير حقيقته ، فتأوّلوا النّصوص وغيّروا الأحكام بفهمٍ سقيمٍ وعِلَلٍ واهيةٍ وباطلةٍ ، وتطرّفوا في الفكر والتفكير وفي الفهم والتأويل ، فكانت فعلتُهم كاشفةً لحقيقتهم حتى بات قميصُ عثمان ﷺ يُقرَنُ بقميص يوسف عليه السلام ، فكلاهما مُلَطَّخٌ بالدم وكلاهما يحكي قصة غدرٍ وخيانةٍ ، لكن الدّم الذي لُطِّخَ به قميصُ عثمان ﷺ كان حقيقةً لا ادّعاءً ، أمّا الدّم الذي لُطِّخَ به قميصُ يوسف عليه السلام فقد كان إفكًا وإثما مبينا . لقد هجم الغادرون على بيت الخلافة صبيحة يوم الجمعة (١٨ ذي الحجة

سنة ٣٥هـ) فقتلوا خليفة المسلمين وهو يقرأ القرأن الكريم وإذا بدمه الشريف ينزف على صفحات المصحف . وتُجمِعُ الرواياتُ على أنَّ قطراتِ الدَّمِ سقطت على الآية الكريمة : ﴿فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة ١٣٧) ويشهد التأريخ أنّ جميعَ من اشترك في قتل عثمان سقط قتيلا فيما بعد، ولم ينجُ منهم أحدٌ ، وكما قيل : "بَشِّرِ القَاتِلَ بالقتل ولو بعد حِينٍ" [١]. وباقتحام جيش الفتنة لِبَيتِ الخليفة ، انتهكوا حُرمَةَ صِهرِ رسول الله ﷺ وحرمة المدينة المنورة، فدخلوا الدار من الجدران بعدما أحرقوا الباب ، وكان أَوَّلُ المقتحمين هو (كنانة بن بشر التجيبي) وقيل رجلٌ اسمه (الموت الأسود) فخنقه حتى غشي عليه ، ثم دخل رجلٌ آخر فاستلَّ سيفه ليضرب عثمان بعدما ظن أنه قد مات فَمَدَّ عثمان يده ليتقيه بها

(١) هذا القول اشتهر على ألسن النّاس وليس بحديث ، قال عنه الإمام السخاوي: "لا أصل له (أنظر: المقاصد الحسنة ج١/ص٢٣٨ ؛ و الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ج١/ص١٥٢) ويرى الإمام العجلوني أنّه ممّا اشتهر على الألسن ولا صحة له وان كان الواقع يشهد لذلك . (أنظر: كشف الخفاء ج١/ص٣٣٨)

فقطعها ، فقال عثمان : والله إنّها أوّل يَدٍ كتبت القرآن الكريم ، لكن ذلك لم يشفع له من إتمام جرمهم ، وجاء رجلٌ آخر قد سلّ سيفه ليطعن به عثمان ﷺ فحاولت زوجتُه نائلة أن تحميه فقطع الوغدُ أصابع يدها ، ليتكئ بعدها بالسيف على صدر عثمان ﷺ ثُمَّ أرادوا حزّ رأسه فأخذ نساءُ أهل البيت يصرخن بهم أنْ دعوه فتركوه ، ثم قاموا بسلب بيت الخليفة عثمان ﷺ ، ثم بعدها توجهوا إلى بيت المال فسرقوه. عن أبي أُمَامَةَ بن سَهْلٍ قال : "كُنَّا مع عُثْمَانَ ﷺ وهو مَحْصُورٌ في الدَّارِ فَدَخَلَ مَدْخَلاً كان إذا دَخَلَهُ يَسْمَعُ كَلاَمَهُ من على الْبَلاَطِ ، قال: فَدَخَلَ ذلك الْمَدْخَلَ وَخَرَجَ إِلَيْنَا ، فقال : إِنّهُمْ يتوعدوني بِالْقَتْلِ آنِفًا ، قال : قُلْنَا يَكْفِيكَهُمُ اللهُ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قال : وَبِمَ يَقْتُلُونَنِى؟ إِنّي سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: " لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلاَمِهِ ، أو زَنَى بَعْدَ إِحْصَانِهِ ، أو قَتَلَ نَفْسًا فَيُقْتَلُ بها . فَوَاللهِ ما أَحْبَبْتُ أَنَّ لي بديني بَدَلاً مُنْذُ هداني اللهُ ، وَلاَ زَنَيْتُ في جَاهِلِيةٍ وَلاَ في إِسْلاَمٍ قَطُّ ، وَلاَ قَتَلْتُ نَفْسًا ، فَبِمَ يقتلونني ؟" (١) .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج١/ص٦١

وفي موقف سيدنا عثمان ﷺ بمنع إراقة دماء المسلمين في مدينة المصطفى ﷺ مأثرةٌ عظيمةٌ له ، يقول ابن تيمية رحمه الله : "ومن المعلوم بالتواتر أنّ عثمان كان من أكفّ الناس عن الدماء وأصبر النّاس على من نال من عرضه وعلى الذين آذوه وحاصروه وسعوا في قتله ، وقد عرَف إرادتهم لقتله. وقد جاءه المسلمون من كل ناحيةٍ ينصرونه ويشيرون عليه بقتالهم وهو يأمر النّاس بالكف عن القتال ويأمر من يطيعه أن لا يُقاتلهم . وروى أنّه قال لمماليكه من كَفَّ يَدَهُ فهو حُرٌّ . وقيل له : تذهب إلى مكة فقال : لا أكون ممن ألحد في الحرم ، فقيل له : تذهب إلى الشام فقال : لا أفارق دار هجرتي ، فقيل له : فقاتلهم فقال : لا أكون أول من خلف محمدًا في أمته بالسيف" (١) .

لقد كان يومُ استشهادِه ﷺ يوم الغدر بالأمّة الإسلامية، تفتّحت بسببه جراحات في جسد الأمّة. ولا يَسَعُنِي هنا أن أدخل في تفصيلات تلك الأحداث لما فيها من مشاهد تقشعر لجرمها الأبدانُ ، ويشيبُ من هولها الولدانُ ، فَلنَكِل أَمرَهَا إلى الواحد الديان للفصل

---

(١) منهاج السنة النبوية ج٦/ص٢٨٦

فيها يوم يقفُ العباد بين يديه عند الميزان. [1] وفي النهاية سقط الخليفة عثمان بن عفان ﷺ شهيدًا وبيده القرآن الكريم ، ولم يشفع له عند من قتلوه ظلما وعدوانا ، أنّه تجاوز الثمانين من العمر بعامين، وأنّه ذو النورين زوج ابنتي رسول الله ﷺ ، حيثُ لا يُعرف في التأريخ أنّ أحداً قد تزوج ابنتي نبيٍّ. ولم يشفع له أنّه من العشرة المبشرين بالجنة ، وأنّه وقف يوم العُسرة مَوقِفًا نَدَرَ أنْ يقفه أحدٌ مثله في الخير والعطاء . لقد نَسِيَ المجرمون - الذين لبسوا عباءة الإسلامِ والإسلامُ منهم براءٌ - حديثَ رسول الله ﷺ يوم أن وقف على جبل أُحُدٍ وكان معه أبو بكرٍ وعمر وعثمان ﷺ فقال للجبل بعد أن رجف تحت أقدامهم : "اثْبُتْ أُحُد ، فإنّما عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدّيقٌ وَشَهِيدَانِ" [2] فكان الشهيدان هما عمر وعثمان - رضي الله عنهما-.

---

(١) للتوسع في أحداث الفتنة انظر : البداية والنهاية ، ابن كثير - أحداث سنة ٣٧هـ - ؛ والعواصم من القواصم ، ابن العربي ؛ وعصر السيرة والراشدين، د أكرم العمري ؛ وعثمان بن عفان، الصلابي ؛ وتحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ، د. محمد محزون ؛ والإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف د. حامد محمد الخليفة ؛ وموقع الدكتور راغب السرجاني ، موضوع : فتنة مقتل عثمان ﷺ .

(٢) صحيح البخاري ج٣/ص١٣٤٤

المبحث الثالث

التطرّف على مستوى القادة والحكام

وذلك في طغيانهم وظلمهم ، وفي قهرهم لشعوبهم ، وسُمّي الطاغية طاغية لتجاوزه الحدّ في سلوكه وأفعاله ، فلا يرعى في النّاس إلاّ ولا ذِمَّةً. والطاغية يَعتَقد أحيانًا أنّ الربوبية والألوهية من سماته وخصائصه ، فيقولها أحيانا بكلّ صراحة ووقاحة كما فعلها قديمًا فرعونُ مِصرَ الذي حكم البلاد أيام موسى عليه السلام والملك النمرود الذي حكم العراق أيام إبراهيم عليه السلام ، أو تفوح رائحتُها من خلال أفعاله وتصرفاته .

لقد شهد العالمُ على مرّ التاريخ أمثلةً كثيرةً لأشباه هؤلاء الذين أهلكوا الحرث والنّسل . ومن أجل التحذير من هذه الصفة المقيتة فقد أورد القرآن الكريم كلمة (طغى) ومشتقاتها في تسعة وثلاثين موضعاً ، وبصيغ مختلفة . ولا شكّ في أنّ العوامل النفسيّة لها دور كبير في جعل الطاغية وحشا ضاريًا ، يُضاف إليها الظروف التي هيأت له مناخا مناسبا لممارسة ظلمه وطغيانه ، ومن ثمّ إستمراره على ذلك لأزمنة طويلة حتّى يهلك البلاد ويستغيث من حكمه العباد

. وهذا لا يمنع من أنْ نضع اللّوم على الشعوب التي حَنَت ظهرها لسياط الظالمين ، وركعت أمام قهر الجبّارين ، من غير أن تجد لنفسها طريقا للحريّة والخلاص ، فكان الخوف لباسها، والهوان سبيلها ، فمنحت الطاغية فرصة الاستمرار ، وهذا الذي حدث لفرعون وقومه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف ٥٤) وفي هذا المبحث نعرض جانبا من صور التطرّف لدى هذه الطبقة من النّاس عبر التأريخ .

١ ـ تطرّف النّمرود [١] وأعوانه مع نبي الله إبراهيم عليه السلام:

لقد ذُكرت قصةُ إبراهيم الخليل عليه السلام في مواطن عدّة من القرآن الكريم ، ولسنا بصدد الحديث عن تفصيلات القصة ولكن يهمنا الوقوف عند ردة الفعل غير المتوازنة ، والسلوك المتطرف لدى

---

(١) هو ملك بابل في أرض العراق ، واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح عليه السلام. وكان من أوائل الحكّام الظلمة في تأريخ البشريّة، وكان مَلِكًا جَبَّارًا ادّعى لنفسه الربوبية والألوهية وأمر النّاس بالسجود له وعبادته من دون الله . ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك. (أنظر ترجمته بتوسّع في : البداية والنهاية ج١/ص١٤٨)

الطغاة بعد أن حاجّهم إبراهيم ﷺ وساق لهم الأدلة الدامغة ، ليبيّن لهم حقيقة عجز الأصنام عن الدفاع عن نفسها وعن غيرها ، فكان موقفهم : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء ٦٨) و ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۞ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ (الصافات ٩٧ و ٩٨) فبنَوْا بِناءً عظيما ووضعوا فيه النّار ، ومكثوا زمنا طويلا يُسجرونها بكل ما يمكن أن يشتعل ، فاشتدت حرارةُ النّار حتى قيل أنّ الطير الذي يمرّ فوق هذه النار كان يسقط مشويًا من حرّها ، فلمّا أرادوا إلقاء إبراهيم ﷺ في النّار لم يستطيعوا الاقتراب منها لشدة لَفْحها فصنعوا له مِنجنيقًا لِيُلْقُوه به في النار من بعيد .(١)

إنّه لأمر عجيب ، أمّةٌ كاملةٌ تجتمعُ وتجمعُ حطبًا حجمه كالجبل ، وتبالغُ في تأجيج النار بكلّ الوسائل ، كلّ ذلك من أجل تعذيب عبدٍ واحد من عباد الله ، إنّه سلوك بشري مشين ، بل هو عين التطرّف والإرهاب . فلما ألقوه في النار قال : "حسبي الله ونعم الوكيل" فماذا كانت النتيجة ؟ صدر الأمر الإلهي إلى النّار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

(١) للتوسع أنظر : تفسير ابن كثير ج٣/ص١٨٣-١٨٥

الأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء ٦٩ و ٧٠) فأرادوا به كيدا وانتقاتما ، وأراد الله له نصرة وتأييدا.

ثمّ واجه إبراهيم عليه السلام تطرّفا غريبا من نوعه من الملك النمرود، الذي أخبر الحقّ سبحانه وتعالى عن قصّته فقال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨) . وذلك بعد أن وصلت النّمرودَ أخبارُ إبراهيم عليه السلام ودعوته إلى توحيد الله وعبادته، وكيف أنّ قومه أعدّوا له نارًا لإحراقه وكيف نجا من النار بمعجزةٍ وخارقةٍ عظيمةٍ، فتعجب لذلك وطلب مناظرته ومحاججته ليقف على حقيقة أمره ، لا رغبةً في الإيمان وإنّما زيادةً في المكابرة والطغيان . وفي المناظرة أخبر إبراهيم عليه السلام النمرود بأنّ الله تعالى الذي أرسلهُ رحمةً للناس يملكُ القُدرةَ على الإحياء والإماتة ، فردّ عليه النمرود بأنّه هو الذي يقدر على ذلك وليس الله تبارك وتعالى ، والغريب كيف يدعي النمرود ذلك وهو مخلوقٌ ضعيفٌ من مخلوقات الله التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى ، إنّه الغلو في سوء الاعتقاد ، والتطرّف في رداءة

التصوّر، والجهل بحقيقة الخلق ، أو التغابي والاستهتار بالمناظرة والمجادلة ، وهنا طلب منه إبراهيم عليه السلام أن يُرِيَهُ حقيقة ما يدعي ، فزاد النمرود في الموقف غباءً، فأمر حُرَّاسَهُ بإحضار مَسجُونَينِ قد حُكِمَ عليهما بالموت فأمر بإطلاق سَراح أحدهما من أسره ، وبإعدام الآخر ، فقال : ها أنا أحييتُ هذا وأمتُّ الآخر !!

إنّها مهزلةٌ من مهازل الطغاة من الحكّام الذين يظنّون بأنّ أرواح العباد بأيديهم لا بيد ربّ العباد ، وأنّ حياة الناس بأيديهم لا بيد ربّ النّاس، ففاجأهُ إبراهيمُ عليه السلام بقوله : إنْ كنت صادقًا ، فرُدَّ الذي قتلته إلى الحياة ، فبُهِتَ النمرود . ثم قال النمرود لإبراهيم عليه السلام: ماذا يفعل ربك بالشمس ؟ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (البقرة ٢٥٨) لأنّ من صفات الرب سبحانه وتعالى القدرة على التصرف في كونه ، فلم يطلب منه إبراهيم عليه السلام إلاّ أنْ يعكس الأمر وهو الأيسر من إيجاده ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨) فأبهته الله وأخزاه في الذي ادّعاه لأن الله لا يُوَفِّقُ إلى هدايته من ظلم وتجبّر . وبقي الطاغيةُ على جحوده وكفره وجهله ، وعلى ادّعائه الربوبية وتسخير النّاس لعبادته ، فسلّط الله عليه وعلى جيشه أضعفَ مخلوقاته ،

غمامةٌ من البعوض أتت من حولهم حتى غطّت عينَ الشمسِ، فأكلت لحومهم وامتصت دماءهم وتركتهم عظامًا بادية ، ودخلت واحدةٌ منها في منخري النمرود فمكثت في منخريه ، عذابًا من عند الله ، فكانت تَزِنُّ وتتحرك ، لا تسكت ولا تهدأ حتى يضربه من حوله بضربةٍ بالنعال على وجهه ورأسه ، وبقي على هذا الحالِ سنين طويلةً لا يموت ولا يحيا [1] . وبذلك طُوي المشهد الرهيب ، وحُسم الأمر ، لينصر الله رسوله وحبيبه إبراهيم الخليل عليه السلام ، فيتحقق الوعد الإلهي ، ويمضي ناموس الله في نصرة رسله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (غافر ٥١) فكانت النّجاةُ والعاقبةُ لإبراهيم عليه السلام أمّا الذين أرادوا أن يحرقوه فكانوا هم الأسفلين والأخسرين .

٣- تطرّف امرأة العزيز مع نبي الله يوسف عليه السلام :

إمرأة العزيز هي زوجة عزيز مصر الذي كان يُعَدُّ الرجلَ الثانيَّ في هَرَم الحكم بعد الملك . وقصّتها هذه تُضيفُ محنةً جديدةً في حياة يوسف عليه السلام ، لينتقل هذا النبي المُبتَلى من ألم حسد إخوته

---

(١) انظر قصّة محاججة النمرود لإبراهيم عليه السلام في : تفسير ابن كثير؛ وتفسير الخازن للآية (٢٥٨) من سورة البقرة .

إلى ألم حب امرأة العزيز له ، لكن المفارقة العجيبة أنّ كيد إخوة يوسف رماه في الجب ثلاثة أيامٍ كما تنص بعض الروايات ، أمّا محبّة امرأة العزيز له فقد رمته في السجن ما يقرب من تسع سنواتٍ، فلا نحزن ببغض من يبغضنا ، ولا نفرح بحب من يحبّنا ، لأن البلاء قدرٌ إلهيٌّ لا تصرفه الأسباب إنْ أراد الله له وُقوعًا. كانت امرأة العزيز بمقام الأمّ ليوسف عليه السلام ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف٢١) وفعلا أتخذوه ولدا ، فقامت على تربيته ورعايته سنين عديدة ، وترعرع في ظلال أمومتها . وكان هذا هو الشعور الذي يخالجُ مشاعر يوسف عليه السلام .

وفي لحظةٍ يرسمُ الشيطانُ معالمها ، تنتقل هذه المرأةُ من أمٍّ حنونٍ إلى عاشقةٍ شرسةٍ تنطلق بشهوتها بلا حدودٍ أو قيود، وممّا يزيد من محنة يوسف عليه السلام أنّ امرأة العزيز لا يردّها أحدٌ من البشر إنْ أرادت فعلَ أمرٍ ما ، فزوجُها الذي يحكم البلاد لا يحكم زوجته ، وأمرُه نافذٌ على العباد لا عليها ، بل كان يخشاها ويهابها ولا يَرُدُّ لها ما تريد . وتأتي المفاجأة ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ

وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف ٢٣ و ٢٤) في لحظةٍ واحدةٍ تنتقل الأمُّ إلى عشيقةٍ !! فهي التي تُراود ، وهي التي تُغامر ، وهي التي تُسابق ، وهي التي تغلق الأبواب . ياله من فعلٍ مُشينٍ وسُلوكٍ مُهينٍ ، تطرّفٌ في الموقف لا يألفه العقلاء من الناس ، بل هو مخالفٌ للمتعارف عليه من العادات والطبائع . ألمي على يوسف عليه السلام كيف وهو في مُقتبل صباه يُرمى في جبّ الكيد والمكر ليكون ضحيةً لشهوةٍ هائجةٍ ، لولا أن منّ الله عليه بعصمته وحفظه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤) . كان همّها فعل الفاحشة ، أمّا يوسف عليه السلام فهَمُّهُ الخلاص من كربات الموقف . فنجّاه الله من الوقوع في المحذور . لقد هرب من ميدان المحنة لينجوَ بعرضه ودينه ، لكنّها كانت كالبحر الهائج الذي لا تهدأ رياحُه ولا تسكنُ أمواجه ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ... ﴾ فدخلت السباق بكل عزيمةٍ وإصرارٍ رغم تقدمها في السن ، ووصلت إليه وقدّت قميصه من دُبرٍ ، فكانت المفاجأة في دخول زوجها في زمن غير معتاد لديها ،

لكنّ الجواب كان جاهزا بأعلى درجات الكيد والمكر ، فكذبت عليه كما كذب إخوتُه عليه وعلى أبيه من قبل ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف ٢٥) وكان موقفها هذا في غايةً الغرابة ، لأنّ الإنسانَ في أغلب الأحيان يرتبكُ ويرتعدُ من هولِ المفاجأة ، ولا يحسنُ التصرفَ ، فكيف بتلك المرأة تواجهُ الأمرَ بغايةٍ من المكر والذكاء فتقول : ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ لكي تثير فيه الغيرة والحميّة ، ولتصرفه عن التفكير المطلوب في معالجة مثل هذه المواقف الصعبة ، إنّها لغة الماكرين ومكر الكائدين ، ومع التّهمة تُصدِرُ الحكم ﴿إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ لتكون خصمًا وحكمًا في وقتٍ واحدٍ؟ وكما يقول الشاعر:

يا أعدلَ النَّاسِ إلاّ في مُعاملتي

فيك الخِصَامُ وأنت الخَصمُ والحَكَمُ [1]

فمن يدافعُ عن يوسفَ عليه السلام حيث لا يُوجدُ لديه شاهدٌ من البشر؟ ومن ينصرُه وخصمُه الذي يحكم البلاد والعباد ؟ وهل تشفع شهادته أمام عدوّ ماكر ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ (يوسف ٢٦) ؟

---

(١) يتيمة الدهر ج١/ص٢٣٨؛ وخزانة الأدب وغاية الأرب ج١/ص١٩٦

لقد وقع يوسف عليه السلام في مأزقٍ عظيم لكنّ نواميس الله تحفظُ عباده المتقين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق ٢) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق ٤) فَيَتَيَسَّرُ الأمرُ وتُكشَفُ الحقيقةُ على لسان واحدٍ من أهلها ليكون الدليلُ دامغًا ، وتُصبحَ الحقيقةُ جليّةً كجلاء الشمس في ضُحاها ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف ٢٦-٢٨) فماذا فعل العزيزُ بعد جلاء الحق واتضاح الصورة ؟ كان أقصى ما فعل ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف ٢٩) بهذه السهولة وبدمٍ باردٍ ينتهي المشهدُ ويُغلَقُ ملَفُّ القضية وكأن شيئًا لم يكن ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. لكنّ امرأةَ العزيزِ لم تُغلق الملف ولم تُنهي المشهد ، فالتطرّف والغلو في سلوكها لا يحدُّهُ حَدٌّ ولا يمنعه مانعٌ ، وها هي تُصِرُّ على سجنه وإبعاده انتقامًا منه وهو البريء من كل ما نُسِبَ إليه ، فيَصدُرُ الحكم الجائر بطلبٍ منها ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ

وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (يوسف ٣٢- ٣٥).

ويدخل يوسف عليه السلام السجنَ وينتقلُ من غيابة البئر إلى غيابة السجن . فكم من بريءٍ سجينٍ ، وكم من ظالمٍ طليقٍ . فالظلم بحدّ ذاته تطرّف في السلوك لا يرضاه العقل السليم ، ولا تألفه النفوس الزكيّة الطاهرة ، وعاقبته وخيمة ، ونهايته أليمة .

٤- تطرّف فرعون :

فرعون هو حاكم مصر أيام موسى عليه السلام ، كان جبارًا عتيًّا ، ولعلّ التأريخ البشري القديم لم يَرَ أعظم من جبروته وظلمه ، اعتدى على كرامة البشر ، وأهدر دماء الأبرياء بقانونٍ ظالمٍ ما أنزل الله به من سلطانٍ ، قال الحقّ سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص ٤) . وكان فرعونُ يمثلُّ صُورةً قاتمةً من صور التطرّف ، وحالةً من حالات الطغيان في الأرض ، فجمع بين التطرّف العقدي ، والتطرّف

السلوكي ، وجعل أهل مصر شِيَعًا ليسودَ بينهم بلا منازعٍ ، ويبطشَ بلا رادعٍ ، بل بلغت به الوقاحةُ ليعلن أنّه الربّ الأعلى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (النازعات ٢٣و٢٤) ولم يرضَ لنفسه إلاّ أن يكون في أعين النّاس (الرب الأعلى) الذي لا ينافسه أحدٌ ، وأنّه الإله الأوحد ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص ٣٨) كما ادّعى لنفسه الملك المطلق على أرض مصر ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف ٥١) بل وألزم قومه بما يراه لا ما يرونه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر ٢٩) فلا رأي لمجموع الأمة إلاّ فيما يقدمه لهم من هدايةٍ ، مع أنّ الحقيقة خلاف ذلك ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ (طه ٧٩).

وفي الحديث عن ظلم فرعون ، نكتفي بالقدر الذي ذكرناه ، لأنّنا إذا أردنا الاستغراق في ذكر عتوّه وجبروته لاحتجنا إلى مساحة كبيرة من صفحات هذا الكتاب ، خصوصا وأنّ الحديث عن طغيانه أخذ مساحة كبيرة في كتاب الله ، ولكن لو أمعنا النظر في هذا النمط من الفكر والسلوك في شخصية فرعون ، لأدركنا حجم

التطرّف الذي غشي حياته ، ودمّر بلاده ، وأهلك جنوده وأتباعه . فماذا كانت نهايته ؟ ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النازعات ٢٥ و ٢٦) .

٥- تطرّف قارون :

إنّ قصة قارون تعرض لنا صورة من صور الطغيان في السلطان والمال والعلم ، وتأثير ذلك في تعاظم البطر والاستكبار في الأرض ، وفي جحود البشر بنعمة الله . لقد كان قارون من قوم موسى عليه السلام ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ (القصص ٧٦) بل هو ابن عمّ موسى عليه السلام[١] ﷺ ، لكنّه لم يستفد من دعوته ولم يتّبع هديه ورشده ، بل بغى وتكبّر وظلم النّاس وأكل حقوقهم فاستدرجه الحقّ ﷻ ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص ٧٦) بعطاء من عنده ، لا بمهارة قارون أو بعلمه ، لأنّ الرزق بيد الله وحده ، وسبحان مقسّم الأرزاق، يهبه للمؤمن والكافر ، وللطائع والعاصي ، وليس في بسطه الرزق لأحد دليل على مرضاته عليه ، أو إذا منعه من أحد

---

(١) أنظر : تفسير ابن كثير ج٣/ص٣٩٩

دليل على سخطه ، فقد يكون العطاء من باب الفتنة والاستدراج ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص ٧٧ و ٧٦) وهذه نصيحة صدرت من أهل الخير والفضل ، ممّن يدركون حقائق الأمور ، فالمال ظِلٌّ زائل ، ووديعة مُسْتَرَدَّة ، فعلى الإنسان أن يسلّط ماله لأجل الحقّ والخير، ليكون ذخرا لآخرته . لقد نسي قارون مصدر النعمة وأصل العطاء يوم أنْ نسب الفضل لنفسه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ (القصص ٧٨) فكفر بمن أنعم عليه ، فما من نعمة تُصبْنا في حياتنا إلاّ وهي من عند الله المتفضل على عباده ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ (النحل ٥٣).

لقد فتح اللهُ على قارون من أبواب الرزق والنّعيم ما يفوق التصوّر، ويسّر له من سبل الكسب ما يفوق الخيال ، فتعاظمت أمواله وكنوزه ، وفاضت خزائنه ، وكبر سلطانه ، فعاش في رغدٍ

من العيش ، لكنّه سخّر ماله في عصيان المنعم، وفي فتنة النّاس عن دينهم وصدّهم عن سبيل الله.

وفجأة : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ فتتميّز المواقف بين أهل الجهل وأهل العلم ، فقال الجهلاء الطامعون بدنياهم : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص ٧٧) نظرة سطحية قاصرة لا تتوافق مع نواميس الله ، فقال أهل العلم والدراية: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاّ الصَّابِرُونَ﴾ (القصص ٨٠) فما عند الله خير وأبقى ، والعاقل من أدرك حقيقة دنياه وعمل لآخرته ، فالدنيا زائلة والآخرة باقية ، ولا يلقّاها إلاّ الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها ، وعلى الفقر ومعاناته ، الصابرون على شظف العيش ومقاساته ، الصابرون على قضاء الله وقدره ، فيحمدونه على عطائه كما يحمدونه على منعه وبلائه ، لأنّ ثمرة الصبر عظيمة عند الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر١٠) .

ويأتي اليوم الموعود والمشهود في حياة قارون ، ليُنهي مسيرة التمرّد على نعمة الله ﷻ ، وجاءت اللحظة التي تُطوى فيها حياة قارون بنهاية وخيمة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ لتكون عبرة

لغيره ممّن يسلك سبيل الطغيان والفساد ، لقد ابتلعته الأرض ومعه داره وكنوزه فأين النّصير والمعين ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ (القصص ٨١) . وبعد الفاجعة التي شاهدها النّاس عيانا ، تتغيّر المواقف ، وتتبدّل الأحوال ، وتتميّز القيم ، فماذا حدث للذين تمنّوا مكانه بالأمس ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۞ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص٨٢ و٨٣) فالدار الآخرة وما فيها من نعيم لم تُعدّ لقارون وأمثاله من الجاحدين المتكبرين على خلق الله ، بل هي لأهل الإيمان والصلاح والتقوى . كان سلوك قارون سلوكا متطرفا مشينا ، فالنتيجة تعكس الواقع الذي عاشه ، والجزاء من جنس العمل ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (الحج ١٠)

٦- تطرّف أصحاب الأخدود :

كانت فئةٌ من المؤمنين ، من النصارى الموحدين ، ابتلاهم الله بأعداءٍ جبارين ، فَتَنوهم عن دينهم وتوحيدهم لله ، ولمّا امتنعوا عن ذلك شَقَّ الطغاةُ لهم شُقوقًا في الأرض، وأوقدوا فيه النيران ، وأرغموهم على أن يُلقوا بأنفسهم جميعًا في الأخاديد الملتهبة نارًا ، فماتوا حرقًا أمام الجموع التي حشدها المتسلطون الجبارون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، لكي يتمتع الطغاة بمشهد حريق الآدميين المؤمنين. وفي ذكر أصحاب الأخدود ، يروي الإمام مسلم رحمه الله قصّتهم بأكملها ، وهنا نأخذ بعضًا منها لتوضيح المشهد المروع : "كان غلامٌ مؤمنٌ فيما مضى يُبْرِئُ الأكمهَ وَالأَبْرَصَ ويُداوى الناس من سَائِرِ الأَدْوَاءِ ، فَسَمِعَ به جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كان قد عَمَى فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ ، فقال ما ها هنالك أَجْمَعُ إنْ أنت شفيتني ؟ فقال إنّي لا أشفي أَحَدًا إنّما يشفي اللهُ ، فَإِنْ أنت آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ . فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إليه كما كان يَجْلِسُ فقال له الْمَلِكُ من رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قال رَبِّي، قال أَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قال رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ . فَأَخَذَهُ فلم يَزَل يُعَذِّبُهُ حتى دَلَّ على الْغُلامِ فَجِيءَ بِالْغُلامِ ، فقال له الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قد بَلَغَ

من سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ بِهِ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ ، فقال إنّي لا أشفي أَحَدًا إنّما يشفي اللهُ ، فَأَخَذَهُ فلم يَزَل به يُعَذِّبُهُ . وبعدها أَمَرَ بقتله لكنّه لم يُمكَّن من ذلك ، وهكذا تكررت المحاولاتُ لكنّها باءت كلّها بالفشل لأنّ اللهَ كان يحميه عِندَ كل مرةٍ . وفي النهاية قال لِلمَلِكِ : إنّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حتى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ ، قال وما هو؟ قال تَجْمَعُ الناسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي على جِذْعٍ ، ثُم خُذْ سَهْمًا من كِنَانَتِي ، ثُم ضَعْ السَّهْمَ في كَبِدِ الْقَوْسِ ثُم قُلْ : بِاسْمِ اللهِ رَب الْغُلامِ، ثُم ارْمِنِي فإنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي . فَجَمَعَ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ على جِذْعٍ ثُم أَخَذَ سَهْمًا من كِنَانَتِهِ ثُم وَضَعَ السَّهْمَ في كَبْدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قال : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلامِ ثُم رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ في مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ . فقال النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ . فأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ له : أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ ، قدنَزَلَ والله بِكَ حَذَرُكَ : لقد آمَنَ الناسُ . فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ في أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ ، وَأَضْرَمَ النيرَانَ ، وقال : من لم يَرْجِعْ عن دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فيها ، أو قِيلَ له

اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا ، حتى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لها، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فيها فقال لها الْغُلامُ : يا أُمَّاهُ اصْبِرِي فإنَّكِ على الحقِّ". (١)

إنّه لمشهدٌ رهيبٌ تقشعر لهوله الأبدانُ ، تتجلّى فيه أبشع صور التطرّف والغلو لدى الطغاة الظلمة ، لقد خرجوا عن سماتهم الآدمية؛ يحفرون أخدودا عظيما في الأرض لمجموعةٍ من المؤمنين مع نسائهم وأطفالهم وشيوخهم ، ثمّ تُوقدُ فيها نارٌ عظيمةٌ أُعدت لحرقهم ، لا لذنبٍ اقترفوه أو جريمةٍ فعلوها إلاّ لأنّهم قالوا : (ربّنا الله) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (البروج ٨) أمّا هؤلاء الطغاة فقد كانوا يجلسون حول النّار يتمتعون بتعذيب وحرق المؤمنين ويرون الشيوخ والأطفال والنساء والرجال وهم تلتهمهم النار الواحد تلو الآخر . فكم من صرخةٍ عَلَت وَدَوَّت فسمعوها بآذانهم ، وكم من جسدٍ أكلته النّارُ فشاهدوه بعيونهم ، ولكنّ الرحمة لم تتحرك في قلوبهم ؛ قلوبٌ تأبى الحجارةُ أن تكون بقسوتها ، وتأبى الإنسانيةُ أن يكون أولئك الأشرارُ من جنسها ، أعاذنا اللهُ من ظلم الظالمين ومن قبضة الجبارين .

---

(١) انظر القصة بكاملها في صحيح مسلم ج٤/ص٢٢٩٩-٢٣٠٠

٧- تطرّف التّتار في غزوهم للعالم الإسلامي :

التتارُ هم قبائلٌ من شمال الصين في صحراء جوبي ، ومنهم تفرعت قبائل المغول وقبائل الترك وكذلك السلاجقة، وكانت دولتهم قد ظهرت سنة (٦٠٣هـ/١٢٠٦م). وكان جنكيز خان [١] أوَّلَ زعمائها ، وكان قائدًا عسكريًّا شديدًا وقويًّا ، له القدرة على تجميع النّاس من حوله وحشد الجيوش لقتال من يُريد . اتسعت مملكتُه حتى بلغت مساحاتٍ شاسعةً من الأرض وضَمَّت دُوَلاً ومناطق كبيرة . وعندما سيطر على مناطق واسعة من شمال الصين أطلق على جميع القبائل فيها اسم (المغول) .

كانت حروبُ التتار تتميز بالشراسة والقوّة والدّمار ، فكانوا كالسّرطان الذي يدبّ في الجسد فيهلكه ، لا يرحمون طفلاً أو امرأةً أو مُسِنًّا أو مُسَالِمًا ، وليس عندهم وفاءٌ بالعهد أو الميثاق لأنّ الغدر كان من شيمهم وأخلاقهم .

بدأ التتارُ يخططون لغزو العالم الإسلامي وإسقاط الخلافة في عاصمتها بغداد ، ثُمَّ شَنُّوا بعد ذلك حُرُوبًا طاحنةً في مناطق عديدة

---

(١) كلمة جنكيزخان تعني ملك الملوك ، أو قاهر العالم ، أمّا اسمه الأصلي فهو (تيموجين).

من بلاد المسلمين وأمعنوا فيها بالقتل والتنكيل . وبعد تدمير إقليمي خراسان وخوارزم ، كان التتارُ قد سيطروا على المناطق الشمالية ومناطق الوسط من دولة خوارزم الكبرى ووصلوا في تقدمهم إلى الغرب واقتربوا من نهاية هذه الدولة على حدود العراق .

وفي سنة (٦٥٦هـ) هجم التّتارُ بقيادة (هولاكو) [١] على بغداد بجيشٍ شرسٍ لعينٍ ، بلغ عدده نحو مائتي ألف مُقاتلٍ ، فحاصروا بغداد وأحاطوا بها من جهات عِدَّة ، وكانت جيوشُ الخليفة لا تتجاوزُ عشرة آلاف مُقاتلٍ، فاحتُلَّت عاصمةُ الخلافةِ وقِبلَةُ العِلْم وحاضرةُ العالم الإسلامي، وأوقع هولاكو الدّمار الهائل فيها ، وأَسقط الخلافة العباسية ، وقَتَل الخليفة ، وأهلَكَ الحرْث والنّسل . كما قُتِلَ العلماءُ والأمراءُ وسُفِكَت دِمَاءُ العامّة حتى بلغَ عددُ الذين قُتلوا في بغداد خلال فترةٍ وجيزةٍ ما يزيد على المليون ونصف قتيلٍ. فدُمرت البيوتُ وأُحرقت المكتباتُ واستُبيحت بغداد لمدّة تزيد عن أربعين يومًا بأمرٍ من هولاكو ، واغتُصبت النساءُ وذُبِّحَ الأطفالُ وجرى من الدمار ما لايعلمه إلاّ الله . لقد غدر الغادرون

---

(١) أنظر أخباره في : الموسوعة الحرّة (ويكيبيديا) ترجمة (هولاكو خان) .

من أذناب هولاكو وكان النصيبُ الأكبرُ من الغدر للرافضي ابن العلقمي - الرجل الثاني بعد الخليفة في دولة الخلافة - الذي غدر بالخليفة وتآمر على أمّة الإسلام التي احتضنته عشرات السنين ، ووضع يده في يد هولاكو اللعين ، ولم يحفظ لأمّة الإسلام إلاًّ ولا ذمّةً ، وعادت بغداد بعد ما كانت عاصمة المدن كلّها ، كأنّها خرابٌ ليس فيها إلاّ القليل من النّاس وهم في خوفٍ وجوعٍ وذلّةٍ . ودخل الرعب في نفوس النّاس وعمّت الفوضى ، وقد تحدث بعض المؤرخين عن حال النّاس وما وصلوا إليه من خوفٍ وذلةٍ ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. أربعون يومًا مضت على دخول التتار أرض بغداد والقتلُ في أهلها مُستمرٌ لا يتوقف ، وكان قتلُ الخليفة المستعصم بالله يوم الأربعاء في الرابع عشر من شهر صفر ، وكان عمرُه يومئذٍ ستًّا وأربعين سنةً وأربعة أشهرٍ ، وقُتل معه ولدُه الأكبرُ ثم قُتل ولدُه الأوسطُ وأُسِرَ الثالثُ ، وأُسرت أخواتُه الثلاث ، ثمّ أُسِرَ من في دار الخلافة من النساء والأطفال والخَدَم . وقُتِلَ أستاذُ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي مع أولاده الثلاثة مع جماعةٍ من أمراء السنّة وأكابر البلد ، وكان الرجل يُستدعى به من دار الخلافة من بني العباس فيخرج

بأولاده ونسائه فيُذهب به إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة فيُذبَحُ كما تُذبَحُ الشَّاةُ ثُمَّ يأسرون من بناته وجواريه ، كما قُتِلَ شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي بن النيار. وقُتِلَ الخطباءُ والأئمةُ وحملةُ القرآن وتعطّلت المساجد والجماعات والجُمُعات مدة شهورٍ ببغداد ، وأراد الوزيرُ ابن العلقمي - قبّحه الله - أن يُعطّل المساجد والمدارس ببغداد فلم يقدره الله تعالى على ذلك ، بل أزال نعمته عنه وقصف عمره بعد شُهُورٍ يسيرةٍ من هذه الحادثة. وانقضت الأربعون يومًا ، وبقيت بغداد خاويةً على عروشها ليس بها أحدٌ إلا القليل والقتلى في الطرقات كأنّها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صُوَرُهُم وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواءُ فحصل بسببه الوباءُ الشديدُ ، حتى تعدى وانتشر في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلقٌ كثيرٌ من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون . ولما نُودِيَ بالأمان في بغداد ، خرج جمعٌ من الناس من تحت الأرض ، من كان بالمطامير والقنى والمقابر ، كأنّهم الموتى إذا نُبِشُوا من قبورهم وقد أنكر بعضُهم بعضًا ، فلم يعرف الوالدُ ولده ولا الأخُ أخاه ؛ ثُمَّ أخذهم

الوباءُ الشديدُ فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السرّ وأخفى [1] .

إنّها صورةٌ معبرةٌ عن أحداثٍ رهيبةٍ تحكي أبشعَ حالات التطرّف والإرهاب البشري ، فلم يكن هولاكو مُسلِمًا ، ولم يكن التتار يومها من أمّة الإسلام ، إنّها البربرية التي لا تُبقِي وَلاَ تَذَر ، فالقوّةُ بلا عدلٍ دمارٌ ، والاندفاعُ بلا رحمةٍ هلاكٌ . فهل التطرّف والإرهاب من سمات المسلمين ؟ لقد نشر المسلمون العدل والأمن والرخاء في الدول التي فتحوها وحرروها من ظلم الظالمين ، وبقي شعارُهم : "الله ابتعثنا وجاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عباد الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام" [2]

---

(١) للتوسع في معرفة الأحداث انظر: البداية والنهاية لابن كثير ج١٣/ص٢٠٠-٢٠٥ فقد ذكر الأهوال العظام ؛ وانظر : الموقع الإلكتروني للدكتور راغب السرجاني في حديثه عن التتار ودولتهم .

(٢) هذه قولة الصحابي الجليل ربعي بن عامر ﷺ لقائد جيش الفرس (رستم) (أنظر: تاريخ الطبري ج٢/ص٤٠١؛ والبداية و النهاية ج٧ - غزوة القادسية- ؛ وجمهرة خطب العرب ج١/ص٢٤٢) .

٨- تطرّف قادة الحرب العالمية الأولى والثانية :

وأبرزُ مِثَالٍ على التطرّف في التأريخ الحديث هو ما وقع في الحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين غيرتا وجه العالم ، فكانت إفرازاتُ الحربين نكالاً على الدول المهزومة ، وتعالى عندها كِبرُ الدُّوَلِ المهيمنة عبر العالم ، واستُبِيحَ بعدها عالمنا الإسلامي فأصبح فريسةً يفتك به كلّ من يملك القوّة والدّهاء ، وبهذا أصبحت حياة الغاب القائمة على منطقِ القويِّ يفترسُ الضعيفَ هي اللغة التي يتعامل بها الجبارون.

كان لظهور الدكتاتوريات العالميّة أثرًا واضحًا في دمار العالم وخراب البلدان ، فكان للطغاة والظلمة من الحكّام الجبابرة دورٌ كبير في قتل الناس ودمار الشعوب . وبما أنّه لا يسعنا الدخولُ في تفصيلات ما فعله طغاة العصر ، فلنذكر هنا مُوجزًا لأبرز صور طغيانهم وجبروتهم، ألا وهي الحرب العالمية الأولى والثانية . لقد استمرت الحرب العالمية الأولى أربع سنوات (ما بين ١٩١٤-١٩١٨م) أمّا الثانية فكانت بدايتُها الفعليةُ عام ١٩٣٩م وانتهت عام ١٩٤٥م . وقد حصدت الحرب العالمية الأولى من البشر قرابة ثمانية ملايين نسمة، أمّا الحرب العالمية الثانية فقد أثبتت الدراسات

أنّها كانت أكثر الصراعات العسكرية دمويةً عبرالتاريخ ، فقد استُخدمت فيها جميعُ أنواع الأسلحة المدمّرة والمحرّمة دوليًّا فَحُصِدَت عشراتُ الملايين من أرواح الناس وقُدِّرت الخسائرُ البشريةُ بما يلي :

أولا : عدد الضحايا ما بين (٦٢- ٧٨) مليون قتيلٍ .

ثانيا : عدد الضحايا الذين قُتِلوا من المدنيين مابين (٤٠-٥٢) مليون نسمة (٢٠) مليون منهم هلكوا بسبب الأمراضٍ والمجاعاتٍ التي خلفتها الحرب.

ثالثا : عدد القتلى في صفوف العسكريين تراوح ما بين (٢٢-٢٥) مليون فرد ، بما في ذلك قُرابة خمسة ملايين من السجناء الذين ماتوا في الأسر أثناء الحرب [١] ناهيك عن دمار الدول وهلاك الاقتصاد العالمي، وتدمير البنية التحتية للشعوب، والقتل الجماعي الرهيب الذي شمل الجميع، حتّى النِّسَاءَ والأطفالَ والشُّيُوخَ .

وإذا كان هذا العدد الرهيب من ضحايا القتل ، فما بالك بعدد الأسرى والمعوقين جسديًّا والمدمّرين نفسيًّا والمشرّدين الفاقدين لمساكنهم ومُدُنِهِم . وماذا عن المدارس والمستشفيات والمؤسسات

---

(١) الصفحة الإلكترونية للموسوعة الحرة - خسائر الحرب العالمية الثانية.

الاجتماعية والتعليمية والخدمية التي تَمَّ تدميرُها ؟ إنّها الشراسةُ البشريةُ بكل معالمها ، وإنّه التطرّف والإرهاب الذي ارتكبته الدول في ربوع العالم الحر، والذي تولى كِبرَهُ الحكام الطغاة والظلمة الذين دمّروا البلاد والعباد، وطالما لم تُشابه هذه الأحداثَ الرهيبةَ التي وقعت من بلاد الغرب أَيّ أحداثٍ في عالمنا الإسلامي ، فلِمَاذا يُوضعُ الإسلامُ وَحدَهُ في قفص الاتهام كلما فاحت رائحة التطرّف والإرهاب ؟ يبدو أنّ ذاكرة العالم ضعيفةٌ وأنّ الأحداث إذا مضت نُسيت ، لكن التاريخ سيبقى شاهدًا على ماحدث ، وسترسم صفحاتُه مَعَالمَ الإجرامِ لمن أراد أن يتذكر أو أراد شهودًا .

المبحث الرابع

تطرّف أتباع الأديان السابقة

إنّ حديثنا هنا هو من باب الحُسنى في حوار أهل الكتاب ، فقد قال الحقّ ﷻ : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٦) لذلك يلزمنا التأكيد على حقيقة أوجبها الله علينا في احترام أصل الأديان السماويّة التي سبقت الإسلام لقول الله ﷻ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٦) ولقوله ﷻ : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة ٢٨٥) ولقول النّبي الكريم محمّد ﷺ : "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ من قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلاّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ من زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ الناس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ له وَيَقُولُونَ هَلاّ

وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ قال فَأَنَا اللَّبِنَةُ وأنا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ" [1] وفي ذلك دليل على وحدة مصدريّة الرسالات السابقة ، فلم يكن محمّد ﷺ بدعاً من الرسل ، إنّما جاء مكمّلا ومتمّما لرسالاتهم . ومع إيماننا بهذه الحقيقة فهذا لا يعني التسليم وقبول ما وقع من تحريف وتغيير في الأديان السابقة ، فنحن هنا لا ننتقص من أصل الأديان، ولكنّنا لا نقرّ بما أحدثه أتباع تلك الأديان في أصلها ، لأنّ الدّين ملك لله ، وليس لأحد أن يقرّر فيه ما يشاء . لذلك فإنّ على أهل الكتاب قبول الحقّ الذي جاء به النبي ﷺ لأنّه المصدر الوحيد الذي حفظ الأنباء والأخبار عن حقيقة أصل أديانهم ، وكشفت الزيغ والتحريف والتبديل الذي وقع عليها. وهنا لا بدّ من الوقوف على أمرين :

الأول : إذا اعترفنا وأقررنا بصحّة رسالة محمّد ﷺ ، وبصدق القرآن الكريم ، فلا بدّ أن نؤمن بكلّ ما جاء في القرآن من إخبار عن حقيقة الأديان السماويّة وما دخلها من تحريف .

الثاني : إذا أنكر أهل الكتاب الإسلام ، وطعنوا في صدق رسالة محمّد ﷺ ، فالموقف عندنا كما أخبر الحقّ سبحانه وتعالى

---

(١) صحيح البخاري ج٣/ص ١٣٠٠ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٧٩٠

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون ٦) على أن نلتزم قول كلمة الحقّ ، خصوصا وأنّ الله ﷻ أمر نبينا بتبليغ ذلك ، ولنا أسوة به ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ٦٧) لتبقى كلمة الحقّ فيما نعتقد هي العليا ، لا لكونها من أنفسنا ، بل هي من عند الله العليم الخبير. لذلك فالتطرّف في الأديان السابقة لم يكن في أصلها ، بل فيما أحدثه الأتباع من ابتداعٍ فيها ، أو تحريفٍ في أصولها ، أو تضليلٍ للحقائق ممّا لم يُنَزّل الله به من سُلطان ، ومن الأمثلة على ذلك:

١- تطرّف بني إسرائيل :

لا يسعنا حصر مواقف التطرّف في أولئك القوم لكثرتها وتنوعها ، فهؤلاء عاشوا زمنا طويلا في ظلال المعجزات الإلهية الخارقة ، وحضروا حادثة انفلاق البحر بضربة عصا، ومن ثمّ إغراق أكبر جبّار في الأرض، فرعون مع أعوانه وجنوده ، وشاهدوا هول الحدث عيانًا دون ريبٍ ، ثمّ لم تلبث أقدامهم أنْ تجفّ من ماء البحر حتى اتّخذوا عِجلاً له خوارٌ ليكون إلههم المختار ، بديلاً عن الله الواحد القهار!! قال الحقّ ﷻ : ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة ٥١) .
فالمُفارقة هائلة في ميدان الاعتقاد ، كيف نتصور أنّ أُمَّة سجدت لله ثمّ بعد ذلك تسجد لعِجلٍ له خُوارٌ ؟ لم تكن تلك الإساءة لتَصدُرَ من إنسان سويٍّ ، إنّهم ظالمون لأنفسهم باتخاذهم العجل ربًّا وإلهًا ومعبودًا ، وهذا سلوك مشين وانحراف مبين ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٥٤) [1] .

وبعد حادثة عبادة العجل اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا من خيرة بني إسرائيل ، ولعلّهم ممّن لم يعبدوا العجل ، ليذهبوا معه إلى طور سيناء لميقاتٍ وقّتَهُ لَهُ رَبُّهُ كي يعتذروا إليه عمَّا أحدثه قومهم من عبادة العجل ، وإذا بهم يطلبون طلبا غريبا ، حيث كان شرط الإيمان لديهم هو رؤية الله جهرةً ﴿وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ ثُمَّ

(١) تكرّر ذِكرُ قصّتهم مع العجل في مواطن عدّة من القرآن الكريم ، منها : (في سورة البقرة : آية ٥٤ ، و ٩٣ ؛ و في سورة النساء : آية ١٥٣ ؛ وفي سورة الأعراف : آية ١٤٨ ؛ وفي سورة طه : آية ٨٨)

بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة ٥٥و٥٦) فهم يريدون أنْ يروا الله عيانًا وعلنًا لكي يؤمنوا به ، فأراد الله ﷻ أنْ يؤدبهم ليدركوا كيف يتعاملون مع خالقهم وبارئهم . فأخذتهم الصاعقة [١] فأُزهقت أرواحهم . وهؤلاء هم الذين أخبر الله ﷻ عنهم في سورة الأعراف بقوله : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (الأعراف ١٥٥) [٢] ولعلّ هناك من يسأل عن طلب موسى عليه السلام رؤية الله جهرةً ، كيف يكون له ذلك ؟ والجواب : أنّ طلبه عليه السلام لم يكن شرط إيمانٍ ، وإنّما كان ارتقاءً في درجات الإيمان ، وشتان بين هذا وذاك ، قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى

---

(١) وهي صوت شديد من الرعدة ومعها يسقط قطع من نار .

(٢) أنظر: تفسير ابن كثير ، (آية ٥٥) من سورة الأعراف .

صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف ١٤٣)

ومن لطفِ الله بموسى عليه السلام أنّه لم يمكنه من المشاهدة رحمة به لأنّ القدرات البشريّة لا تطيق ذلك ، ولا تتحمّل هول المشاهدة ، بل إنّ الجبل بقوته وقساوته لم يستطع احتمال نور الله ، فإذا كان ذلك الدَّكُّ قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث لموسى عليه السلام لو أنّ الله سبحانه وتعالى تجلّى عليه. وكما قيل : "إذا كان موسى قد صُعِقَ برؤية المُتجَلّى عليه ، فكيف لو رأى المُتَجلّي ذاته"؟ ومن هنا يلزمنا إدراك طبيعة أولئك القوم ، الغريبة في أطوارها ، الهجينة في سلوكها ، حيث لم تُغيرها الآياتُ والدلائل والمعجزات ، ولم تصرفها عن جحودها كثرةُ نعم الله وسعةُ عفوه وغفرانه ، إنّها النفوس التي لا تستقيم إلاّ تحت هول العقاب والتنكيل إذا تُركت لتختار أهدى السبيلين كان العِجلُ إلهها ومعبودها ، وإذا خُيِّرَت بين سبيل الرحمان وسبيل الشيطان كان نصيبُ الشيطانِ منها الأوفر والأكبر . ثم تأتي فئةٌ من بني إسرائيل - وهم أصحاب السبت - ليغرقوا في قصة جديدة من المشاكسة والحيلة والتلاعب على أوامر الله ، فمسخهم الله إلى قردة منبوذين . وهذه الحادثة ورد ذكرها في

خمسة مواطن في القرآن الكريم ، أظهرُها في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (آية ١٦٣) فكان الجزاء من جنس الفعل ، غيّروا وبدّلوا في أمر الله ، فبدلهم الله من جنس بشري إلى جنس حيواني من عالم القرود ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۞ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٦٥ و ٦٦) فجعلهم الله عبرةً لمن عاصرهم من بني إسرائيل من سكان القرى الأخرى ولمن جاء بعدهم ممن تُسَوّلُ لهم أنفسهم ركوب موجة الطغيان ومشاكسة أوامر الحقّ تبارك وتعالى ، وفي نفس الوقت فهي تذكرةٌ لمن يتقي الله في أي زمان ومكان . وتأتي أيضًا قصةُ البقرة التي وردت في كتب التفسير بروايات عدة، وجميعها تصب في اتجاهٍ واحدٍ مُتمثل في جريمة قتلٍ شاء اللهُ أن يكشف فيها القاتل ليمنع شرًّا كبيرًا كاد أن يقع بين بني إسرائيل . ونذكرها كما يرويها ابن كثيرٍ - رحمه الله - من بين ما ذكر عنها من رواياتٍ ، فيقول : "وقصةُ البقرة هي أنّه كان رجلٌ من بني إسرائيل عقيمًا لا يُولد له

وكان له مالٌ كثيرٌ وكان ابنُ أخيه وارثَه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدّعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعضٍ. فقال أصحابُ الرأي منهم والنُّهي : علام يَقتلُ بعضُكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال - كما ذكر اللهُ تعالى- : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (البقرة ٦٧)

ويُكملُ ابن كثيرٍ حديثه بقوله : "فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرةٍ ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها فوجدوها عند رجلٍ ليس له بقرةٌ غيرها ، فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا ، فأخذوها فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا - لابن أخيه - ثم مال مَيِّتًا فلم يُعطَ من ماله شيئًا ولم يُوَرَّث قاتلٌ بعد" [1] .

إنّ من الواجب على أتباع الأنبياء والرسل إذا جاءهم أمرٌ أو نهيٌ أن يقولوا : "سمعنا وأطعنا" من غير جدالٍ أو مراءٍ أو التواءٍ .

---

(١) تفسير ابن كثير ج١/ص١٠٩

قال لهم موسى عليه السلام : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلو بادروا بدايةً إلى تلبية الأمر لَسَهُلَ عليهم ، ولو ذبحوا أي بقرةٍ دون تحديدٍ لأوصافها لأجزأتهم ولكان أمرُها يسيرًا ، لكنّهم فَضَّلُوا الاعتراض كعادتهم فقالوا : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فقال لهم موسى عليه السلام : ﴿أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فكيف لنبيٍّ مُرسَلٍ من عند الله أن يستهزئ بقومه وأتباعه خُصُوصًا وأنّ الأمر له قُدسيةٌ عظيمةٌ لكونه من عند الله ، فليس الأمر من اجتهاد موسى عليه السلام دون وحي الله ، إنّه من عند الله الخبير بأحوال عباده والعليم بمقاصدهم ونواياهم. وهنا أيضًا التبس عليهم الأمر ، فما علاقة القتيل بذبح بقرة ؟ وبأي منطقٍ يمكن للقوم أن يبلغوا كمال اليقين بطلب موسى عليه السلام ؟

إنّها صورةٌ من صور الاختبار والابتلاء لصدق الإيمان في قلوب العباد . فكم من قضية تواجهنا في أوامر الله ونواهيه لا ندرك كُنهَهَا وأسبابها ، فهل استجابتُنا وتَلبيتُنا لها تتوقف على معرفتنا لأسبابها وعللها ؟

إنّ العقل البشري ليعجز في كثيرٍ من الأحيان عن إدراك أسباب قضاء الله وقدره ، ولا يسعنا والحالة هذه إلا التسليمُ المطلقُ لأمره وقضائه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ

أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا﴾ (الأحزاب ٣٦) فالخير هو فيما يختاره اللهُ لنا لا فيما نختاره نحن لأنفسنا . وعندما شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم، لأنّه من يسّر على نفسه الأمر يسّر الله عليه ، فدين الله يُسرٌ كما أخبر النبي ﷺ بقوله : "إنّ الدينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ ، فَسَدّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا" (١)

وعادوا مرّة أخرى يشدّدوا على أنفسهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (٢) (البقرة ٦٨) أي يكفيكم ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون به ولا تتوسعوا في السؤال فتتوسع عليكم المطالب . ومرةً أخرى يسألوا عن لونها ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فيأتيهم الجواب ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة ٦٩) أي شديدة الصُّفرة مع صفاء اللون،

---

(١) صحيح البخاري ج١/ص٢٣

(٢) الفارض: هي الهرمة الكبيرة في العمر ، والبكر: هي الصغيرة الباكر، والعوان بين ذلك : هي المتوسطة في حجمها بين الصنفين . (أنظر : تفسير ابن كثير للآية)

يتمتع بها من يشاهدها لحسنها وجمالها . والغريب أن هذا اللون يندُرُ وجودُه في صنف البقر ، وكان هذا من باب التشديد عليهم . ويعيدوا الكرّة في السؤال : ﴿قالوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة ٧٠) ثمّ يأتيهم الجواب : ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة ٧١) أي ليست مُذَلَّلَةً بالحراثة ولا مُعَدَّةً للسقي لا عيب فيها [1] ، وبعد ذلك كلّه قالوا: ﴿الآن جِئتَ بالحق﴾ وكأنه قبل ذلك لم يكن قد أتى بالحقّ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لأنهم في أسئلتهم وعنادهم كانوا يحاولون عدم الفعل ولهذا فإنهم ما كادوا يذبحون البقرة؛ فأسئلتهم لم تكن من قبيل الاستفسار والاستيضاح ، وإنّما لأجل الاستخفاف بأمر الله والنكوص عن طاعته . وهذه المطالب التي سبق ذكرها ، صِيغَت بأسلوبٍ هجينٍ لا يتناسب مع مقام الأدب مع الله جلَّ جلالُه ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وفي موطن آخر : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (البقرة ٢٤) وبقلّة احترام (أَنْتَ وَرَبُّكَ)

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير وتفسير المنتخب للآيات (البقرة ٦٨-٧٢)

فكأنّ الله ﷻ هو ربّ موسى ﷺ وحده لا ربّ بني إسرائيل . يالها من وقاحة وجُرأة ، ويا له من سوء أدب !! إننا نتشرف بأن نكون عبيدًا لله وحده ، خاضعين لأمره ﷻ ، فما قدروا الله حق قدره ، يُكثرون السؤال عن ماهيّة البقرة بفضولٍ ممقوت ، فمن طلب ذلك منهم أصلاً ؟

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ٧٤) والقسوة هنا تعني الصلابة والشدة . فقلوبُ القوم كانت خاويةً من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى خصوصًا بعدما أراهم الله المعجزات وخوارق العادات ، والأصلُ أنَّ الإنسانَ يَقِفُ مُنبَهِرًا مُتَّعِظًا أمام المعجزة ، وعاجزًا ضعيفًا رقيق القلب أمام المُعْجِز . والأصل في القلوب أن تلين وترِقّ بعد مشاهدة الآيات ، فدل ذلك على خطورة الحالة في تلك الأمّة من بني إسرائيل ، حيث كشف الباري عز وجل عن سمات تلك القلوب وكيف أنّ استعدادها للقسوة أقرب ، فهي كالحجارة أو أشد قسوةً . وبلاغةُ التشبيه بالحجارة دون غيرها مقصودةٌ ، لأنّ غيرها كالحديد أو الرصاص

فيه صلادة ، لكنه إذا أُذِيبَ في النار ذاب بخلاف الأحجار . ووجه الشَّبَهِ بين القلوب والحجارة هي القسوة ، لكن الحجارة على قسوتها تتفجر منها الأنهار ، ويخرج منها الماء ، بل وتهبطُ من خشية الله بإذن الله ؛ أمّا قلوبُ أولئك ، فإنَّ ينابيع الخير أَبَت أن تتفجر من خلالها ، وامتنع ماءُ الفضيلة والطهارة أن يخرج منها ، فحال الجحودُ بينهم وبين قلوبهم ، فلم تهوي راكعةً وساجدةً لجلال الله تعبيرًا عن شكرها لنعمه . ولهذا نهى الباري عز وجل المؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب في مثل ذلك ، قال تعالى : ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ١٦) . والأمثلة على هذا كثيرةٌ ومتنوعةٌ ولا يسعنا سردُها في هذا الموطن كما أشرنا سابقًا .

٢ـ تطرّف النّصارى :

وسنلخص الحديث عن هذا النوع من التطرّف إلى جانبين :

الأول : يتمثل في القول بالتثليت والبنوّة . قال الله ﷻ : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلا

يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (المائدة ٧٣-٧٦) وقال ﷻ : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة ٣٠و٣١)

ومن هنا فإنّ من أعظم الذنوب في حياة الأديان السماوية أن يدّعي أتباعها أنّ لله ولدا ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم ٨٨-٩٥) . ولهذا فإنّ الله ﷻ حاججهم بالمنطق

السليم الذي تألفه العقول السويّة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون ٩١و٩٢)

كما أثبت بطلان دعواهم بألوهيّة عيسى وأمّه عليهما السلام ، وذلك بسؤال الله لعيسى يوم القيامة ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة ١١٦و١١٧) ولأجل ذلك فإنّ القول بالتثليث والادّعاء بأنّ لله ولدا ، وأنّه الربّ المعبود ، فيه تطرّفٌ كبيرٌ في ميدان الاعتقاد وشططٌ مخيفٌ في ميدان التوحيد .

الثاني : ويتمثل في الرهبنة التي لم يفرضها الله على أهل الكتاب. قال الحقّ ﷻ : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً

وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ٢٧) وهذا التطرّف في العبادة لا أصل له في التنزيل ، ولم يكن في تعاليم دينهم بل هو بدعةٌ ابتدعوها وأُحدوثة أَحدثوها ما أنزل الله بها من سُلطان . ومن هنا يحذر النّبي ﷺ من سلوك مسلك هؤلاء فيقول : "لا تُشَدِّدُوا على أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ ، فإنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا على أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ الله عليهم فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ في الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ" [1] فلا مجالَ للرهبانية في الإسلام لأنّ الأرض كلّها بأصلها وزينتها محرابُ الحياة للمؤمن ولا مكان للعزلة فيها عن الحياة وطيباتها ، ولهذا فإنّه ينبغي عمارة الأرض بجميع مافيها من عناصر الاستخلاف ، قال الله ﷻ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة ٣٠) ثم تكرر أمر الاستخلاف في خطاب الله عزَّ وجل لداود عليه السلام : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ (سورة ص٢٦) والاستخلافُ هو مهمّة عامّة النّاس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس ١٤).

---

(١) سنن أبي داود ج٤/ص٢٧٦

فصلاح الدنيا مرتبطٌ بصلاح الدّين وبصلاح الآخرة، وهذا الذي دعا إليه النبي ﷺ فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنّ رسول اللهِ ﷺ كان يقول : "اللهمّ أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ التي فيها مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي التي فيها معادي ، واجعل الْحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كل خَيْر ، واجعل الْمَوْتَ رَاحَةً لي من كل شَرٍّ"[1] بل حتى الزينةُ في دنيانا هي مطلبٌ مشروعٌ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ٣٢) . وعن أنس بن مالك ﷺ أنّه قال : "جاء ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبي ﷺ يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النبي ﷺ ، فلما أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ من النبي ﷺ قد غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ . قال أَحَدُهُمْ أَمَّا أنا فإني أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وقال آخَرأنا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ، وقال آخَروأنا أَعْتَزِلُ النسَاءَ فلا أَتَزَوجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رسولُ اللهِ ﷺ فقال : أَنْتُمْ الذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ، أَمَا واللهِ إني لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ له ، لَكِنّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوجُ النّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ

(١) صحيح مسلم ج٤/ص٢٠٨٧

مِني"[1] فالاعتدال في الأداء هو منهج النبي ﷺ في حياته ومن سمات سيرته العطرة.

والإسلام منهجٌ وسطٌ في التصور والاعتقاد ، وفي التعبد والتنسك ، والأخلاق والسلوك وكذلك المعاملة والتشريع . وسمة الوسطية هي إحدى الخصائص العامة للإسلام بل هي السمةُ التي ميز الله بها أمّة محمد ﷺ عن بقية الأمم حتى باتت مَعلمًا وشعارًا التصق بها ، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة ١٤٣) . ومن هنا كانت وصيّةُ النبي ﷺ لعبد الله بن عَمْرو بن العَاصِ رضي الله عنهما ، كما يرويها بقوله: "قال لي رسول اللهِ ﷺ : يا عَبْدَ اللهِ ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ فقلت بَلَى يا رَسُولَ اللهِ ، قال: فلا تَفْعَلْ ، صُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ ، فإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا"[2].

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب النكاح ، رقم الحديث (٤٧٧٦)

(٢) صحيح البخاري ج٢/ص٦٩٧

إذن لا بد من التوازن في توزيع الحقوق حتى لا يطغى حقٌّ على آخر. فعن أبي جُحَيْفَةَ ﷺ قال : " آخَى النبي ﷺ بين سَلْمَان وَأَبِي الدرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدرْدَاءِ فَرَأَى أُم الدرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فقال لها : ما شَأْنُكِ ؟ قالت : أَخُوكَ أبو الدرْدَاءِ ليس له حَاجَةٌ في الدنْيَا ، فَجَاءَ أبو الدرْدَاءِ فَصَنَعَ له طَعَامًا فقال : كُلْ، قال فإنّي صَائِمٌ ، قال ما أنا بِآكِلٍ حتى تَأْكُلَ ، قال فَأَكَلَ. فلما كان اللَيْلُ ذَهَبَ أبو الدرْدَاءِ يَقُومُ ، قال : نَمْ ، فَنَامَ . ثُم ذَهَبَ يَقُومُ فقال نَمْ، فلما كان من آخِرِ اللَيْلِ قال سَلْمَانُ قُمْ الآن. فَصَلَيا، فقال له سَلْمَان : إنَّ لِرَبكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُل ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَأَتَى النّبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ صَدَقَ سَلْمَان" [1] فالرهبنة قد تؤدي إلى فسادٍ في الأخلاق ، وإخلالٍ في السلوك وتطرفٍ في التعامل ، يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ (التوبة ٣٤).

(١) صحيح البخاري ج٢/ص٦٩٤

المبحث الخامس

تطرّف أهل البدع والأهواء

وهؤلاء ممّن ينتسبون لأمّة الإسلام ، لكنّهم غيّروا وبدّلوا ، وأصبحت الأمّة تعاني الويلات منهم ، وممّا أفسدوه في الدّين ، وذلك على مدار الزمان وتباين المكان . ولا يسعنا في هذا المقام سرد الكثير عنهم، لأنّنا سنحتاج إلى مساحة كبيرة من هذا الكتاب ، لذلك نكتفي بأخذ مثال واحد عنهم في القديم ، ومثال آخر في عصرنا الحاضر .

١- تطرّف الخوارج مع الخليفة علي ﷺ :

الخوارج هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ الذي تمّت بيعتُه من أهل الحل والعقد كما تمّت له الإمامةُ على المسلمين . وكانت فرقةُ الخوارج قد ظهرت كجماعةٍ أثناء معركة صفين التي جرت أحداثُها بين الإمام عليٍّ ومُعاويةَ رضي الله عنهما ، وتحديدًا عندما اتفق الطرفان على وقف القتال واللجوء إلى التحكيمِ إيقافًا للفتنة وحَقنًا لدماء المسلمين ومحافظةً على وحدةِ

الجيش ، ممّا أثار حفيظتهم حيث اعتبروا التحكيم نَوعًا من الحُكم بغيرِ ما أنزل الله ، فاتهموا خليفة المسلمين علي ﷺ بالخروج من الدين فاعتزلوه وكفروه وتبرَّؤُوا منه ، لأنه حَكَّمَ الناسَ في دين الله. ورفع الخوارجُ شعارَ "لا حُكمَ إلا لله" متأولين آيةً في كتاب الله : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٤٠) وكان ادّعاؤُهم هذا كلمةَ حقٍّ يُرادُ بها باطلٌ ، فمن أحرص من الإمام علي بن أبي طالب ﷺ على دين الله وتحكيم شريعته ؟ ومن بلغ منهم من الدين والتدين كما بلغ الإمام علي ﷺ حتى يُزاودوا عليه؟

لقد طالب الخوارجُ عليًّا ﷺ بالتحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ﷺ ثم خالفوه بعد ذلك وخرجوا عليه فقاتلهم في معركة النهروان فهزمهم شرّ هزيمةٍ ، ثم أخذوا بعدها يكيدون له المكائد حتى دبروا مُؤامرةً لاغتياله وقتلوه غدرًا . والسببُ الأساسيُّ لهذا الغلو كما يراه الإمامُ الشاطبيُّ رحمه الله هو : "الجهلُ بمقاصد الشريعة والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبتٍ أو الأخذُ فيها

بالنظر الأول ولا يكون ذلك من راسخٍ في العلم ألا ترى أن الخوارج خرجوا عن الدين كما يخرج السَّهمُ من الصيد المرمي"[1].

ومن عقائد الخوارج : تكفيرُ بعض الصحابة ووجوبُ الخروج على أئمّة المسلمين المرتكبين للظلم أو الفسق ، وتكفيرُ مرتكب الكبيرة والقولُ بتخليده في النار ، وإنكارُ الشفاعة ، لذلك أهدروا دم كلّ مسلمٍ لم يوافقهم على مذهبهم . قال الإمام الشهرستاني عن الخوارج : "كل من خرج على الإمام الحقّ الذي اتفقت الجماعةُ عليه يُسَمى خارجيًّا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو من كان بعدهم على التابعين لهم بإحسانٍ والأئمة في كل زمانٍ" [2] . وقال الإمامُ ابن كثيرٍ في شأنهم: "وهذا الضربُ من الناس من أغرب أشكال بني آدم فسبحان من نَوَّعَ خلقَه كما أراد وسبق في قدره العظيم وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج أنّهم المذكورون في قوله ﷻ : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞

(١) الاعتصام ج٢/ص١٨٢

(٢) الملل والنحل ج١/ص١١٤

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف ١٠٣-١٠٥) " [١] .

والخوارجُ هم أوّل الفرق الإسلامية التي ابتُليت بخللٍ فكريٍّ وعقديٍّ. وهناك من يرى أن جُذُورَ هذه الطائفة ترجع إلى زمن النبي ﷺ فعن أبي سَعِيدٍ الخدري ﷺ قال : "بَيْنَمَا النبيُّ ﷺ يَقْسِمُ جاء عبدُ اللهِ بن ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِي فقال: اعْدِلْ يا رَسُولَ اللهِ ، فقال: ويحك وَمَنْ يَعْدِلُ إذا لم أَعْدِلْ ، قال عُمَرُ بن الْخَطابِ ﷺ : ائذن لي فأضرب عُنُقَهُ ، قال دَعْهُ فإن له أَصْحَابًا يَحْقِرُ أحدُكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِم وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِم يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ ... يَخْرُجُونَ على حِينِ فُرْقَةٍ من النَّاس" قال أبو سَعِيدٍ: "أَشْهَدُ سمعتُ من النبي ﷺ وَأَشْهَدُ أن عَلِيًّا قَتَلَهُمْ وأنا معه" [٢] .
وفي روايةٍ قال النبي ﷺ : "سَيَخْرُجُ في آخِرِ الزمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلامِ يَقُولُونَ من خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيةِ، يقرأون الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ من الدينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من

---

(١) البداية والنهاية ج٧/ص٢٨٦

(٢) صحيح البخاري ج٦/ص٢٥٤٠

الرمِيةِ فإذا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فإنَّ في قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللهِ يوم الْقِيَامَةِ" (١) .

وكان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ قد حاججهم قبل قتالهم لِيُبَيِّنَ لهم وَجهَ الحقِّ الذي تجاوزوه فقال لهم : "إذا حَدَّثْتُكُمْ عن رسول اللهِ ﷺ فَلأَنْ أَخِرَّ من السَّمَاءِ أَحَبُّ إلي من أَنْ أَكْذِبَ عليه ، وإذا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، فإن الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ، سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول : يَأْتِي في آخِرِ الزمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ يَقُولُونَ من قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ من الإسلام كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَةِ لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فإن في قَتْلِهُمْ أجرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يومَ الْقِيَامَة" (٢)

وفي روايةٍ استدلَّ بها بعضُ أهل العلم على كفرهم هي أنّ النبي ﷺ قال فيهم :" لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ" (٣) .

---

(١) صحيح البخاري ج٦/ص٢٥٣٩؛ وصحيح مسلم ج٢/ص٧٤٦ (واللفظ له)

(٢) صحيح البخاري ج٣/ص١٣٢١

(٣) صحيح البخاري ج٦/ص٢٧٠٢ ؛ وصحيح مسلم ج٢/ص٧٤١

وقد أفرد الإمامُ البخاري - رحمه الله - بابًا أسماه : "بَابُ قَتْلِ الْخَوَارِجِ وَالْمُلْحِدِينَ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عليهم" [1] وذكر في الباب قولَ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٥) كما أورد رأي عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - فيهم ، حيث يراهم شرَّ خلقِ اللهِ ، وأنهم انْطَلَقُوا إلى آيَاتٍ نَزَلَتْ في الْكُفارِ فَجَعَلُوهَا في الْمُؤْمِنِينَ[2].

أما عن مقتل الإمام علي بن أبي طالب ﷺ فقد ورد أنّ النّبي ﷺ قال له يَوْمًا : "من أَشْقَى الأَوَلِينَ ؟ قال : الذي عَقَرَ الناقَةَ يا رَسُولَ اللهِ، قال : صَدَقْتَ ، فَمَنْ أَشْقَى الآخَرِينَ ؟ قال: لا عِلمَ لي يا رَسُولَ اللهِ ، قال : الذي يَضْرِبُكَ على هذه" وَأَشَارَ النبيُّ ﷺ بيده إلى يَافُوخِهِ . فَكَانَ علي ﷺ يقول لأَهْلِ الْعِرَاقِ : "أَمَا وَاللهِ لَوَدِدْتُ أنّهُ قَدِ ابْتُعِثَ أَشْقَاكُمْ فَخَضَبَ هذه - عَنِي لِحْيَتَهُ- من هذه وَوَضَعَ يَدَهُ على مُقَدِّمَةِ رَأْسِهِ وَأَشَارَ بيده إلى يَافُوخِهِ" [3].

---

(١) صحيح البخاري ج٦/ص٢٥٣٩

(٢) صحيح البخاري ج٦/ص٢٥٣

(٣) المعجم الكبير ج٨/ص٣٨

لقد كانت بداية حادثة قتل الإمام علي ﷺ أنْ اجتمع ثلاثةٌ من شرار الخوارج ، وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والبرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن بكير التميمي بمكة ، وتعاهدوا وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة : علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهم . فقال عبد الرحمن بن ملجم : أنا لكم بعلي بن أبي طالب ، وقال البرك : وأنا لكم بمعاوية، وقال عمرو بن بكير : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا على ذلك وتواثقوا على أن لا ينكص رجلٌ منهم عن صاحبه ويتوجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه ، فتواعدوا بينهم ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، ثم توجّه كل رجلٍ منهم إلى المِصْر الذي فيه من يُريد قتلَه ، فقدم عبد الرحمن بن ملجم إلى الكوفة - وهو أشقى القوم - فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يُريد وكان يزورهم ويزورونه ، فَزَارَ يومًا امرأةً منهم يُقال لها قطام بنت شجنة بن عدي وكان أبوها وأخوها قد قُتلا يوم النهروان ، فأعجبته فخطبها فقالت : لا أتزوجك حتى تُسمي لي مهرًا ، فقال : لا تسأليننني شيئًا إلا أعطيتك إياه ، فقالت : ثلاثةُ آلافٍ وقتلُ علي بن أبي طالب ﷺ، فقال والله ما جاء بي إلى الكوفة إلاّ قتلُ علي بن أبي طالب وقد

آتيتك ما سألت ، ولقي عبد الرحمن بن ملجم شبيب بن بجرة الأشجعي فأعلمه بما يريد ودعاه إلى أن يكون معه ، قال له : يا شبيب هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال وما هو ؟ قال تساعدني على قتل علي بن أبى طالب . قال له ثكلتك أمك لقد جئت شيئًا ، وكيف نقدر على ذلك ؟ قال إنه رجلٌ يخرج إلى المسجد مُنفردًا وليس له من يحرسه ، فنكمن له في المسجد فإذا خرج إلى الصلاة قتلناه فإن نجونا نجونا وإن قُتلنا سعدنا بالذكر في الدنيا وبالجنة في الآخرة . فقال : ويلك إنّ عليًّا ذو سابقةٍ في الإسلام مع النبى ﷺ ، والله ما تنشرح نفسى لقتله ، فقال ابن ملجم : ويحك إنّه حَكَّمَ الرجال في دين الله عَزَّ وجَلَّ وقتل إخواننا الصالحين فَلنَقتُلهُ ببعض من قتل فلا تَشُكَّنَّ في دينك . فأجابه شبيب وشرعا في تنفيذ الخطة التي وضعاها ، فأخذا أسيافهما ثم جلسا قبالة السدّة التي يخرج منها علي ﷺ إلى الصلاة ، وكان علي ﷺ يخرج في كل يومٍ ومعه درته يوقظ الناس فاعترضه الرجلان ، فبدره شبيب فضربه فأخطأه وضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه وقال : الحكمُ لله يا علي لا لك ولا لأصحابك ، فقال علي ﷺ : فُزتُ وربّ الكعبة لا يَفُوتَنَّكُمُ الكَلبُ ، فَشَدَّ الناسُ عليه من كل جانبٍ فأخذوه وهرب

شبيب خارجًا من باب كندة . فلمّا أمسك الناس بابن ملجم قال لهم علي ﷺ : احبسوه فإن متُّ فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإنْ لم أمت فالأمر إلي في العفو أو القصاص. وفي تلك الصلاة استُخلفَ جعدة بن هبيرة فصلّى بالناس صلاة الفجر . ومكث علي بن أبي طالب ﷺ يوم الجمعة وليلة السبت وتُوفي شهيدًا ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلةً بقيت من شهر رمضان سنة أربعين بعد الهجرة . وغسّله الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بن جعفر ، وصلّى عليه الحسنُ بن علي ﷺ ، ودُفِنَ جُثمَانُهُ الشريفُ بالكوفة عند مسجد الجماعة في الرحبة [1] .

وأمام هذا الحدث الجلل ، فإنّنا لا نملك إلاّ أن نُدرك حجمَ الكارثة التي عصفت بالأمّة وكيف أنّ أهل التطرّف والغلو تسببوا في شقّ عصا المسلمين وإضاعة هيبة وحدتهم ، فقتلوا رابع الخلفاء الراشدين ﷺ وابن عَمّ رسول الله ﷺ وحبيبه ، ووالد الحسن والحسين سادة شباب أهل الجنّة ، وزوج فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، حب رسول الله ﷺ وريحانته ، وهم بفعلتهم هذه يظنّون أنّهم يحسنون صُنعًا .

---

(١) انظر: الاستيعاب ج٣/ص١١٢٤-١١٢٥ ؛ والطبقات الكبرى ج٣/ص٣٥- ٣٨؛ والبداية والنهاية ج٧/ص٣٢٨ ؛ والمغني ج٩/ص٤

لقد تأوّلوا النصوص وحرّفوا في مرادها واجتهدوا في الدين بفقهٍ لم يأذن به الله ، فعاثوا فسادًا بدماء المسلمين وبأعراضهم . كل ذلك جاء تحت ذريعة أنّهم يريدون مصلحة المسلمين ، لقد خابوا وخاب مسعاهم . يقول الإمام الضحاك - رحمه الله - : "ولا تكونوا كأهل النهراوين تأوّلوا آياتٍ من القرآن في أهل القبلة وإنمّا نزلت في أهل الكتاب ، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وشهدوا علينا بالضلال وانتهبوا الأموال" (١)

٢- تطرّف أهل البدع والأهواء في عصرنا الحديث .

وقع الإسلامُ ضحيةً بين جهل المسلمين وكيد أعدائه ، وأصبح كثير من أدعياء الإسلام يظهرون على مسرح الأحداث بعد إبعاد المخلصين وإقصاء العاملين الصادقين ، وهو جُزءٌ من مخططٍ ماكرٍ أراده أعداءُ الدين لتشويه صورة الإسلام وَلِجَرِّ أبناء أمتنا إلى ما وقع فيه أهلُ الكتابِ من قبلنا من زَيغٍ وتحريفٍ . ولا أريد أن أسمّي الأشياء بمسمياتها ، لأنّ منهجنا هو بيان الحق بصفاته وسماته ، وبيان الباطل بزيغه وانحرافه، وكان منهج النبي ﷺ في بيان الخطأ

(١) انظر: تفسير الثعالبي ج٢/ص٢٧١

عند النّاس ، تجنّب التعيين أو ذكر الأسماء ، فجاء بصيغة (كان فيمن كان قبلكم) لأنّ الغاية والهدف هو معالجة الأخطاء وتقويم الأداء ، لا التشهير بذكر الأسماء . وهو الأقربُ إلى تحبيب النّاس بالحقّ وقبول النّصيحة .

هناك فِرَقٌ كثيرةٌ تَرفَعُ شِعَارَ الإسلامِ وتدّعي الانتماءَ إلى منهجه ، كما تبالغ في حبّ النّبي ﷺ وآل بيته الطيبين الطاهرين رضوان الله عليهم ، فتجاوز الأمر إلى التقديس وفي بعض الأحيان إلى التأليه ، حتّى أضفوا عليهم بعض صفات الله جلّ في علاه ، وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك فقال: "لا تُطْرُونِي كما أَطْرَتْ النَّصَارَى ابن مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أنا عَبْدُهُ فَقُولُوا عبد اللهِ وَرَسُولُهُ" (١)

نحن نقرّ بعلوّ مكانة الحبيب محمّد ﷺ في عقولنا وقلوبنا ، وقبل ذلك هو عظيم عند الله ، وقد رفع الله من قدْره ومكانته ، ومع ذلك فهو بشر مثلنا ، محكوم بسمات بشريّته ، لكنّ الله ميّزه بالنبوّة والرسالة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت ٦) فلا مغالاة

(١) صحيح البخاري ج٣/ص١٢٧١

في مدحه ، ولا تطرّف في محبّتة، لتكون الغاية منها اتّباع هديه واقتفاء أثره ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران ٣١) فحَكَمَ المحبّة بالاتّباع لا الابتداع ، ليتميّز أهل الصدق من أهل الكذب والدَجَل ، فإذا تجاوزت هذه الأمّة حدود مراد الله في أمر نبيّه ورسوله ، فستقع فيما وقع فيه اليهود والنّصارى مع أنبيائهم ورسلهم ، فقالوا بألوهيّتهم ، وأنّهم أبناء الله ، وقد نفى الحقّ ﷻ هذه الأباطيل جملة وتفصيلا وذلك بقوله : ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون ٩١ و ٩٢)

عن أنس بن مالك ﷺ أَنَّ رَجُلاً قال : يا محمد يا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا فقال رسول اللهِ ﷺ : "يا أَيُّهَا الناس عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ أنا محمد بن عبد اللهِ ، عبد اللهِ وَرَسُولُهُ ، والله ما أُحِبُّ أَنْ ترفعوني فَوْقَ منزلتي التي أنزلني الله

عز وجل." [1] وفي رواية عن مُطَرِّفٍ بن عبد الله بن الشخير ﷺ قال : قال أبي انْطَلَقْتُ في وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إلى رسول اللهِ ﷺ فَقُلْنَا أنت سَيِّدُنَا فقال السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلا وَأَعْظَمُنَا طَوْلا فقال قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أو بَعْضِ قَوْلِكُمْ ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ" [2] فكره رسول الله ﷺ من أصحابه المدح لئلا يفضي ذلك إلى التطرّف والغلو ، ولأجل احترام مقام الله جلّ شأنه ، وصيانة توحيده تبارك وتعالى. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّ رَجُلاً قال : يا رَسُولَ اللهِ ما شَاءَ الله وَشِئْتَ فقال جعلتني لِلَّهِ عَدْلاً بَلْ ما شَاءَ الله وَحْدَهُ"[3] كما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره عيدا ومسجدا، فعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : لاَ تَتَّخِذُوا قبري عِيداً وَلاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عليّ فإن صَلاَتَكُمْ تبلغني" [4] ليسدّ الذرائع المؤدية للابتداع والشرك . قال الحقّ ﷻ :

---

(١) سنن النسائي الكبرى ج٦/ص٧١ ؛ ومسند الإمام أحمد ج٣/ص١٥٣.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأدب ، باب كراهية المدح سنن أبي داود ج٤/ص٢٥٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ج٣ / ص٢٢٦

(٣) سنن النسائي ج٦/ص٢٤٥ ؛ مسند أحمد ج١/ص٢٨٣ (واللفظ له)

(٤) مسند أحمد بن حنبل ج٢/ص٣٦٧

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩ و ٨٠)

وممّا سبق من تحذير فإنّه ينجرّ على من غالى في حبّ آل بيت النبي ﷺ فتجاوز المعقول والمنقول . ولا نريد أن ندخل في تفصيلات الواقع المؤلم ، وما شهدته الأمّة من ممارسات مشينة في الدين ، وغريبة على هدي النبيّ ﷺ ، بل جرّت بأمّتنا إلى الانحراف في العقيدة ، وأحيانا إلى مسخها ، حتّى عمّت الفوضى في طقوس النّاس ، فضلّ الكثير في سعيهم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف ١٠٣ و ١٠٤)

لقد مارس بعض النّاس أحكام الدّين كما يريدون لا كما يُريد الحقُّ سبحانه وتعالى ، وبعضهم أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان ، بل تجدهم يجهل أبجديات الدين وأساسياته . فلهم طقوسٌ غريبةٌ وأعمال عجيبةٌ ، ينسبون ما يفعلون إلى الدّين والتديّن ، ويحاربون

أهل الاستقامة ، وينصبون العداء لأهل التوحيد ، ولا يجدون في أنفسهم حرجًا من أن يسفكوا دماءَ مخالفيهم ولو كانوا من داخل أمة الإسلام ، يتعاملون مع الشيطان بلا حرجٍ ، ومع أعداء الدين بلا استحياءٍ ، هم لدمار الدّين أقرب منهم لصلاحه، ولتشويه معالم الدين أقرب لصفائه ، ومهما حاولنا التقرب منهم والتودد إليهم لأجل نصيحتهم وإصلاح أحوالهم ، فإننا نجدهم لنا أعداءً ومخاصمين .

وهذه الفِرَقُ الكثيرةُ والملَلُ العديدةُ إنمّا تحكي واقعًا أخبر عنه النبيُّ ﷺ من زمنٍ بعيدٍ في قوله: "افْتَرَقَت الْيَهُودُ على إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَوَاحِدَةٌ في الْجَنةِ وَسَبْعُونَ في النار ، وَافْتَرَقَت النَّصَارَى على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ في النَّارِ وَوَاحِدَةٌ في الْجَنةِ ، وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَتَفْتَرِقَنَّ أُمتِي على ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَاحِدَةٌ في الْجَنةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ في النارِ ، قِيل : يا رَسُولَ اللهِ من هُمْ ، قال : الْجَمَاعَةُ" [1] وفي رواية : "إن بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرقَتْ على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمتِي على ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ

(١) سنن ابن ماجه ج٢/ص١٣٢٢

مِلَّةً ، كلّهم في النارِ إلا ملّةٌ واحدةٌ ، قالوا : وَمَنْ هِيَ يا رَسُولَ الله؟ قال : ما أنا عليه وَأَصْحَابِي" [1] .

إنّ أساس السلوك المتطرف لدى بعض المسلمين ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات ، يرجع إلى الجهل بالدين ، والخلل في الاعتقاد ، والتقليد الأعمى بمن ضلّلهم وحرَفَهم عن الطاعة والاتّباع الصحيح ، وهو المظهر السائد في واقع المسلمين اليوم .

وللأسف فقد عَادَ شرُّ هذا المظهر على الإسلام وسُمعته ، حتى أصبح بعضُنا فتنةً للذين آمنوا وكذلك للذين كفروا ، فكيف لغير المسلم أنْ يعتنق الإسلامَ أو يقتنع به وهذا السلوك الشائن في تصرفات المسلمين لا يزال يطفو على واقع سلوكيات الكثير من أبناء الأمّة ؟ بل كيف يجد غير المسلم ضالته عند أهل الخرافات والضلالات ؟ فالناس يبحثون عن القدوة الإسلامية قبل الإسلام ، وعن خُلق المتدين قبل الدّين ، وهذا يذكرنا بأهميّة دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الممتحنة ٥) .

---

(١) سنن الترمذي ج٥/ص٢٦

فلا بدّ للمسلم أن يحدِّدَ موقفه من أهل البدع والضلالات ناهيك عن أهل الخرافات والخزعبلات ، فديننُا أغلى وأعزُّ من أن نداهن النّاس على حساب الحقّ الذي جاء به ، أو أن نرضى بالواقع بما فيه من دَخَن . أمّا عن أهل الزيغ والضلال ، الذين يتبعون المتشابه في الدين، لأجل الفتنة وتشويه الأحكام ، يقول الحقّ سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران ١) فهم لا يريدون الخير للمسلمين ، بل إنّهم يبتغون الفتنة ويتقصَّدُونَ الشر ، فنواياهم ليست سليمةً لأنّ المرض تمكّن من قلوبهم ، ولهذا تراهم يسلكون شتى السبل لصدّ الناس عن الاستقامة، وكان النبي ﷺ قد حَذَّرَ من هؤلاء كما روت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها : "قَرَأَ رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآيةَ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ قالت : فقال رسولُ اللهِ ﷺ : فإذا رَأَيْتُمْ الذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه فَأُولَئِكَ

الذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ" [1] لم يقل (فجالسوهم أو صاحبوهم) بل قال فاحذروهم ، لأنّهم يُشككون في كتاب الله ، ويُضللون الناس عن صحيح أحكام الله ، ويُثيرون الشبهات حول نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية . فليس من متسع للمسلم بأن يحسن الظنّ بأمثال هؤلاء ، بل لا بُدَّ من الحذر منهم. يقول الإمامُ سلام بن أبي مطيع البصري - من خطباء البصرة وفقهاء العراق في زمانه - : "لأن ألقَى اللهَ بصَحِيفةِ الحَجَّاجِ أَحَبُّ إليّ مِن ألقَاهُ بِصحِيفةِ عَمرو بن عبيد" [2] وكان عمرو بن عبيد عابدًا زاهدًا لكنّه كان مُبتدعًا وضالاً. فيرى أنّه لو خُيِّرَ أن يلقى الله بصحيفة الحَجَّاجِ أو صحيفة عمرو بن عبيد ، لاختار أن يلقى الله بصحيفة الحجاج ، مع ما فيها من ظلم للعباد وسفك لدمائهم. لماذا ؟ لإدراكه خطورة البدعة في الدين وشناعتها. ويقول كذلك عن الجهمية (من أهل البدع والأهواء) : "الجهميةُ كفّارٌ لا يُصلى خلفهم" [3] والمحدثات في الدين هي من شر الأمور لقوله ﷺ : "فإن خَيْرَ الحديث كِتَابُ اللهِ وَخَيرَالهديِ هَديُ

---

(١) سنن أبي داود ج٤/ص١٩٨؛ ومسند أحمد ج٦/ص٢٥٦

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال ج٣/ص٢٥٩

(٣) سير أعلام النبلاء ج٧/ص٤٢٩

مُحَمَّدٍ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ" [1]. والغريب أنّ كثيرًا من أصحاب البدع يتبعون سادتهم وشيوخهم بلا تفكيرٍ كاتباع الخراف لراعيها وقائدها ، ولعلّهم بهذا الانقياد الأعمى يكونون الأقرب إلى وصف الله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ (التوبة ٣١) لأنّهم يُقَدِّمُونَ طاعة أمرائهم وسادتهم وقادتهم على طاعة الله ورسوله ، ويُخشى أن يلقوا الله بهذه الإجابة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب ٦٧و٦٨). خُصوصًا من يتبع هواه ويبتدع في الدين لينصر الباطل على الحقّ مع الإصرار والعناد . يقول النبي ﷺ : "من دَعَا إلى هُدًى كان له من الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ من تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلك من أُجُورِهِمْ شيئًا ، وَمَنْ دَعَا إلى ضَلالَةٍ كان عليه من الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ من تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلك من آثَامِهِمْ شيئًا" [2] .

كم نجد في أيّامنا هذه من يعتلى منبر الضلالة ويدعو النّاس إليها ، ولا يخشى عاقبة أمرها ، فتلحقُه من الآثام والذنوب ما لا

---

(١) صحيح مسلم ج٢/ص٥٩٢

(٢) صحيح مسلم ج٤/ص٢٠٦٠

يعلمه إلاّ الله ، وهؤلاء كُثرٌ بين النّاس ، منهم الحكامُ المتجبرون ، ومنهم العلماء الضالّون المضلّون الذين اشتروا الضلالة بالهدى فباعوا دينهم بعرض من الدنيا قليل ، كما باعوا مرضاة الله برضا أسيادهم ، فخابوا وخاب مسعاهم ، فإنّ أمثال هؤلاء هم دَخَنُ النّاس الذين أخبر عنهم النبي ﷺ فيما يرويه الصحابي الجليلُ حُذَيْفَةُ بن الْيَمَانِ بقوله : "كان الناس يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عن الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عن الشر مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي ، فقلت: يا رَسُولَ اللهِ إنّا كنا في جَاهِلِيةٍ وَشَرّ فَجَاءَنَا اللهُ بهذا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هذا الْخَيْرِ من شَرٍّ؟ قال : نعم ، قلت : وَهَلْ بَعْدَ ذلك الشر من خَيْرٍ ؟ قال : نعم وَفِيهِ دَخَنٌ ، قلت : وما دَخَنُه ؟ قال : قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ منهم وَتُنْكِر ، قلت: فَهَلْ بَعْدَ ذلك الْخَيْرِ من شَرّ ، قال: نعم دُعَاةٌ إلى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ من أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فيها، قلت : يا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لنا ، فقال : هُمْ من جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا ، قلت: فما تَأْمُرُنِي إن أَدْرَكَنِي ذلك ، قال : تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ ، قلت : فَإِنْ لم يَكُنْ لهم جَمَاعَةٌ ولا إمامٌ ؟ قال : فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حتى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ على ذلك" (١).

---

(١) صحيح البخاري ج٣/ص١٣١٩؛ وصحيح مسلم ج٣/ص١٤٧٥

المبحث السادس

إخبار النبي ﷺ عن تطرفٍ قادمٍ

أخبر النبي ﷺ عن تغيّر النّاس في آخر الزمان، حيث تنقلب الموازين، وتتبدّل الأحوال، لتعيش الأمّة أوضاعا متطرّفة غريبة عن ديننا وقِيَمنا، وموقفنا من هذا الإخبار ، هو التصديق بما صحّ عن رسول الله ﷺ فيه ، ومن خلال ذلك لنا أن نستشرف المستقبل ونتحوط للقادم من أحداث الزمان ومُتغيرات الأيام ، وهذا يوفّر علينا الجهد والزمن . وفي نفس الوقت ، فإنّنا لا نُخدَعُ بمكر الماكرين أو تضليل المضللين ، لأننا نُدركُ بيقينٍ أنّ ما حَدَّثَ به ﷺ سيكون أمرا واقعا بلا ريب . وهذا من حرصه ﷺ على سلامة أمته واستقامة أهل الإيمان على منهج الله . ومن بين تلك الأخبار التي حَدَّثَ عنها النبي ﷺ نذكر منها قوله :

١ - "سَيَأْتِي على الناس سَنَوَاتٌ خَداعَاتٌ يُصَدَّقُ فيها الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فيها الصادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فيها الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فيها الأَمِينُ وَيَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ ، قِيل : وما الرُّوَيْبِضَة ؟ قال الرَّجُلُ التَّافِهُ

يتكلم في أَمْرِ الْعَامّةِ" [1] . وها نحن نعيش واقع الأمر في وعد رسول الله ﷺ .

٢ - لَتَتْبَعُنَّ سنن من كان قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشبرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حتى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ ، قُلْنَا : يا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنصَارَى؟ قال: فَمَنْ" [2] .

٣ - "صِنْفَانِ من أَهْلِ النارِ لم أَرَهُمَا ، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بها الناسَ ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُؤوسهن كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنّةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإن رِيحَهَا لَيُوجَدُ من مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا" [3].

٤ - "لا تَقُومُ الساعَةُ حتى يَكْثُرَ الْهَرْجُ ، قالوا : وما الْهَرْجُ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : القتل القتل" [4] .

---

(١) سنن ابن ماجه ج٢/ص١٣٣٩؛ وكنز العمال ج١٤/ص٩٨

(٢) صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٦٩ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص٢٠٥٤

(٣) صحيح مسلم ج٤/ص٢١٩٢

(٤) صحيح مسلم ج٤/ص٢٢١٥

٥ - "لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عن جَبَلٍ من ذَهَبٍ يَقْتَتِلُ الناسُ عليه فَيُقْتَلُ من كلّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَيَقُولُ كُل رَجُلٍ منهم لعلي أَكُونُ أنا الذي أَنْجُو" (١) وفي روايةٍ أخرى : "يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عن كَنْزٍ من ذَهَبٍ فَمَنْ حَضَرَهُ فلا يَأْخُذْ منه شيئًا" (٢).

٦ - "وَالذِي نَفْسِي بيده لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حتى يَمُرُّ الرجُلُ على الْقَبْرِ فَيَتَمَرغُ عليه وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي كنتُ مَكَانَ صَاحِبِ هذا الْقَبْرِ وَلَيْسَ بِهِ الدّينُ إلا الْبَلاءُ" (٣) .

٧ - "وَالذِي نَفْسِي بيده لا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حتى يَأْتِيَ على الناس يَوْمٌ لا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ولا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ" (٤) .

---

(١) صحيح مسلم ج٤/ص٢٢١٩

(٢) صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٠٥ ؛ وصحيح مسلم ج٤/ص٢٢١٩

(٣) صحيح مسلم ج٤/ص٢٢٣١

(٤) صحيح مسلم ج٤/ص٢٢٣١

٨ - "سَيَكُونُ في آخِرِ الزمَانِ خَسْفٌ وَقَذْفٌ وَمَسْخٌ، قِيلَ : وَمَتَى ذلك يا رَسُولَ اللهِ؟ قال : إذا ظَهَرَتِ الْمَعَازِفُ وَالْقَيْنَاتُ وَاسْتُحِلتِ الْخَمْرُ"(١).

٩ - "سَيَكُونُ في آخِرِ الزمَانِ شرطةٌ يَغْدُونَ في غَضَبِ اللهِ وَيَرُوحُونَ في سَخَطِ اللهِ فَإِياكَ أن تَكُونَ من بِطَانَتِهِمْ" (٢) .

وهذه الأحاديثُ جُزءٌ من أحاديث كثيرةٍ تُؤكد صدقَ وعدِ رسول الله ﷺ فمنها ما شاهدناه وعشناه في زماننا ، وما بقي فهو في طَيِّ الوعد النبوي ولا مجال لإنكاره أو الظنّ بعدم تحققه ، فنبيُّ الله ﷺ هو الصادقُ فيما حَدَّثَ والمصدوق عند الله ، ولن يخلفَ اللهُ ما وعده .

---

(١) المعجم الكبير ج٦/ص١٥٠ ؛ ومجمع الزوائد ج٨/ص١٠

(٢) المعجم الكبير ج٨/ص١٣٦؛ ومسند الشاميين ج١/ص٣١٠

الفصل الثالث

حفظ الله لأنبيائه من التطرّف

المبحث الأوّل : مفهوم العصمة والحفظ

المبحث الثاني : أمثلة عن حفظ الله للأنبياء

المبحث الثالث : حفظ الله لرسوله ﷺ من التطرّف

تمهيد

يُعَدُّ الزلل والخطأ من السمات المميزة للجنس البشري وليس لأحدٍ من النّاس أن يتجاوز هذه السمات إلاّ الأنبياء والرّسل ، فقد عصَمهم الله تحت مظلة الوحي لكونهم موطن القدوة وسبيل الاتباع . فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا يرتكبون الفواحش أو الكبائر، ولا يكذبون ولا يغفلون ، وهم خيرُ خلق الله ، وقد شهد الله لهم بذلك في مواطن عديدة من القرآن الكريم ، وبالأخص محمّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فقد شهد الله له بخصالٍ كثيرة وبصفات عظيمة، فمنع عنه النسيان ليحفظ وحيه ورسالته ، قال ﷻ: ﴿سنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ (الأعلى ٦) أي فلا ينسى رسولُ الله ﷺ ما أُمِرَ بتبليغه إلاّ ما كان منسوخًا فقد يُنسِهِ الله إيَّاهُ كما في قوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة ١٠٦). وكذلك شهد الله له بسموّ الأخلاق ورفعتها، فخاطبه بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وزكّى الله رسالته ودعوته فقال : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ كما زكّى لسانه فقال : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم ١-٤). وفي هذا الفصل نتحدث - إن شاء الله - عن مفهوم العصمة والحفظ ، مع ذكر أمثلة في ذلك ، وذلك في ثلاثة مباحث :

المبحث الأوّل

مفهوم العصمة والحفظ

الأصل أنّ الأنبياء والرسل يعتريهم ما يعتري سائر البشر من العوارض والأمراض والخطأ أو الزلل ، إلاّ أنّ الله تبارك وتعالى قد عصمهم من الوقوع في الكبائر ومن الوقوع في الصغائر التي تدل على خساسةٍ في الطبع ، وسوء في السلوك ، وذلك حفظًا لِعُلُوّ مكانتهم ورفعة شأنهم . أما صغائر الذنوب التي لا تدل على دُنُوٍّ في الطبع أو المنزلة ، فمن الجائز أن تقع من الأنبياء والرسل ، وهذا الأمر لا يَقدَحُ في عصمتهم ولا يُخِلُّ بوجوب الاقتداء بهم كما بَيَّنَ الله تعالى في قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ (الأنعام ٩٠) ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يتركهم على الخطأ إنْ وقع منهم، بل يُنزل عليهم الوحي لتصحيحه وتصويبه .

وقد يسألُ سائل : إذا كانت العصمة لازمةً في حق الأنبياء ، فلماذا يقع الخطأ منهم حتى وإن كان صغيرًا ؟ وإجابةً على مثل هذه التساؤلات فإننا نُبَيِّنُ أنّ وقوع الخطأ من الأنبياء لا يُؤثر على

سلامة منهج الله أو على طريقة تبليغه للنّاس ، ثم إنّه من مُقتضى رحمة الله بالأنبياء والرسل أنّه لم يحرمهم من كرامة وأجر التوبة والإنابة ، قال تعالى في ما يخص آدم عليه السلام: ﴿فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧) وقال عنه أيضًا : ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه ١٢١و١٢٢). وفيما يخص داود عليه السلام قال الله عز وجل : ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ ﴾ (سورة ص ٢٥) وكذلك قولُ النبي ﷺ عن نفسه: " واللهِ إني لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إليه في الْيَوْمِ أَكْثَرَ من سَبْعِينَ مَرَّةً" (١).

قال الإمام ابن تيميةَ - رحمه الله - : "إنّ القول بأنّ الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف ، وهو أيضًا قولُ أكثر أهل التفسير والحديث

(١) صحيح البخاري ج٥/ص٢٣٢٤

والفقهاء، بل لم يُنقَل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلاَّ ما يُوافقُ هذا القول" [1] .

وجاءت شواهدٌ عديدةٌ في الكتاب والسنة تدل على جواز وقوع الخطأ من الأنبياء عليهم السلام ، وكيف أنّ الله حفظهم من الاستمرار فيه ، أو الاصرار عليه ، بل صحّح لهم المسيرة ، وأتمّ عليهم نعمة الصواب بوحيه وتنزيله . وسنذكر أمثلة من ذلك إن شاء الله تعالى . وعلى وجه العموم فإنّ حفظ الله لرسله كان على نوعين:

الأول : حفظ عام ، وهو منع وقوع قتلهم لأجل إتمام مهمّة الرسالة ، لذلك وعد الله نبيّه محمد ﷺ بالحفظ فقال له : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ٦٧) كما حفظ الله إبراهيم عليه السلام لمّا ألقي في النّار ، قال ﷻ : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُ

(١) مجموع الفتاوى ج٤/ص٣١٩

وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ٦٨-٧١) وفي ذلك دليل على تحقيق وعد الله في حفظه ونصره لرسله الكرام .

وقد يحفظ الله حياة كثير من عباده المؤمنين وإن لم يكونوا من الأنبياء والرسل ، وذلك لحفظهم حدود الله ورعايتهم لحقّه سبحانه ، فكانت قصّة أبي مسلم الخولاني (عبد الله بن ثوب) [1] - رحمه الله - شبيهة بقصة إبراهيم عليه السلام . فلقد عاش أبو مسلم الخولاني في زمن الكذّاب الأسود العنسي الذي ادّعى النبوة ، وأخذ يلزم النّاس إلزاما بأنّ يشهدوا بأنّه نبيّ من عند الله ، ومن لا يفعل فجزاءه القتل ، وكان الخولاني ممّن وقع تحت هذا الامتحان الصعب فاستدعاه الكذاب وقال له : أتشهد أن لا إله إلاّ الله ؟ قال: نعم ، قال : أتشهد أنّ محمد رسول الله؟ قال : نعم ، قال: أتشهد أنّي رسول من عند الله ؟ قال : ما أسمع شيئاً، فرددها علية وهو يقول ما أسمع شيئاً ، فغضب غضباً شديدًا فجمع الناس وقال : أيها النّاس إنْ كان هذا على الحق

---

(١) هو من سادة التابعين ومن زهّاد عصره، أسلم في أيام النبي ﷺ لكنّه لم يره، قدم من اليمن ودخل المدينة في خلافة أبي بكر الصديق. رضي الله عنه توفي سنة إحدى وستين هجرية (أنظر: سير أعلام النبلاء ج٤/ص٨؛ وتاريخ الإسلام ج٥/ص٢٩٢؛ والنجوم الزاهرة ج١/ص١٥٤)

فسينجيه الحق وانْ كان على الباطل فسترون ماذا يفعل الله به ، ثم أمر بنار عظيمة فأوقدت ثم ربّط أبو مسلم الخولاني بالأربطة فأرادوا أن يقذفوه في النّار فلم يستطيعوا أن يقتربوا منها من هولها وحرها فجعلوه على المنجنيق ثم قذف به عن بعد فوقع في النار ثم خرج منها يمشي على رجليه وما أصابته بأذى . فقيل للأسود بن قيس إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك من اتبعك فأمره بالرحيل فقدم المدينة وقد قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر الصديق ﷺ فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد النبوي ودخل يصلي إلى سارية فبصر به عمر بن الخطاب ﷺ فقام إليه ، فعلم أنّه من أهل اليمن، فسأله عن أمر الفتى الذي أُحرق بالنّار ، فأخبره أنّه لم يحترق . فتفرس فيه عمر أنّه هو فقال أقسمت عليك بالله أنت أبو مسلم ؟ قال نعم ، فاعتنقه عمر ﷺ وبكى ثم ذهب به وأجلسه فيما بينه وبين أبي بكر الصديق فقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمّة محمد ﷺ من صُنع به كما صنع بإبراهيم خليل الرحمن فلم تضره النّار. (١)

---

(١) أنظر: صحيح ابن حبان ج٢/ص٣٣٩ ؛ وميزان الاعتدال ج٣/ص٣٦٩ ؛ والاستيعاب ج٤/ص ١٧٥٨ ؛ والخصائص الكبرى ج٢/ص١٣٣.

الثاني : حفظ الأنبياء من التطرّف في السلوك أو الاعتقاد ، سواء في فعل الكبائر ، أو الوقوع في المحرمات عموما ، وحتّى إنْ وقع خطأ ما من أيّ نبي أو رسول ، فسرعان ما يقوّمه الحقّ سبحانه ، ليصون منهجه ورسالته . من ذلك حفظ الله لنبيّه الصدّيق يوسف عليه السلام من كيد النّسوة، ومن شراك امرأة العزيز ، وهي من أخطر الفتن التي حدثت له . وقد يسأل سائل : هل هذا النوع من الحفظ خاصّ بالأنبياء والرسل ، أم يجوز الوقوع لغيرهم من الأتباع؟

لقد كان الاخلاص في العبوديّة لله سببا لمنجاة يوسف عليه السلام في محنته مع إمرأة العزيز ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤) وصَرْفُ السوء عنه متصل بعبوديته واخلاصه لله . ولا يبعد أن يكون مثل ذلك الحفظ لكلّ من لبس ثوب الاخلاص ، واتقى الله تعالى في السرّاء والضرّاء ، لاتصال سنن الله بعللها لا بأشخاصها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس١٠٣) فالنجاة متصلة بالإيمان .

وهناك بعض الروايات تشير إلى امتداد الأمر خارج مظلة الرسالات، لتشمل عموم المؤمنين الذين أكرمهم الله بالحفظ من

الوقوع في الخطأ ، وصانهم من ارتكاب الفواحش ، من ذلك قصّة شاب وقع في شراك فتنة إحدى النساء ، فنجّاهّ الله من الفتنة كما نجّى نبيّه يوسف عليه السلام . فعن حصين بن عبد الرحمن قال : " بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلّها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عمر يتفقده إذا غاب فعشقته امرأة من أهل المدينة فذكرت ذلك لبعض نسائها فقالت أنا أحتال لك في إدخاله عليك فقعدت له في الطريق فلما مرّ بها قالت له إنّي امرأة كبيرة السنّ ولي شاة لا أستطيع أن أحلبها فلو دخلت فحلبتها لي - وكان أرغب شيء في الخير- فدخل فلم ير شاة فقالت اجلس حتى آتيك بها فإذا المرأة قد طلعت عليه فلما رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت فقعد فيه فأرادته عن نفسه فأبى وقال : اتقي الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تكف عنه ولا تلتفت إلى قوله ، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا فقالت إنّ هذا دخل علي يريدني عن نفسي فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه فلما صلّى عمر الغداة فقده فبينا هو كذلك إذ جاءوا به في وثاق فلما رآه عمر قال : اللهمّ لا تخلف ظنّي به قال : مالكم قالوا استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه وأوثقناه فقال عمر رضي الله عنه : اصدقني فأخبره بالقصة على

وجهها فقال له عمر ﷺ : أتعرف العجوز فقال : نعم إنْ رايتها عرفتها . فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاء بهن فعرضهن فلم يعرفها فيهن حتى مرت به العجوز فقال : هذه يا أمير المؤمنين فرفع عمر ﷺ عليها الدرّة وقال : أصدقيني فقصّت عليه القصّة كما قصّها الفتى فقال عمر: الحمد لله الذي جعل فينا شبيه يوسف عليه السلام ". (١)

(١) روضة المحبين ج١/ص٤٦٢

المبحث الثاني

أمثلة عن حفظ الله للأنبياء

وفي هذا المبحث سأتحدّث إن شاء الله عن حفظ الله للأنبياء قبل الحديث عن حفظ الله للنبي ﷺ حيث أفردت له مبحثا مستقلا ، والأمثلة في هذا المبحث للبيان لا للتفصيل .

١- أكل آدم عليه السلام من الشجرة التي نُهِيَ عنها

قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم وردت في سبعة مواطن (في البقرة و الأعراف و الحِجر و الإسراء و طه و الكهف و ص) وذلك بدرجات متفاوتة في الطول والقصر ، وبمجموعها تشكّل صورة متكاملة مترابطة ، ولأجل الاختصار في الحديث عن ذكر أكل آدم عليه السلام من الشجرة، أكتفي بما ورد في سورة البقرة ، في قوله ﷻ : ﴿وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (البقرة ٣٥ ، ٣٦)

وبالرغم من وقوع الخطأ من أبينا آدم عليه السلام ، فقد صان الحقّ ﷻ نبيّه من تكراره أو من الاستمرار فيه ، ففتح له باب التوبة والإنابة ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧) ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه ١٢٢) فلم يصرّ آدم عليه السلام على الخطأ بل بادر بالتوبة والإنابة .

وهنا يتساءل بعض الناس : بما أنّ الله ﷻ فتح باب التوبة لأبينا آدم عليه السلام وقبل توبته ، فلِمَ لم يفتح الباب لإبليس لأن يتوب ، ولم يعطه فرصة العودة والإنابة ؟ والجواب على هذه الشبهة ، هو أنّ الشيطان كان رمزا للشرّ والغواية والمعصية ، خلقه الله من جنس النّار فكان سببا في اعتراضه على أمره ، وامتناعه عن السجود له ، قال الحقّ سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف ١١- ١٣) وبفعل الشيطان هذا يكون قد ردّ الأمر على الآمر ، وهو من أخطر أنواع المعاصي التي تصدر عن جنس المكلفين ، فمعصية الشيطان لا تُقارن بمعصية آدم عليه السلام، وما

يتوهمه بعض النّاس من اشتراك المعصية بينهما هو خطأ ، وذلك للأسباب التالية :

أ - إنّ آدم عليه السلام كان يُقرّ بالعبودية المطلقة لله رب العالمين ، ولم يردّ الأمر على الآمر مثلما فعل إبليس ، وإنما غلبت عليه طبيعته البشرية ، وفترت عزيمته ، ونسي في لحظة ضعف ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه ١١٥) فكانت رحمة الله قريبة منه ، والتوبة لصيقة به ، على خلاف نوع معصية إبليس التي طُرد بسببها من رحمة الله.

ب - إنّ معصية إبليس أنشأها هو بنفسه دون تأثير المخلوقات عليه، رغبة منه في وقوعها ، وإصراراً على ديمومتها . أمّا معصية آدم فسببها الأول غواية الشيطان وخداعه له ، وفي لحظة ضعف منه أصبح فريسة لغواية إبليس ، وضحيّة لوسوسته . ومن رحمة الله عليه أنْ منحه سبيل النجاة والخلاص ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧) فكانت تلك الكلمات مفتاح باب التوبة وقبولها ، وطريق الفلاح لآدم عليه السلام ومن بعده لذريّته . وهي أوّل تجربة للسلوك الخاطىء في حياة البشر ، داخل دائرة المنهج الرباني ، يُقابلها أوّل عفو وتوبة من التوّاب

الرحيم، ليعشق المكلفون التوبة عند وقوعهم في الخطأ أو المعصية، فلا يأس من رَوْح الله ، وعندها تستقيم الحياة بعد اعوجاجها ، ليعيش العبد في طُهْر بعد أن شابته آثام المعاصي .

٢- دعاء نوح عليه السلام بنجاة ابنه العاق

حيث كان موقفا فريدا بين الأب الرحيم المشفق على ولده ، والابن الجاحد بِنِعَمِ اللهِ والعاق لوالده ، وذلك في مشهدٍ تهتز له القلوبُ وتدمع له العيونُ ، قال الحقّ ﷻ : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود ٤٥-٤٧) .

إنّ عاطفة نوح عليه السلام نحو ولده أمرٌ فِطريٌّ ، أما منعُ الله له من الشفاعة لولده فهو أمرٌ منهجيٌّ يرتكز على ميزانٍ عقديّ يعلو فوق عواطف البشر ونوازع الفطرة الأبوية ؛ فنوحٌ عليه السلام يصرخ في ولده صرخة الأب المكروب وهو يرى الموت يحيط به من كل مكانٍ

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود ٤٢) لَكِنَّ الولدَ العَاقَّ يُقابلُ الرحمة بالعقوق والعاطفة بالنكران ، فطلَبَ النجاة باختيار طريق الهلاك ، وأجاب والده بحماقة الجاهل المغرور ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (هود ٤٣) وعندها فقط تجسدت الحقيقةُ الإيمانيةُ والمفاصلةُ العقائديةُ التي أدركها نوحٌ عليه السلام ، وتجاهلها ابنُهُ العاق حتى أصبحت واضحةً جليةً أمام عينيه بعد فوات الأوان .

وندخل هنا في ميدان الصراع النفسي البارز في هذه القصة ، فينابيعُ العاطفة تتفجر في قلب الأب الحزين باقتراب هلاك ابنه ، ويُعزز هذه العاطفة أَمَلٌ ضعيفٌ في قلب النبي الكريم بسلامة ابنه وعودته إليه. ويقينًا مِنهُ بِسِعَةِ رحمةِ اللهِ خُصوصًا وقد غلب على ظن نوحٍ عليه السلام أنّ الله قد وعده بنجاة أهله ، فلِمَ يَغرق الولد وهو من أهله ؟ فانطلقت كلماتُ الدعاء والرجاء من لسان رسولٍ كريمٍ من أولي العزم من الرسل ، بل هو أوّلهم زمنًا وأقدمهم تاريخًا ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَاكِمِينَ ﴾ (هود ٤٥) وهنا يصحح الحقُّ سبحانه وتعالى تصورًا وفهمًا جَانَبَ نوحٌ عليه السلام الصَّوَابَ فيه ، ليحمي اللهُ تعالى نبيه الكريم من أن ينزلق في تطرفٍ عقديٍّ فيتجاوز محبوبات الحق سبحانه وتعالى في مُراده ومنهجه ، فلا شيء أغلى من منهج الله ، ولا وشيجة أقوى من وشيجة الإيمان ، ولا مجالَ للمساومة على حساب الحق ، وما أرسل الله رسله إلاّ لأجل إحقاق الحقّ ونصرته ، فإن جاء الدعاءُ والطلبُ مُوافقًا للحق كان مُستجابًا ، وإن جاء خلافَ ذلك فهو مردودٌ ولو دعا به خيرُ الخلق وهم أنبياء الله ورسله .

ويأتي جوابُ الله لرسوله نوحٍ عليه السلام مُحققًا لنواميس العقيدة ، ومُعززًا لوشائج الإيمان ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود ٤٦) وحاشا لنوح عليه السلام أن يكون من الجاهلين ، لكن التحذير الإلهي جاء خشية وقوع اللبس مرةً ثانيةً أو تكرار الطلب ، فلم يملك نوحٌ عليه السلام بعد وعظِ اللهِ له إلاّ أن يسارع الخُطى نحو الاعتذار وطلب المغفرة من ربّه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود ٤٧) فمرضاةُ الله سبحانه وتعالى مقدمةٌ على كلّ شيء في الحياة ، فما قيمة

الولد والأهل والمال إن كان في حبّهم ما يُغضب الله ، أو في قربهم ما يُبعدنا عن الله ، فكل ما نملك في حياتنا معبدٌ لله رب العالمين.

٣- طلب يوسف عليه السلام الخروج من السجن :

قال الحقّ ﷻ : ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف ٤٢) [١] وفي الآية دليلٌ على وجود الحاجة لاكتمال مراحل الإعداد للدعوة والإصلاح في شخصية يوسف عليه السلام وأنّ المطلوب في المرحلة القادمة لم يكتمل بعدُ فيه ، فلبث في السجن زيادةً في المدة ليكتمل الاستعدادُ .

يقول ابن القيم - رحمه الله - : "لمـّا طلب آدم الخلود فى الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها ولـمّا طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين" [٢] ومن هنا نجدُ فرقًا كبيرًا بين رغبة يوسف عليه السلام في الخروج من السجن في

---

(١) هناك من ينسب النسيان إلى يوسف عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربّه﴾ والصواب أنّ الشيطان هو الذي أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه.

(٢) الفوائد ج١/ص٣٢

بداية الأمر ، وبين موقفه لماّ أَرسَلَ الملكُ في طلبه بقصْد إخراجه من السجن بعدها ببضع سنين ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف ٥٠) فيا عجبًا لأمر الله في تربية أنبيائه وإعداد رُسله ، ويا عجبًا للكيفية التي تغيرت بها الصورةُ من شخصيّة (اذكرني عند ربّك) إلى شخصيّة (ارجع إلى ربّك) !! إنّه التعالي على حاجيات الذات والشموخ الإيماني الذي يرقى بصاحبه فوق الملذات والرغبات ، لتُصبح نُصرة الحق في عين العبد أولى من الانتصار للنفس والهوى . وهكذا شاء الحقّ ﷻ أن لا يخرج يوسف عليه السلام في الوهلة الأولى كي لا يَبقى الحقُّ سجينًا ، ولم يكتب اللهُ لرسوله الخروج من السجن إلاّ بعد تحرير الحق من قيوده وإعلان براءة يوسف عليه السلام من الإفك المبين الذي نُسِبَ إليه واتُّهم به على رؤوس الأشهاد ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف ٥١) .

٤- إلقاء موسى عليه السلام الألواح وغضبه على أخيه :

وذلك بعد أن ترك أخاه هارون عليه السلام في قومه (بني إسرائيل) لذهابه إلى ميعاد ربّه الذي وقّته له ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف ١٤٢) ثمّ عاد بعد ذلك اللقاء ، وفوجئ عليه السلام بمشهد مثير ، وجد قومه يعبدون عجلا من الذهب ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف ١٤٨) بل وجدهم عاكفين على عبادته ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (طه ٩١) فصرخ موسى عليه السلام فيهم قائلا : ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ﴾ ثمّ ألقى الألواح من شدّة غضبه مع كونها مصدر هداية ونور، وكأنّ إعصار الغضب قد تحكم فيه ، وبعدها اتجه إلى أخيه وهو في أعلى مراتب الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ (الأعراف ١٥٠) ثمّ قال له : ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۞ أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه ٩٢و٩٣) . لقد أصاب موسى عليه السلام الذهول من هول الموقف ، فأخذ يتساءل : هل عصى هارون عليه السلام

أمره ؟ كيف يسكت على هذه الفتنة العظيمة ولم يقاومهم ؟ كيف رضي لنفسه البقاء بينهم ولم يتركهم ويتبرأ منهم ؟ فما كان من هارون عليه السلام إلاّ أن يمتصّ غضب أخيه موسى عليه السلام بإجابة أطفأت نار الغضب ، فنزلت كالماء البارد على صفيح ساخن ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه ٩٤) وفي سورة الأعراف ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (آية ١٥٠) فردّه إلى أمّ واحدة وضرع ولبن واحد ، فذكّره بالأمّ لا بالأب ، ليكون ذلك أدعى في إثارة الشجون وتفجير الحنان في قلب موسى عليه السلام . ثمّ أفهمه برفق ولين بأنّه لم يكن ما فعله من قبيل الرضا بما صنعوا ، ولكنّه خشي من تعاظم الفتنة ، فقد استضعفوه ، وكادوا يقتلونه حين قاومهم ، بل وماذا يستطيع أن يفعل وهو الوحيد بين كثرة غالبة قاهرة . وبعدها سكت الغضب عن موسى وهدأت نفسه وعاد إلى سكينته ، وأدرك الخطأ مع أخيه وبإلقائه الألواح . وقد لا يتصور أحدٌ أنّ ذلك يَصدُرُ من أحد الأنبياء ، فلربما لم يكن أسلوبه في الموقف هو الصحيح ، لكن حَمِيَّةَ موسى عليه السلام نحو دين الله دفعته لأن يثأر لربّه ولدعوته .

ولمّا بانت له حقيقة الأمر ، سارع نحو الاستغفار وطلب العفو من ربه على فعله الغاضب ، كما استغفر لأخيه ظنًّا منه أنّ هارون عليه السلام كان قد قَصَّرَ في مُهمته حين لم يقدر على منع قومه من عبادة العجل ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف ١٥١)

٥- استعجال داود عليه السلام في الحكم بين المتخاصمين :

قال الحقّ سبحانه وتعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۞ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۞ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ۞ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ

الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (سورة ص : ٢١-٢٦).

لقد كان داود عليه السلام نبيًّا وملكًا ، وكان يخصص بعض وقته للفصل والقضاء بين الناس ، فقد آتاه الله الحكمة ومَنَّ عليه بفصل الخطاب حتى اشتهر بذلك . وكان أيضًا يخصص وقتا آخر للخُلوة والعبادة والتسبيح في محرابه ، فإذا دخل المحراب لم يدخل عليه أحدٌ حتى يخرج هو إلى الناس.

وهنا يسوق الحقُّ سبحانه وتعالى هذا الحدث لرسوله محمد ﷺ للعبرة والعظة ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ فإنّه خبر عجيبٌ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ على محل عبادته ، من غير إذنٍ ولا استئذانٍ ، ولم يدخلوا عليه من الباب المعتاد ، فلا يتسور المحراب هكذا مؤمنٌ ولا أمينٌ ، ففزع منهم وخاف لأنّ طريقة دخولهم عليه كانت غريبةً ومُريبةً ، فبادرا يطمئنانه ، فهما في حاجةٍ إلى أن يحكم بينهما ويقضي في خلافهما والفصل في الظلم الذي وقع بينهما ، وطلبوا منه أن يحكم بالعدل من غير ميل عنه ، وعرض أحدُهما خصومته ، وقبل أن يسمع داود عليه السلام من الطرف المُشتكى عليه ، اندفع ليقضي في هذه المظلمة دون أن

يوجّه إلى الخصم الآخر سؤالا ، أو يطلب منه بيانًا ، أو يسمع منه حُجَّةً ، وعندها اختفى الرجلان عن نبي الله داود عليه السلام فقد كانا في حقيقة الأمر ملكين أرسلهما الله سبحانه وتعالى لاختباره وامتحانه. وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى ضرورة تأنّي القاضي الذي يفصل بين الناس ، وأن لا يتعجل في حُكمه أو يُستثار ، فلا يجب أن يأخذ بظاهر قولٍ واحدٍ قبل أن يمنح الآخرَ فُرصةً للإدلاء بقوله وحجته لأنّ ذلك قد يُغير من وجهة الحكم ، أو يكشف حقائق الأمور . عندها تَنَبَّهَ داود عليه السلام وأدرك أنّ وقوع ذلك كان من قبيل الابتلاء والاختبار ، فسارع إلى الاستغفار وَخَرَّ ساجدًا بين يدي ربّه توبةً وإنابةً إليه ، فغفر الله له ما صدر منه وآتاه من واسع فضله ، وهذا الذي أشارت إليه الآيات السابقة .

وعن سبب سجود نبي الله داود عليه السلام يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سجد في صلاته فقال : "سجدها داود عليه السلام توبةً ونسجدها شُكرًا" (١) وبهذا كان حال نبي الله داود عليه السلام بعد الاختبار والتوبة والإنابة أحسن منه قبل ذلك، وكأنّ الامتحان الذي تعرض له كان لإعداده لمرحلة الاستخلاف في الأرض التي لا يقدر

(١) سنن النسائي الكبرى ج٦/ص٤٤٢؛ وتحفة الأحوذي ج٣/ص١٤٤

على إدارتها إلا من تمرّس في تحقيق العدل في الحكم بين الناس ؛ فكان نبي الله داود عليه السلام الذي صُنِعَ وأُعِدَّ بمنهج الله هو الأقدرَ من بين أهل زمانه على تحقيق ذلك [١].

٦- حرق نبيٍّ من أنبياء الله لبيتٍ من النّمل :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : "نَزَلَ نَبِيٌّ من الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ من تَحْتِهَا ثُم أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ فَأَوْحَى اللهُ إليه فَهَلا نَمْلَةً وَاحِدَةً" [٢]. وفي رواية أخرى أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : سمعت رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول : "قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا من الأَنْبِيَاءِ فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ فَأَوْحَى الله إليه أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً من الْأُمَمِ تُسَبِّحُ" [٣] وفي هذا الفعل تجاوزٌ للحد المعقول ، وردّة فعلٍ غيرُ مُتكافئةٍ ، ولذلك عاتب الله تعالى ذلك النّبي ، ولامه على حرقه لبيت النمل بأكمله . وفي

---

(١) توجد تفصيلات القصة في تفسير الآيات (٢١-٢٦) من سورة ص في التفاسير التالية : تفسير ابن كثير؛ وفي ظلال القرآن ؛ وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان .

(٢) صحيح البخاري ج٣/ص١٢٠٦؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٧٥٩

(٣) صحيح البخاري ج٣/ص١٠٩٩؛ وصحيح مسلم ج٤/ص١٧٥٩

وحي الله تعالى لذلك النبي حمايةٌ له من الوقوع في أي سُلوكٍ يظهر فيه أداءٌ متطرفٌ ، وإن كانت المسألة يسيرةً في ظاهرها ، لكنّها ليست بالهينة في منهج التربية الربانية للأنبياء ، لأنّها ذات دلالةٍ عظيمةٍ في تحقيق الرحمة والعدل لجميع المخلوقات ، مهما صَغُرَ حَجمُهَا ، أو قلّ شأنها . وفي ذلك أيضًا تكريسٌ لما ألزمه الحقُّ ﷻ على نفسه من تحريمٍ للظلم كما جاء في الحديث القُدسي : "يا عِبَادِي إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فلا تَظَالَمُوا" (١)

(١) صحيح مسلم ج٤/ص١٩٩٤

المبحث الثالث

حفظ الله لرسوله محمّد ﷺ من التطرّف

لقد أراد الله لرسوله الكريم ﷺ أن يأخذ دائمًا بالأحسن والأفضل في كل موقفٍ تعرّض له ، وذلك لِعُلُوّ مقامه وعظيم خُلُقِهِ، ولكونه القدوة العليا في حياة المسلمين . وقياسًا على ذلك ، فإنّ الأخذَ بالأحسن أمرٌ مطلوبٌ من كل من يدعو إلى منهج الله ﷻ . قال ﷻ في وصيته لموسى عليه السلام وقومه : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف ١٤٥) فما بالك برسول الله محمد ﷺ الذي اصطفاه الله تعالى من بين أنبيائه ورسله ؟ وما بالك بأمّته التي اصطفاها سبحانه وتعالى من بين كل الأمم ؟ وفيما يلي نذكر بعض المواقف التي تعرّض لها خاتمُ الأنبياء ﷺ وكيف أنّ الله تبارك وتعالى حَمَاهُ فيها من الوقوع في أيّ مظهرٍ من مظاهر التطرّف في الدعوة وفي السلوك أو الأداء .

١ ـ انشغال النبي ﷺ بسادة قريشٍ عن ابن أم مكتوم ﷺ :

فلقد ذُكِرَ في سبب نزول سورة (عبس) أنّ رسول الله ﷺ كان يومًا يخاطبُ نفرًا من سادة قريش طمعًا في إسلامهم ، فبينما هو يخاطبهم ويناجيهم إذ أقبل الصحابي الجليل عبد الله بن أم مكتوم ﷺ وكان ضريرًا ، فجعل يسألُ رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ ويُلِحُّ عليه ، ويقول له : "علمني ممّا علّمك الله" ، وكان النبي ﷺ حينها يود أن يَكُفَّ ابن أم مكتوم ﷺ عن سؤاله حتى يتمكن من مخاطبة أولئك النفر من قريش طمعًا ورغبةً في هدايتهم ؛ فعَبَس في وجهه وأعرض عنه ، وأقبل على أولئك النفر لدعوتهم لدين الله ، فأنزل الله عز وجل سورة (عبس) [١] لتحمل لنبيه ﷺ عتابا واضحا على موقفه مع ابن أم مكتومٍ ﷺ ، وأنّ حرصه على شيءٍ ما ، لا يجب أن يؤدي إلى الإخلال بغيره . وأنّ التوفيق إلى الهداية أمرٌ بيد الله وحده، ومن عطاءاته التي يمنحها لمن يشاء من عباده ، قال تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص ٥٦) وفي عتاب الله هذا ما يدل على مقصد الحق

---

(١) أنظر: تفسير ابن كثير ج٤/ص٤٧١؛ والمستدرك ٢/ص٥٥٨ ؛ وصحيح ابن حبان ٢/ص٢٩٣

ﷻ في حفظه لرسوله محمّد ﷺ من أن يتجاوز القيم العقدية في المفاضلة بين الناس ، مِصداقًا لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣) . وفيه كذلك تربيةٌ لرسول الله ﷺ ومن تبعه من أهل الإيمان على الكيفية التي تُوزَنُ بها الأمورُ ، وتُحدد من خلالها المواقف ، وتُرتب بوجودها المصالح ، ويُستبعد بها الخلل .

لقد كان النبي ﷺ يرجو بإسلام النفر من سادة قريشٍ خيرًا للإسلام والمسلمين ، ويسعى بذلك لتخفيف العسرة والشدة عليهم في أرض مكة ، وفي هذه الأثناء يشأ الله أن يَقدُمَ الرجل الأعمى الفقير (ابن أمّ مكتوم ﷺ) على رسوله ﷺ وهو مُنشَغِلٌ بأمر هؤلاء النفر ، فيقطع حديثه مع القوم ويطلب ما يطلب في وقتٍ قد لا يكون مُناسبًا للموقف ، فيكره النبي ﷺ فعله وموقفه ويظهر الغضب على وجهه الذي لا يراه الرجل الضرير ، فيعبس النبي ﷺ ويعرض عنه. وهنا يحسم الحقّ ﷻ الموقف لبيان الأولويات ، وذلك بعتابٍ صريحٍ لرسوله العظيم ﷺ على موقفه من رجلٍ فقيرٍ من عامة المسلمين ، حيث حَمَلَ هذا العتابُ في كلماته أداة الردع والزجر ﴿كَلاَّ إِنَّهَا

تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس١١) تذكرةً للحبيب محمد ﷺ ، ولمن يقتدي به إلى يوم الدين ، بأنْ لا مفاضلة بين النّاس إلاّ على أساس التقوى ، وأنْ ليس لأحد الأحقيّةُ في دين الله إلاّ لمن كان في منظومته ، ولمن رقى في سُلّـمِه . لقد كان العتابُ مُؤثرًا في شخص رسول الله ﷺ ومُغَيِّرًا في سلوكه نحو الأداء الأسمى للقادم من الزمن ، فبعد نزول سورة (عبس) كان رسول الله ﷺ يُكرم ابن أمّ مكتوم ﷺ ، وكلما دخل عليه كان يقول له : "مرحبًا بالذي عاتبني فيه ربي" (١)

٢ ـ طلب سادة قريش من النبي ﷺ طرد الفقراء :

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال : "كنّا مع النبي ﷺ سِتَّةُ نَفَرٍ فقال الْمُشْرِكُونَ لِلنبِي ﷺ اطْرُدْ هَؤُلاءِ لا يجترؤن عَلَيْنَا ، قال : وَكُنْتُ أنا وابن مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ من هُذَيْلٍ وَبِلالٌ وَرَجُلانِ لَسْتُ أُسَمِيهِمَا فَوَقَعَ في نَفْسِ رسول اللهِ ﷺ ما شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ

---

(١) انظر : أضواء البيان ج٨/ص٤٣٢ ؛ والتفسير الكبير ج٣١/ص٥٠ ؛ والكشاف ج٤/ص٧٠١

حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام ٥٢)[١]. لقد نسي سادة قريش أنّه لا فضل لغنيّ على فقير، ولا لسيّد على عبد، ولا لعربيٍّ على أعجميٍّ إلاّ بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣) يقول النبي ﷺ : "النّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ من تُرَابٍ" [٢] فأصلُنَا واحدٌ ومُنتهانا واحدٌ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه ٥٥).

كان النبي ﷺ يريد أن يعامل سادة قريشٍ بشيءٍ من اللّين ليتألف قلوبهم ، ولكنّ المتكبرين منهم لم يُطيقوا مساواتهم مع الفقراء والمستضعفين من المسلمين كبرًا وعُلُوًّا، ولمّا مرّ الملأ من قريشٍ ووجدوا عند رسول الله ﷺ جماعةً من فقراء المسلمين والمستضعفين منهم كخبابٍ بن الأرت وصهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وعمار بن ياسرٍ ، قالوا : يا محمد اطرد

---

(١) صحيح مسلم ج٤/ص١٨٧٨

(٢) مسند الإمام أحمد ج٢/ص٣٦١ ؛ وسنن أبي داود ج٤/ص٣٣١ ؛ وسنن الترمذي ج٥/ص٧٣٥

هؤلاء من حولك ، فلعلك إن طردتهم نتبعك وندخل في دينك . فرفض النبي ﷺ ذلك ؛ ويبدو أن هذا الطلب سبقهم به الطغاة من قوم نوح عليه السلام فكان جوابه لهم واضحًا كما ورد في قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۞ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود ٢٩ و ٣٠) وبعد ذلك حاول بعضُ سادة قريشٍ أن يعرضوا موقفًا وسطًا فقالوا: إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون ، ووجد النبي ﷺ في هذا الرأي حلاً وسطاً للتقريب بين الأمرين ، واستشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له عمر : "لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون" . ثم طلب هؤلاء السادة من رسول الله ﷺ أن يكتب لهم كتابًا بذلك ، فنزل النهيُ عن ذلك من عند الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الأنعام ٥٢) فرمى رسولُ الله ﷺ بالصحيفة التي جيء بها ليكتبوا عليها كلامًا يفصلُ بين جلوس سادة قريشٍ إلى مجلس رسول الله ﷺ وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله في مجلسٍ آخر. ولم يكن فعلُ النبي ﷺ في تقريب المشركين محبةً لهم أو

استهانةً بضعاف المسلمين وفقرائهم ، بل كان طمعاً في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم رحمةً بهم وشفقةً عليهم . ورأى النبيُّ ﷺ أنّ ذلك لا يُنقصُ من قدر أصحابه فَمَالَ إليه فأنزل الله الآية ونهاه عن طرد ضعاف المسلمين. وبعد هذا النهي ، كان رسول الله ﷺ يجلس معهم ويُقربهم ويُكرمهم . وجاء أمرٌ إلهيٌّ آخر بأن لا يقوم رسولُ الله ﷺ من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فخاطله الحقّ ﷻ : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف ٢٨) وعندما نزلت هذه الآية قال رسولُ الله ﷺ : "الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَعَلَ من أُمتِي مَن أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ" [١] فكان سلمان الفارسي وخباب بن الأرت - رضي الله عنهما - يقولان بأنّ هذه الآية نزلت فيهم ، وأنّ رسول الله ﷺ كان يقعد معنا ويدنو منّا حتى تمسّ ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنّا إذا أراد القيام فنزلت الآية: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ...﴾ فترك القيام

---

(١) سنن أبي داود ج٣/ص٣٢٣ ؛ والمعجم الأوسط ج٨/ص٣٥٨ ؛ وكنز العمال ج١٢/ص٨١ .

عنا ، فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . وبعد عتاب الله لرسوله في أمر الفقراء والمستضعفين من المؤمنين ، كان النبي ﷺ إذا استقبلهم قال لهم : "مرحبًا بمن عاتبني ربي فيهم ." [1]

٣ - قبول النبي ﷺ للفدية لقاءَ إطلاق سراح أسرى بدرٍ:

عاتب الله ﷻ رسوله الكريم محمد ﷺ على ترك الأَوْلى وهو قتل الكفار من أسرى معركة بدر ، الذين لا يُرجى منهم الخير ، فعاتبه بقوله : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الأَخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيم﴾ (الأنفال ٦٧-٦٩).

لقد وقعت مشكلةُ الحكم في أمر أسرى معركة بدر بعد المعركة مباشرة ، حيث اسْتَشَارَ رسول اللهِ ﷺ الناس فيهم (وكان عددهم سبعين رجلاً) [2] فقال: "إنّ اللهَ عز وجل قد أَمْكَنَكُمْ منهم" فَقَامَ عُمَرُ بن الْخَطابِ ﷺ فقال : "يا رَسُولَ اللهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ"

---

(١) انظر: التفسير الكبير ج١٢/ص١٩٣-١٩٤؛ وتفسير أبي السعود ج٣/ص١٣٩؛ وتفسير الشعراوي (تفسير سورتي الأنعام آية ٥٢ ؛ والكهف آية ٢٨)

(٢) البداية والنهاية ج٣/ص٢٩٧

فَأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ ثُم عَادَ رسول اللهِ ﷺ فقال : "يا أَيُّهَا الناس إنّ اللهَ قد أَمْكَنَكُمْ منهم وَإنمَّا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالأَمْسِ". فَقَامَ عُمَرُ ﷺ فقال : "يا رَسُولَ اللهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ" فَأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ ثُم عَادَ النبي ﷺ فقال لِلناسِ مِثْلَ ذلك. فَقَامَ أبو بَكْرٍ فقال : "يا رَسُولَ اللهِ أَن تَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ وتقبل مِنْهُمُ الْفِدَاءَ" ، فَذَهَبَ عن وَجْهِ رسول اللهِ ﷺ ما كان فيه مِنَ الْغَم . فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ، وَأَنْزَلَ الله عزّ وجل : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى....﴾ (١)

وفي روايةٍ أخرى أنّه لمـّا كان يوم بدرٍ قال رسول ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر ﷺ : "يا رسول الله، قومك وأصلك أستبقهم وأستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم" وقال عمر ﷺ :"يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك قدمهم فأضرب أعناقهم" وقال عبد الله بن رواحة ﷺ : "يا رسول الله أنت في وادٍ كثير الحطب فأضرم الوادي عليهم نارًا ثم ألقهم فيه" قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا ثم قام فدخل فقال ناسٌ يأخذ بقول أبي بكر وقال ناسٌ يأخذ بقول عمر وقال ناسٌ يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : إنّ الله لَيُلَيِّنُ قلوب رجالٍ فيه حتى تكون ألين

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج٣/ص٢٤٣

من اللبن ، وأن الله لَيُشَدِّدُ قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإنّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (إبراهيم ٣٦) وإنّ مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة ١١٨) وإنّ مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس ٨٨) وإنّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ عليه السلام ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (نوح ٢٦) ثم قال ﷺ : "أنتم عالةٌ فلا ينفلتنَّ أحد منهم إلاّ بفداءٍ أو ضربة عنقٍ" فأنزل الله عز وجل : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال ٦٧) [1] . والعتاب هنا هو لتنبيه النبي ﷺ إلى الأخذ بالأحسن مع أن الأخذَ بالحَسَنِ لا يترتب عليه عقابٌ وإن وُجِدَ

(١) أنظر: سنن البيهقي ج٦/ص٣٢١ ؛ ومصنف ابن أبي شيبة ج٧/ص٣٥٩

فيه عتابٌ ، وإنّما الذي يُنَاسِبُ مقامَ النبوة هو العمل بالأحسن على الدوام ، خُصوصًا وأنّ ما فعله النّبي ﷺ كان جاريًا في قضاء الله وقدره قبل وقوعه ، قال ﷻ : ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال ٦٨) وهذا الذي شفع لقضاء رسول الله ﷺ فيهم ، ثمّ في دلالة قول الله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال ٦٩) أنَّ ما أخذه النبي ﷺ من جميع ما غنمه يوم بدرٍ ، إنّما هو من الحلال الطيب.

٤- عتابُ الله لنبيه ﷺ في مقدمة سورة التحريم :

قال الله ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ واللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحريم ١-٣). وفي مناسبة هذه الآيات تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها -: "كان النبي ﷺ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ - رضي الله عنها - وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلاً فَتَوَاصَيْتُ أنا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا دخل عليها النبي ﷺ فَلْتَقُلْ إني أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ

مَغَافِيرَ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ فَدَخَلَ على إِحْدَاهُمَا فقالت ذلك له فقال لا بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ له فَنَزَلَتْ ﴿يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لك﴾ ﴿إن تَتُوبَا إلى اللهِ﴾ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لِقَوْلِهِ : بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً" [1] . وقيل في سببُ نزول السورة أنّ النبي ﷺ كان في بيت حفصة - رضي الله عنها - فزارت أباها ﷺ ، فلما رجعت أبصرت مارية - رضي الله عنها - في بيتها مع النبي ﷺ فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت ، فلمّا رأى النبي ﷺ في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة ولك علي أن لا أقربها أبدًا ، فأخبرت حفصة عائشة ، فغضبت عائشة ولم تزل بالنبي ﷺ حتى حلف أن لا يقرب مارية فأنزل الله هذه السورة [2]. وفي بداية السورة عتاب مؤثر وبليغ للنبي ﷺ فما يجوز له أن يحرّم على نفسه ما أحلّه الله له من متاع ، مع أنّ ذلك لم يكن بمعنى التحريم الشرعي ، وإنّما هو قرار خاصّ به ليحْرُم نفسه من الفعل في القادم من

---

(١) صحيح البخاري ج٦/ص٢٤٦٢؛ وصحيح مسلم ج٢/ص١١٠٠

(٢) انظر: تفسير القرطبي ج١٨/ص١٧٨؛ وفتح القدير٥/ص٢٤٩

الزمان [1] فجاء هذا العتاب لتربية النبي ﷺ وأتباعه إلى يوم الدّين ، بأنّه لا يجوز لأحد أن يحرّم على نفسه ما أحلّ الله له ، من أجل أن يُرضي أو يُداهن أحدا على حساب الحقّ . ولعلّ ختام الآية الأولى من سورة التحريم ﴿والله غفور رحيم﴾ يوحي بأنّ ما فعله النبي ﷺ من تحريم الأمر على نفسه، فيه من المؤاخذة ما يستدعي الاستغفار.

٥ ـ قصّة زواج النبي ﷺ من زينب ـ رضي الله عنها ـ :

يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ (الأحزاب ٣٧). كان رسول الله ﷺ قد تبنّى زيد بن حارثة ﷺ قبل النبوّة ، وزوّجه فيما بعد بابنة عمّته زينب بنت جحش - رضي الله عنها - فبقيت عنده قريباً من سنة أو فوقها بقليل ، وقد حدثت بينهما مشاكل كثيرة ، وكان زيد يشتكي إلى النبي ﷺ من تعاظمها وشدة لسانها عليه ،

---

(١) أنظر تفسير الظلال: آية (١) من سورة التحريم.

ويخبره بعزمه على تطليقها ، فأمره النبي ﷺ بأن يتقي الله ولا يطلقها ، مع علمه ﷺ عن طريق الوحي أن زيداً سيطلقها ، وأنّه ﷺ سيتزوجها . فعن أنس بن مالك ﷺ قال : "جاء زَيْدُ بن حَارِثَةَ يَشْكُو فَجَعَلَ النبي ﷺ يقول : اتَّقِ اللهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. قال أَنَسٌ : لو كان رسول اللهِ ﷺ كَاتِمًا شيئا لَكَتَمَ هذه ، قال فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ على أَزْوَاجِ النبي ﷺ تَقُولُ : زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله تَعَالَى من فَوْقِ سَبْعِ سماوات" [1] . وفي قوله تعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب ٣٧) معناه : أنّ النبي ﷺ أخفى في نفسه ما أخبره الله به من أنّ زيداً سيطلّق زينبا ، وأنّه ﷺ سيتزوجها ، فقال لزيد: ﴿اتق الله وأمسك عليك زوجك﴾ مع علمه بأمر الله له . ولم تكن خشية النبي ﷺ هو خوف من شيء يضرّه ، إنّما خشية استحياء ليدفع الشبهة عن نفسه.[2] فكان يخشى أن يقول الناس : تزوج محمد ﷺ امرأة ابنه زيد، حيث تبناه النبي ﷺ قبل نزول حكم تحريم التبنّي ، وبعدها أظهر الله هذا الأمر ، وعاتب نبيّه الكريم ﷺ على كتمانه.

---

(١) صحيح البخاري ج٦/ص٢٦٩٩

(٢) أنظر : تفسير الشيخ الشعراوي ، سورة الأحزاب ، تفسير آية (٣٧)

الخاتمة

وتتضمن أهمّ نتائج البحث وتوصيات الباحث :

أولاً ـ أهمّ النتائج :

١ ـ ليس للتطرّف دينٌ ولا أرضٌ ولا زمنٌ ، فقد ظهر في جميع المِلَل والنِّحَل عبر التأريخ ولم يقتصر على دينٍ واحدٍ بعينه .

٢ ـ إنّ إصرار بعض النّاس على جعل الالتزام بالدّين وبأحكام الشريعة الإسلاميّة هو مظهر من مظاهر التطرّف ، إنّما يحمل تطرفًا بالغًا ، ومصارعةً خاسرةً للعقل والمنطق والتاريخ .

٣ ـ في الوقت الذي ننفي وجود علاقة بين الدّين الإسلامي والتطرّف فإنّنا لا نُنكر أنّ هناك من أبناء ديننا وجلدتنا من وقع في براثين التطرّف الديني ، وهذا ليس من أصل ديننا وإنّما سببه الانحراف عن الدّين سواء في الاعتقاد أو السلوك ، فهناك فرق بين الدّين والتديّن .

٤ ـ هناك مظاهر كثيرة للتطرّف قد غشيت الوسط الدعوي ، وظهرت نتائجه السلبية في واقع المجتمع الإسلامي ، ولهذه المظاهر أسبابها ونتائجها ، لذلك لزمنا بيان ذلك للتنبيه والتحذير .

٥ ـ التطرف هو داء اجتماعي ، قد لا يتوقّف عند حدود معيّنة، وله صور ومظاهر ، سواء حدث في حياة الأفراد أو الجماعات ، أو في سلوك الحاكم والمحكوم ، أو في الفقير والغني ، والصغير والكبير . وقد بيّنا جوانب من هذه الظاهرة من خلال أمثلة متنوعة ، شملت شرائح متباينة ومتنوعة عبر التأريخ .

٦ ـ لقد حفظ الله أنبياءه (عليهم الصلاة والسلام) من التطرّف ، سواء في السلوك أو في الاعتقاد ، صونا للرسالة ، وللقدوة الصالحة التي جعلها الله تبارك وتعالى فيهم بأعلى مراتبها ، فمنع عنهم ارتكاب الفواحش أو الكبائر، أو الوقوع في الخطأ المخلّ بمصداقيّة دعوتهم، فهم خيرُ خلق الله، وقد شهد الله لهم بذلك في مواطن عديدة من القرآن الكريم .

ثانياً - أهمّ التوصيات :

١ - في هذا البحث لدينا رغبة شديدة في أن نقدّم دعوةً صادقةً لأصحاب الفكر المستنير ، وللمنصفين من أتباع الديانات الأخرى ، إلى مراجعة الأُسس التي يقيسون عليها ظاهرة التطرّف الديني ، وتجاوز جميع المعايير المزدوجة التي قد تستهدف دينًا بعينه دون غيره . أمّا من أبى إلاّ أن يُصرّ على الاستمرار في نعت الإسلام بالإرهاب والتطرّف فإننا لا نملك عندئذٍ إلاّ أنْ نحذّره من الانغماس في مستنقع الغيّ والضلال ، والانزلاق في منحدرات الوهم .

٢ - نوصي أصحاب القرار إلى تجنّب أساليب القوّة والقمع وتكميم الأفواه ، والسعي إلى معالجة هذه ظاهرة التطرّف بحكمة وعقلانيّة، فالمعالجات الأمنية قد تؤدّي إلى تحقيق انكماشٍ نسبيٍّ ومُؤقتٍ لهذه الظاهرة، لكنّها سرعان ما تطفو بها إلى السطح والواجهة من جديدٍ ، ولعلّ في هذه السُّنة الماضية والمتكررة دلالةٌ بارزةٌ على أنّ الفكر لا يعالج إلاّ بالفكر ، والحجّة لا تُدحض إلاّ بالحجّة ، وهذا منهجٌ أصيلٌ عرفه المسلمون منذ القدم ، فقد ثبت أنّ الإمام عليًّا ﷺ أرسل الصحابي الجليل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - لمناظرة الخوارج الذين حكَّموا آراءهم الفاسدة، فتأوّلوا

بعض النّصوص حتى حملوها على غير محملها وكفّروا عليًّا ﷺ ومن معه من الصحابة الكرام ﷺ وحملوا السلاح عليهم ظلما وعدوانا. ولقد تواترت الشواهدُ والقرائنُ بعد هذه المناظرة على رجوع أكثر من ألفين من هؤلاء إلى صفوف أهل الحقّ والهُدى .

٣ - أصبح من الضروري أن تتوقّف الدول التي تتصدّر محاربة التطرّف والارهاب عن استباحة حُرُمات المسلمين ودماء وأعراض شعوبهم لإنّ الاعتداء لا يُقابل إلاّ بالاعتداء ، واستباحة المقدسات لا تُدفع غالبًا إلاّ بممارسات تأخذ طابع العنف ، ومن بدأ بالظلم أظلم .

وفي الختام ، فهذا العمل هو جهْد المقلّ ، وزادُ المستنجد بالله العليّ القدير ، فالله أسأل أن يتقبّله منّي بقبولٍ حسنٍ ، وأن يجعله صلاحًا في أهلي وذريتي ، وحُسنًا في خاتمتي ، وامتدادًا في أثري بعد رحيلي ، وذُخرًا لي عنده يوم ألقاه ، إنّه سبحانه وليُّ ذلك والقادر عليه.

الفهـارس

(فهرس موضوعات الكتاب)

الموضوع **الصفحة**

*** المقدمة** . . . . . .

*** الفصل الأول : حقيقة التطرّف الديني** . . . . . .

- المبحث الأوّل : ماهيّة التطرّف الديني . . . . . .

- المبحث الثاني : نظرات في ظاهرة التطرّف الدّيني . . . .

- المبحث الثالث : أسباب التطرّف الديني وسبل علاجها . . .

- المبحث الرابع : مظاهر التطرّف في الوسط الدعوي . . .

*** الفصل الثاني : أمثلة عن التطرّف (أحداث ووقائع)** . . .

- المبحث الأوّل : التطرّف على مستوى الأفراد . . . . . .

- المبحث الثاني : التطرّف على مستوى الجماعات . . . . .

- المبحث الثالث : التطرّف على مستوى القادة والحكام . . .

- المبحث الرابع : تطرّف أتباع الأديان السابقة . . . . . .
- المبحث الخامس : تطرّف أهل البدع والأهواء . . . . . .
- المبحث السادس : إخبار النبي ﷺ عن تطرفٍ قادمٍ . . . .
الفصل الثالث : حفظ الله لأنبيائه من التطرّف . . . . . .
- المبحث الأوّل : مفهوم العصكة والحفظ . . . . . .
- المبحث الثاني : أمثلة عن حفظ الله لأنبيائه من التطرّف . .
- المبحث الثالث : حفظ الله لرسوله ﷺ من التطرّف . . . . .
*** الخاتمة (النتئج والتوصيات)** . . . . . .
*** الفهارس (فهرس الموضوعات)** . . . . . .
*** الفهارس (فهرس المصادر والمراجع)** . . . . . .

(فهرس المصادر والمراجع)

ملحوظة : لايدخل في الترتيب (أل التعريف - ابن - أبو)

- **إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة :** حمود بن عبد الله التويجري، دار الصميعي للنشر والتوزيع ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م، ط ٢.
- **إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر :** شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي (المتوفى سنة : ١١١٧هـ) دار الكتب /بيروت ، ط٢٠٠٦/٣م تحقيق : أنس مهرة.
- **الأحاديث المختارة :** محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي ، مكتبة النهضة/ مكة المكرمة ١٤١٠ ، ط ١، تحقيق : عبد الملك دهيش.
- **أحكام القرآن :** أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ، دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٠٥، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي
- **إحياء علوم الدين :** أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى سنة : ٥٠٥هـ) دار المعرفة - بيروت .
- **الآداب الشرعية والمنح المرعية :** محمد بن مفلح ، شمس الدين المقدسي (المتوفى سنة ٧٦٣هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١٩٩٦/٢م ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و . . .
- **أدب المفتي والمستفتي :** تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣هـ)

مكتبة العلوم والحكم ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ ، تحقيق : موفق عبد الله عبد القادر .

- **الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار :** الإمام النووي، دار الكتب العربي - بيروت - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب :** يوسف بن عبد الله بن عبد البر (المتوفى سنة٤٦٣هـ) ط١/١٤١٢هـ ، تحقيق : علي البجاوي .
- **أسد الغابة في معرفة الصحابة :** عز الدين بن الأثير علي بن محمد الجزري (المتوفى سنة ٦٣٠هـ) دار إحياء التراث ، بيروت ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ط١ ، تحقيق : عادل أحمد الرفاعي .
- **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى** : نور الدين علي بن محمد (المشهور بالملا علي القاري) دار الأمانة / مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م، تحقيق : محمد الصباغ
- **أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب :** محمد بن درويش بن محمد الحوت البيروتي الشافعي (المتوفى سنة ١٢٧٧هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- **أضواء البيان :** محمد الأمين بن محمد بن المختار الشنقيطي . دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٥م ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات .

- **الاعتصام :** أبو اسحاق الشاطبي ، المكتبة التجارية ، مصر .
- **إعلام الموقعين عن رب العالمين :** شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ابن قيم الجوزية) (المتوفى سنة ٧٥١هـ) دار الجيل - بيروت ، ١٩٧٣م ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد
- **إغاثة اللهفان :** محمد بن أبي بكر الزرعي (المتوفى سنة ٧٥١م) دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م
- **أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات:** مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٦، ط١، تحقيق : شعيب الأرناؤوط
- **الإنصاف فيما وقع في العصر الراشدي من الخلاف :** حامد محمد الخليفة ، ط ١ ، ١٤٣٢هـ ، دار الميمان ، الرياض .
- **البحر المحيط في أصول الفقه :** بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، دار الكتب - لبنان/ بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط١ ، ضبط نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه : د. محمد تامر.
- **البداية والنهاية :** أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤م) طبعة : مكتبة المعارف ، بيروت .

- **البرهان في علوم القرآن :** محمد بن بهادر الزركشي (المتوفى سنة ٧٩٤هـ) دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩١هـ . تحقيق: محمد إبراهيم .
- **تاريخ الإسلام :** شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري .
- **تاريخ مدينة دمشق :** علي بن الحسن ابن هبة الله ، المعروف بابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) دار الفكر/ بيروت ١٩٩٥م.
- **تاريخ الطبري :** محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة : ٣١٠هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت .
- **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام :** برهان الدين إبراهيم ابن شمس الدين محمد بن فرحون اليعمري ، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، تحقيق: خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه : جمال مرعشلي.
- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي :** أبو العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري (المتوفى سنة١٣٥٣هـ) دار الكتب ، بيروت .
- **تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة :** محمد أمحزون ، مكتبة الكوثر في الرياض ، ط١ ، ١٩٩٤م (أصل الكتاب رسالة دكتوراه) .

- **تخريج الأحاديث والآثار :** جمال الدين عبد الله بن محمد بن يوسف الزيلعي (المتوفى سنة ٧٦٢هـ) دار ابن خزيمة ، الرياض ، ط١ - ١٤١٤هـ ، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد .
- **التراتيب الإدارية :** محمد عَبْد الحَيّ الإدريسي (المعروف بالكتاني) (المتوفى سنة ١٣٨٢هـ) دار الأرقم - بيروت ، ط٢ ، تحقيق : عبد الله الخالدي .
- **تعليم المتعلم طريق التعلم :** للزرنوجي، تحقيق الشيخ عبد الجليل العطا، دار النعمان ـ دمشق، ط١/١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .
- **تفسير أبي السعود** (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): محمد بن محمد العمادي (المتوفى سنة ٩٨٢هـ) إحياء التراث ، بيروت .
- **تفسير البحر المحيط :** محمد بن يوسف (أبو حبان الأندلسي) (توفي سنة ٧٤٥هـ) دار الكتب ، بيروت ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م. تحقيق : مجموعة أساتذة .
- **تفسير الخازن :** علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٥هـ .
- **تفسير الشيخ الشعراوي:** المكتبة الشاملة الألكترونيّة ، إصدار٢.
- **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) :** شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (المتوفى سنة ٦٧١هـ) دار الكتب ،

القاهرة ، ط٢ ،١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

- **التفسير الكبير :** فخر الدين محمد بن عمر الرازي (المتوفى سنة ٦٠٥هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .
- **تفسير ابن كثير :** أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤م) بيروت ١٤٠١هـ .
- **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار :** محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) دار المأمون للتراث ، دمشق، ١٩٩٥ ، ط١ ، تحقيق : علي رضا .
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان :** عبد الرحمن بن ناصر السعدي (المتوفى سنة ١٣٧٦هـ) مؤسسة الرسالة ،ط١ ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق .
- **جامع بيان العلم وفضله :** يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (المتوفى سنة ٤٦٣هـ) دار الكتب العلمية- بيروت ، ١٣٩٨هـ .
- **جامع العلوم والحكم :** عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحنبلي (المتوفى سنة ٧٩٥هـ) مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط٧ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس.
- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع :** أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣هـ) مكتبة

المعارف ، الرياض ، ١٤٠٣هـ ، تحقيق : محمود الطحان.

- **الجمع بين الصحيحين (البخاري ومسلم) :** محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي (المتوفى سنة ٤٨٨هـ) دار ابن حزم/ بيروت ط ١٤٢٣/٢هـ/٢٠٠٢م ، تحقيق : علي حسين البواب .
- **جمهرة خطب العرب :** أحمد زكي ، المكتبة العلمية - بيروت .
- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن :** عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (المتوفى سنة ٨٧٥هـ) مؤسسة الأعلمي ، بيروت.
- **حاشية الجمل على شرح المنهج :** سليمان الجمل ، دار الفكر ، بيروت.
- **حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة :** محمد صديق القِنَّوجي (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ) تحقيق: مصطفى الخن ؛ ومحي الدين مستو، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء :** أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى سنة ٤٣٠هـ) دار الكتاب العربي - بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٥هـ .
- **الخصائص الكبرى :** جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- **دائرة المعارف الإسلامية :** شركة بريل الهولندية. صدرت بالعربية في مصر في الستينات، وأعيد طبعها بالشارقة ١٩٩٨م
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور :** جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى سنة ٩١١هـ) دار الفكر - بيروت
- **دلائل النبوة :** أحمد بن الحسين البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨م) دار الكتب العلمية/ بيروت ط١، ١٤٠٥هـ. تحقيق: عبد المعطي قلعجي.
- **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة :** علي بسام الشنتربني (المتوفى سنة ٥٤٢هـ) دار الثقافة/ بيروت ١٣١٧هـ/١٩٩٧م . تحقيق : إحسان عباس .
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم :** شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى سنة ١٢٧٠هـ) دار الكتب العلمية/ بيروت ط١، ١٤١٥هـ ، تحقيق: علي عبد الباري عطية.
- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين :** محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة** : محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى سنة ١٤٢٠هـ) مكتبة المعارف - الرياض .
- **السنن الأبين :** محمد بن عمر الفهري (المتوفى سنة ٧٢١م) مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، ٢٥١٧هـ . تحقيق : صلاح المصراتي .

- **سنن البيهقي الكبرى :** أحمد بن الحسين الخراساني ، أبو بكر البيهقي (المتوفى سنة ٤٥٨هـ) مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، ١٩٩٤م ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا .
- **سنن الترمذي (الجامع الصحيح) :** محمد بن عيسى الترمذي (المتوفى سنة ٢٧٩هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت، تحقيق أحمد شاكر وآخرون .
- **سنن الدارمي :** عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام الدارمي السمرقندي (المتوفى سنة : ٢٥٥هـ) دار الكتاب العربي/ بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، تحقيق: فواز زمرلي ، وخالد العلمي .
- **سنن أبي داود :** سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (المتوفى سنة ٢٧٥هـ) دار الفكر ، تحقيق : محمد محي الدين .
- **سنن ابن ماجه :** محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (المتوفى سنة: ٢٧٥هـ) دار الفكر ، بيروت ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- **سنن النسائي الكبرى :** تأليف : أحمد بن شعيب النسائي (المتوفى سنة ٣٠٣هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١/١٩٩١م، تحقيق: عبد الغفور البنداري وسيد كسروي.
- **سير أعلام النبلاء :** شمس الدين الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٣هـ/ط٩، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي.

- **السيرة النبوية :** عبد الملك بن هشام (المتوفى سنة ٢١٣هـ) دار الجبل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ ، تحقيق : طه عبد الرؤوف .
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب :** عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي (المتوفى سنة ١٠٨٩هـ) دار ابن كثير ، دمشق، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، تحقيق: عبد القادر ومحمود الأرناؤوط.
- **شرح العقيدة الطحاوية :** عبد الرحمن بن ناصر البراك ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٤ ، ١٣٩١هـ .
- **شرح النووي على صحيح مسلم :** أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى سنة ٦٦١هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط٢ ، ١٣٩٢هـ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.
- **شعب الإيمان :** أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤١٠هـ ، ط١ ، تحقيق : محمد السعيد زغلول .
- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرّف :** يوسف القرضاوي، الدوحة ١٤٠٢هـ .
- **صحيح الأدب المفرد :** محمد بن إسماعيل البخاري (توفي سنة ٢٥٦هـ) دار البشائر ، بيروت ط٣- ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .

- **صحيح البخاري :** محمد بن اسماعيل البخاري (توفي سنة ٢٥٦هـ) دار ابن كثير/بيروت (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ط ٣ ، تحقيق: مصطفى ديب البغا.
- **صحيح ابن حبان :** محمد بن حبان البستي (المتوفى سنة : ٣٥٤هـ) مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م تحقيق : شعيب الأرنؤوط.
- **صحيح ابن خزيمة :** محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري (المتوفى سنة:٣١١هـ) المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م تحقيق: محمد الأعظمي.
- **صفة الفتوى والمفتي والمستفتي :** أحمد بن حمدان الحراني (المتوفى سنة ٦٩٥هـ) المكتب الإسلامي/بيروت ط٣ ، ١٣٩٧، تحقيق: الشيخ الألباني .
- **الصفحة الإلكترونية للموسوعة الحرة (وكيبيديا) :** موضوع خسائر الحرب العالمية الثانية .
- **طبقات الشافعية الكبرى :** تاج الدين السبكي (المتوفى سنة : ٧٧١هـ) هجر للطباعة ، ط٢،١٤١٣هـ ، تحقيق : محمود الطناحي ، وعبد الفتاح الحلو .
- **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ :** أبو بكر بن العربي (المتوفى سنة : ٥٤٣هـ) دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م . تحقيق: محب الدين الخطيب ، ومحمود الإستانبولي .

- **عون المعبود شرح سنن أبي داود :** محمدة شمس الحق العظيم آبادي (المتوفى سنة :١٩٩٥م) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م .
- **فتاوى ابن الصلاح :** عثمان بن عبد الرحمن ، تقي الدين ابن الصلاح (المتوفى سنة : ٦٤٣هـ) مكتبة العلوم والحكم ، عالم الكتب، بيروت ط١ ، ١٤٠٧هـ. تحقيق: موفق عبد الله عبد القادر.
- **الفتاوى الفقهية الكبرى :** أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (المتوفى سنة : ٩٧٤هـ) المكتبة الإسلامية .
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى سنة: ٨٥٢م) دار المعرفة - بيروت ، تحقيق، محب الدين الخطيب .
- **فتح القدير :** محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (المتوفى سنة : ١٢٥٠هـ) دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١هـ
- **الفروسية :** محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (المتوفى سنة : ٧٥١هـ) دار الأندلس - السعودية- حائل، ط١ ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م ، تحقيق : مشهور بن حسن .
- **الفروع وتصحيح الفروع :** محمد بن مفلح المقدسي ، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٨، ط١، تحقيق: حازم القاضي.
- **الفقيه والمتفقه :** أحمد بن علي بن ثابت ، الخطيب البغدادي (المتوفى سنة : ٤٦٣هـ) دار ابن الجوزي -

السعودية ، ط٢ ، ١٤٢١ه، تحقيق : أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي .

- **فيض القدير شرح الجامع الصغير :** عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي (المتوفى سنة : ١٠٣١هـ) المكتبة التجارية الكبرى - مصر ، ط١ ، ١٣٥٦هـ .
- **في ظلال القرآن** : سيد قطب (المتوفى سنة : ١٣٨٥هـ) دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط١٧ ، ١٤١٢هـ .
- **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث :** محمد جمال الدين القاسمي/ دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ط١
- **الكشاف :** محمود بن عمر الزمخشري (المتوفى سنة:٥٣٨هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق :عبد الرزاق المهدي.
- **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس:** إسماعيل بن محمد العجلوني ، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٥، ط٤، تحقيق: أحمد القلاش.
- **كنز العمال :** علاء الدين علي المتقي الهندي (المتوفى سنة ٩٧٥هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ط١ ، تحقيق: محمود علي الدمياطي.
- **مجمع الزوائد :** علي بن أبي بكر الهيتمي (المتوفى سنة : ٨٠٧م) دار الريان للتراث ودار الكتاب ، القاهرة/بيروت ، ١٤٠٧هـ .

- **المجموع شرح المهذب :** محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى سنة : ٦٧٦هـ) دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٧م .
- **مجموع الفتاوى :** أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (المتوفى سنة: ٧٢٨هـ) مكتبة ابن تيمية ط٢ ، تحقيق : عبد الرحمن النجدي
- **مداراة الناس :** عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان البغدادي الأموي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى سنة : ٢٨١هـ) دار ابن حزم- بيروت، ط١/١٤١٨هـ/١٩٩٨م، تحقيق: محمد خير رمضان.
- **المدونة الكبرى :** مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى سنة : ١٧٩هـ) دار صادر ، بيروت .
- **المستدرك على الصحيحين :** محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (المتوفى سنة : ٤٠٥هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م . تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا .
- **مسند أحمد بن حنبل :** أبو عبد الله الشيباني (المتوفى سنة: ٢٤١هـ) مؤسسة قرطبة ، مصر .
- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه :** أحمد بن أبي بكر الكناني، دار العربية- بيروت- ١٤٠٣/ط٢، تحقيق : محمد المنتقى الكشناوي

- **معجم الأدباء :** ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى سنة: ٦٢٦هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م .
- **المعجم الكبير :** سليمان بن أحمد الطبراني (المتوفى سنة : ٣٦٠هـ) مكتبة الزهراء/الموصل/ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م. تحقيق : حمدي بن عبد المجيد .
- **المعرفة والتاريخ :** أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ-١٩٩٩م ، تحقيق: خليل المنصور
- **المغني :** عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الدمشقي المقدسي (المتوفى سنة: ٦٢٠هـ) دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ .
- **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة:** محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، ط١، تحقيق: محمد عثمان الخشت .
- **لسان الميزان :** أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، مؤسسة الأعلمي - بيروت - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، ط٣ تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند -
- **الملل والنحل :** محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) دار المعرفة/ بيروت١٤٠٤هـ ، تحقيق : محمد سيد كيلاني

- **مناهل العرفان في علوم القرآن :** محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى سنة: ١٣٦٧هـ) ط١ ، ١٩٩٦م ، دار الفكر ، بيروت .
- **المنتخب في تفسير القرآن :** لجنة من علماء الأزهر ، طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر ، مؤسسة الأهرام .
- **منهاج السنة النبوية :** أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة (المتوفى سنة٧٢٨هـ) مؤسسة قرط، ط١ ، ١٤٠٦هـ ، تحقيق : محمد رشاد.
- **الموافقات :** إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي (المتوفى سنة: ٧٩٠هـ) دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق : عبد الله دراز .
- **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل:** شمس الدين محمد بن محمد الطرابلسي المغربي (المتوفى سنة ٩٥٤هـ) دار الفكر، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٨هـ .
- **موقع الدكتور راغب السرجاني (الصفحة الإلكترونية)** : فتنة مقتل عثمان ﷺ ، وقصّة الإسلام في حديثه عن التتار ودولتهم .
- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال :** محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (المتوفى سنة : ٧٤٨هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م ، ط١ ، تحقيق : علي محمد وعادل أحمد عبد الموجود .

- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة :** يوسف بن تغري بردي الظاهري (المتوفى سنة ٨٧٤هـ) دار الكتب ، مصر.
- **نيل الأوطار :** محمد بن علي الشوكاني (المتوفى سنة ١٢٥٥هـ) دار الجبل ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- **وصيّة الإمام أبي حنيفة :** راجعها إبراهيم مختار الجبري، مطبعة الحلبي (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م) .
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :** أحمد بن محمد بن خلكان (المتوفى سنة٦٨١هـ) دار الثقافة / لبنان ، تحقيق : إحسان عباس.
- **يتيمة الدهر :** عبد الملك بن محمد الثعالبي (المتوفى سنة٤٢٩هـ) دار الكتب، بيروت ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ط ١ تحقيق : مفيد محمد قمحية.